الدولة الحديثة المسلمة

دعائمها ووظائفها

الدكتور علي محمد الصّلابي

دار المعرفة

بيروت لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، آية : ١٠٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء، آية : ١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب، آية : ٧٠ ـ ٧١).

يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد:

جاء الإسلام بتنظيم شامل لأمور الدين والدنيا معاً وهو بذلك يختلف عن المسيحية التي فصلت بين الدين والدولة فجعلت الدين من اختصاص الكنيسة والدنيا من اختصاص الدولة، وليس هناك مجال للشك في أن النظام الذي أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم وتبعه المسلمون من بعده هو نظام ديني سياسي معاً وهو نظام العقيدة والشريعة[١].

ولم يعرف المسلمون الأوائل التفريق بين السياسة والدين، بل جعلوا السياسة منخرطة ضمن تعاليم الدين، فلو قرأنا كتب الفقه لرأيناها تتكلم عن الأمور السياسية ـ حسب لغة تلك العصور ـ

[١] الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية، محمد زكريا النداف، ص: ٨٣.

كما تتكلم عن الوضوء والصلاة والقيام، وهذا ما أكده ابن تيمية عندما قال: فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله[1]، فجعل اتخاذ الحكم والسياسة من الدين وسيلة من وسائل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فالدولة في الإسلام من الدين، وأن الدين في الإسلام محيط بالسياسة وغيرها من النشاطات البشرية ومنظم لها جميعاً، لأن هذه العبارة منطلقة من ثقافتنا وحضارتنا[2].

وبيّن القرآن الكريم وجوب وجود القوة في أيدٍ حكيمة لإقامة العدل ولمنع الفساد والظلم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد، آية : ٢٥).

في هذه الآية عناوين كبرى هي:

ـ **الكتاب:** وهو هنا القرآن الكريم الذي تضمن مبادئ الدين الأخير والرسالة الخاتمة. ويشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

ـ **الميزان:** وهو إشارة للعدل بين الناس بالموازين العادلة وإعطائهم حقوقهم.

ـ **القسط:** وقيام الناس بالقسط إقامة حياتهم وأنواع نشاطهم على أساس التوازن بين جوانبها المختلفة دون أن يطغى على جانب ولا فئة على فئة.

ـ **الحديد:** وهو رمز القوة التي تؤيد مبادئ الكتاب وموازين العدل وقوانين القسط[3].

إن من الناس من يستجيب إلى الحق بالخطاب العقلي أو الأسلوب الوعظي، ولكن من الناس من لا يستجيب لما فيه صلاحه وصلاح مجتمعه إلا بوجود قوة رادعة، تغلب في نفسه قوى الخير على قوى الشر، ورضي الله عن عثمان بن عفان إذ قال: إن الله ليزع بالسلطان ما لا

---

[1] الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية، ص: ٨٧.
[2] المصدر نفسه، ص: ٨٧.
[3] الأخلاق السياسية، ص: ١٢٢.

يزع بالقرآن[1]، فلذلك كان وجود الدولة ضرورياً لحماية المجتمع من الفئات المنحرفة عن سبيل الاستقامة، الذين لو أطلقت أيديهم لعاثوا في الأرض فساداً، فأهلكوا أنفسهم ومجتمعاتهم، كما بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث السفينة وهو ما يرويه النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**»[2].

وبيّن القرآن الكريم أركان الحكم، كوجوب الحكم بالعدل على ولاة الأمر، ووجوب الطاعة على الرعية والالتزام بالمرجعية العليا في كل ما يختلف فيه الرعية مع حكامهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَّ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَّ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَّ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِّ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء، آية : ٥٨ ـ ٥٩).

إن الإسلام الذي شرَّعه الله لم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا وتعهده بالتشريع والتوجيه فهو ـ بطبيعته ـ شامل لكل نواحي الحياة، مادية وروحية فردية واجتماعية، وقد خاطب الله تعالى رسوله:

ـ بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل، آية : ٨٩).

ـ والقرآن يقول:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة، آية : ١٨٣)

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٦٠).
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٣٦١.

ـ وهو نفسه الذي يقول في نفس السورة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ (البقرة، آية : ١٧٨).

ـ وهو الذي يقول فيها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة، آية : ١٨٠).

ـ ويقول في ذات السورة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة، آية : ٢١٦).

عبّر القرآن عن فرضية هذه الأمور كلها بعبارة واحدة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، فهذه الأمور كلها مما كتب الله على المؤمنين أي فرضه عليهم: الصيام من الأمور التعبدية، والقصاص في القوانين الجنائية، والوصاية فيما يسمى "الأحوال الشخصية"، والقتال في العلاقات الدولية، وكلها تكاليف شرعية يتعبد بتنفيذها المؤمنون، ويتقربون بها إلى الله، فلا يتصور من مسلم قبول فرضية الصيام، ورفض فرضية القصاص، أو الوصية أو القتال وجميعها تقول ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾.

وقد ثبُت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك أمراً يقربنا من الله إلا وأمرنا به، ولا ترك أمراً يبعدنا عن الله إلا نهانا عنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[١].

---

[١] الدين والسياسة، د. يوسف القرضاوي، ص: ٦٩، ورواه أحمد في المسند، رقم: ١٧١٤٢.

ومن قرأ كتب الفقه الإسلامي وجدها تشمل على شؤون الحياة كلها من فقه الطهارة، إلى فقه الأسرة إلى فقه المجتمع إلى فقه الدولة وهذا في غاية الوضوح لكل طالب مبتدئ، ناهيك بالعالم المتمكن[١].

إن الفقهاء أدركوا ضرورة التمييز في أبواب الفقه، فوضعوا أبواباً للعبادات وأبواباً للمعاملات، وبذلك فرقوا بين المسائل المتعلقة بالعبادة والمعاملات ويمكننا اليوم أن نسمي أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات "بالقانون الإسلامي" ولندخل ضمن هذا القانون إلى جانب هذا الجزء من علم الفقه، علم أصول الفقه، وهو يبيّن لنا مصادر القانون، وكيفية استنباط الأحكام من تلك المصادر، ولندخل أيضاً في القانون الإسلامي مباحث الإمامة، فإن هذا أساس القانون العام، ويمكن تقسيم القانون الإسلامي إلى قانون خاص، وقانون عام، فالقانون الخاص يشمل القواعد التي تضبط علاقات الأفراد بعضها ببعض، فأبواب المعاملات، والأحوال الشخصية، تدخل في القانون الخاص والقانون العام يشمل القواعد التي تسري على السلطات العامة وعلاقة هذه السلطات بالأفراد.

وبدون مشقة نجد في القانون الإسلامي الخاص: قانوناً مدنياً، وقانون مرافعات، وأساساً لقانون تجاري وفي القانون الإسلامي العام: قانوناً دستورياً وقانوناً إدارياً ويمكننا أن نبيّن قانوناً دولياً عاماً وقانوناً دولياً خاصاً من أصول وقواعد ومقاصد الإسلام[٢].

إن تعاليم الإسلام وأحكامه في العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات، لا تؤتي أكلها إلا إذا أُخذت متكاملة، فإن بعضها لازم لبعض، وهي أشبه "بوصفة طبية" كاملة مكونة من غذاء متكامل، ودواء متنوع وحمية وامتناع من بعض الأشياء وممارسة لبعض التمرينات.. فلكي تحقق هذه الوصفة هدفها، لابد من تنفيذها جميعاً، فإن ترك جزء منها قد

[١] الدين والسياسة، ص: ٦٩.
[٢] الإسلام والسياسة، د. محمد عمارة، ص: ٨٩.

يؤثر في النتيجة كلها[1]، فالإسلام يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضها دون بعض وقد اشتد القرآن الكريم في إنكار هذا المسلك على بني إسرائيل.

ـ قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، آية : ٨٥).

ولما أحب بعض اليهود أن يدخلوا في الإسلام بشرط أن يحتفظوا ببعض الشرائع اليهودية مثل تحريم يوم السبت، أبى الرسول عليهم ذلك إلا أن يدخلوا في شرائع الإسلام كافة[2].

ـ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة، آية : ٢٠٨).

وخاطب اللهُ سبحانه رسولَه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة، آية : ٤٩).

فهنا يحذر الله رسوله من غير المسلمين: أن يصرفوه عن بعض أحكام الإسلام، وهو خطاب لكل من يقوم بأمر الأمة من بعده[3].

إن الحياة وحدة لا تنقسم، وكل لا يتجزأ ولا يمكن أن تصلح الحياة إن تولى الإسلام جزءاً منها كالمسجد والزوايا يحكمها ويوجهها وتركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية، وأفكار بشرية وفلسفات أرضية توجهها وتقودها، ولا يمكن أن يكون للإسلام المسجد، ويكون للعلمانية المدرسة والجامعة والمحكمة والإذاعة والتلفاز والصحافة والمسرح والسينما والسوق والشارع وبعبارة أخرى الحياة كلها[4].

---

[1] الدين والسياسة، ص: ٧٠.
[2] الدين والسياسة، ص: ٧٠.
[3] المصدر نفسه، ص: ٧٠.
[4] المصدر نفسه، ص: ٧٠.

إن الدول في عصرنا أمست تملك أزمة الحياة كلها في أيديها، من التعليم إلى القضاء، إلى الثقافة إلى الإعلام إلى المساجد، إلى الاقتصاد والاجتماع، فلا يمكن لمصلح أن يتجاوزها، ويدعها للقوى العلمانية تفعل ما تشاء وهي قادرة على أن تهدم كل ما بناه أهل الصلاح بسهولة ويسر، ولاسيما أن الهدم عادة أسهل من البناء، فكيف بمن يهدم بالألغام الناسفة التي تستطيع أن تجعل العمارة الشاهقة كومة من التراب في دقائق معدودات؟

وفي عصرنا انتقلت القوة من الأمة إلى الدولة وأضحت هي المتحكمة في معظم الأمور، من تعليم وإعلام وثقافة وصحة وقضاء وشؤون دينية وأمنية وعسكرية واقتصادية، فكيف يمكن للمصلح أن يباشر الإصلاح إذا كانت الدولة مضادة لاتجاهه فهو يُحيي وهي تُميت، وهو يجمع وهي تفرغ، وهو يشرق وهي تغرب؟

سارت مغربة وسرت مشرقاً

شتان بين مشرقٍ ومغربٍ

أو كما قال الشاعر الآخر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه

إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

فكيف إذا كان الذي يهدم الدولة ذاتها، بما تملك من إمكانات فائقة وآليات كبيرة؟

وهذا ما جعل أفراد الشعوب المؤمنة بالمرجعية الإسلامية من مصلحين وعلماء وساسة ومواطنين ومواطنات يدخلون معترك السياسة ويلتمسون الإصلاح عن طريق إقامة دولة تحقق قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (الحج ، آية : ٤١)[١].

إن البشر لا يصلح لهم إلا سياسة تضبطها قيم الدين وقواعد الأخلاق وتلتزم بمعايير الخير والشر، وموازين الحق والباطل.

---

[١] الدين والسياسة، ص: ٧٧.

إن السياسة حين ترتبط بالدين تعني: العدل في الرعية والقسمة بالسوية والانتصار للمظلوم على الظالم وأخذ الضعيف حقه من القوي، وإتاحة فرص متكافئة للناس ورعاية الفئات المسحوقة من المجتمع كاليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ورعاية الحقوق الأساسية للإنسان بصفة عامة.

إن دخول الدين في السياسة ليس ـ كما يصوره الماديون والعلمانيون ـ شراً على السياسة، وشراً على الدين نفسه، إن الدين الحق إذا دخل في السياسة: دخل دخول الموجه للخير، الهادي إلى الرشد، المبين للحق، العاصم من الضلال والغي.

فهو لا يرضى عن ظلم، وهو لا يتغاضى عن زيف، ولا يسكت عن غي، ولا يقر تسلط الأقوياء على الضعفاء، ولا يعاقب السارق الصغير، ويكرم السارق الكبير.

والدين إذا دخل في السياسة: هداها إلى الغايات العليا للحياة وللإنسان: توحيد الله، وتزكية النفس، وسمو الروح، واستقامة الخلق، وتحقيق مقاصد الله من خلق الإنسان: عبادة الله وخلافته في الأرض، وعمارتها بالحق والعدل، بالإضافة إلى ترابط الأسرة، وتكافل المجتمع وتماسك الأمة، وعدالة الدولة وتعارف البشرية[١].

والدين يمنح في الوقت نفسه رجال السياسة: الحوافز التي تدفعهم إلى الخير، وتقضهم عند الحق، وتشجعهم على نصرة الفضيلة، وإغاثة الملهوف، وتقوية الضعيف، والأخذ بيد الضعيف، والوقوف في وجه الظالم حتى يرتدع عن ظلمه، كما جاء في الحديث الصحيح: «**أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**». قالوا: يا رسول الله ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «**تمنعه من الظلم، فذلك نصرٌ له**»[٢].

والدين يمنح السياسي الضمير الحي، أو (النفس اللّوامة) التي تزجره أن يأكل الحرام من المال أو يستحل الحرام من المسجد، أو يأكل المال العام بالباطل، أو يأخذ الرشوة باسم الهدية أو

---

[١] الدين والسياسة، ص: ٨٠.
[٢] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٤٤٤.

العمولة وهو الذي يجعل الحاكم يحرص على نصحه وتقويمه، قال أبو بكر الصديق: إن أسأت فقوِّموني[١]، وقال عمر بن الخطاب: من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقوِّمني[٢].

والسياسي حين يعتصم بالدين، فإنما يعتصم بالعروة الوثقى ويحميه الدين من مساوئ الأخلاق ورذائل النفاق، فإذا حدَّث لم يكذب، وإذا وعد لم يخلف وإذا اؤتمن لم يخن، وإذا عاهد لم يغدر، وإذا خاصم لم يفجر، إنه مقيد بالمثل العليا ومكارم الأخلاق.

إن تجريد السياسة من الدين يعني تجريدها من بواعث الخير، وروادع الشر، تجريدها من عوامل البر والتقوى وتركها لدواعي الإثم والعدوان.

وربط السياسة بالدين يعطي الدولة قدرة على تجنيد "الطاقة الإيمانية" أو "الطاقة الروحية" في خدمة المجتمع وتوجيه سياسته الداخلية إلى الرشد لا الغي وإلى الاستقامة لا الانحراف، وإلى الطهارة لا إلى التلوث بالحرام.

وكذلك تجنيد هذه الطاقة في السياسة الخارجية للدفاع عن الوطن، ومواجهة أعدائه المتربصين به والاستماتة في سبيل تحريره إذا احتُلت أرضه أو اغتُصبت حقوقه، أو ديست كرامته.

ولقد رأينا المسلمين في عصورهم الذهبية حين ارتبطت سياستهم بالدين، فتحوا الفتوح، وانتصروا على الإمبراطوريات الكبرى، وأقاموا دولة العدل والإحسان ثم شادوا حضارة العلم والإيمان، مستظلين براية القرآن[٣].

ـ ضلالة فصل الدين عن السياسة:

وقد اختار العلامة محمد الخضر حسين ـ شيخ الأزهر في زمانه ـ أن يعبر عن فصل الدين عن السياسة الذي دعا إليه أحد الكُتاب بعبارة (**ضلالة**) وهو تعبير شرعي صحيح، لأنه أمر محدث ومبتدع في الأمة، وكل بدعة ضلالة، كما في الحديث الصحيح[٤].

وممّا قاله العلامة محمد الخضر في هذه المقالة العلمية الرصينة: نعرف أن الذين يدعون إلى فصل الدين عن السياسة فريقان:

---

[١] الطبقات لابن سعد (٣ / ١٨٣).
[٢] الدين والسياسة، ص: ٨٠.
[٣] الدين والسياسة، ص: ٨١، ٨٢.
[٤٤] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٨٦٧.

أ ـ فريق يعترف بأن للدين أحكاماً وأصولاً تتصل بالقضاء والسياسة ولكنهم ينكرون أن تكون هذه الأحكام والأصول كافلة بالمصالح آخذة بالسياسة إلى أحسن العواقب، ولم يُبال هؤلاء أن يجهروا بالطعن في أحكام الدين وأصوله وقبلوا أن يسميهم المسلمون ملاحدة، لأنهم مقرون بأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بمن نزل عليه القرآن.

ب ـ ورأى فريق أن الاعتراف بأن في الدين أصول لا قضائية وأخرى سياسية، ثم الطعن في صلاحها، إيذان بالانفصال عن الدين، وإذا دعا المنفصل عن الدين إلى فصل الدين عن السياسة، كان قصده مفضوحاً، وسعيه خائباً فاخترع هؤلاء طريقاً حسبوه أقرب إلى نجاحهم، وهو أن يدَّعوا أن الإسلام توحيد وعبادات، ويجحدوا أن يكون في حقائقه ما له مدخل في القضاء والسياسة، وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشبه، لعلهم يجدون في الناس جهالة أو غباوة فيتم لهم ما بيتوا.

هذان مسلكان لمن ينادي بفصل الدين عن السياسة، أو كلاهما يبغي من أصحاب السلطان: أي يضعوا للأمة الإسلامية قوانين تناقض شريعتها، ويسلكوا بها مذاهب لا توافق ما ارتضاه الله في إصلاحها، وكِلا المسلكين وليد الافتتان بسياسة الشهوات وقصور النظر لشريعة الإسلام من حِكم بالغات.

أما أن الإسلام قد جاء بأحكام وأصول قضائية، ووضع في فم السياسة لجاماً من الحكمة، فإنما ينكره من تجاهل القرآن والسنة، ولم يحفل بسيرة الخلفاء الراشدين إذ كانوا يزِنون الحوادث بقسطاس الشريعة ويرجعون عند الاختلاف إلى كتاب الله أو سنة رسوله.

وبيّن الشيخ أنّ: في القرآن الكريم شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل في المعاملات المدنية وتتولى إرشاد السلطة السياسية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٥٠).

وكل حكم يخالف شرع الله فهو من فصيلة أحكام الجاهلية، وفي قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إيماء بأن غير الموقنين قد ينازعون في حسن أحكام رب البرية، وتهوى أنفسهم تبدلها بمثل

أحكام الجاهلية، ذلك لأنهم في غطاء من تقليد قوم كبروا في أعينهم ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٩)، ففرض في هذه الآية أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله، ونبَّه على أن من لم يدخل الإيمان في قلوبهم يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن يفتنه أثر الشهوات عن بعض ما أنزل الله، وفتنتهم له من أن يسمع لقولهم، ويضع مكان حكم الله حكماً يلائم بغيتهم، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٥)، وفي آية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٧). وفي آية ثالثة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٤).

وفي القرآن الكريم أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات، كأحكام البيع والربا والرهن والإشهاد وأحكام للنكاح والطلاق واللعان، والولاء والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث، وأحكام القصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزاني وقاذف المحصنات، وجزاء الساعي في الأرض فساداً، وذكر الشيخ آيات تتعلق بالسلم والحرب والمعاهدات والعلاقات الدولية، ثم قال: وفي السنة الصحيحة أحكام مفصلة في أبواب من المعاملات والجنايات إلى نحو هذا، ممّا يدل على أن مَن يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما تصور ديناً آخراً غير الإسلام.

وفي سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ـ ويدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطان في السياسة، فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عندما مبايعته على شرط العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولولا علمهم بأن السياسة لا تنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو يراه مجلس شوراه مصلحة.

وفي صحيح البخاري: كانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم من الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم [١]، ومن شواهد هذا: محاورة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في قتال مانعي الزكاة، فإنها كانت تدور على التفقه في حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[٢].

فعمر بن الخطاب يستدل على عدم قتالهم بالحديث، وأبو بكر يبيِّن له الدليل، ووجه الشاهد بقوله في الحديث: إلا بحقها، ويقول: الزكاة من حق الأموال، ولو لم يكونوا على يقين أن السياسة لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها، ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث عن رسول الله، وقتال مانعي الزكاة من شؤون السياسة.

ومن شواهد أن ربط السياسة بالدين أمر عرفه خاصة الصحابة وعامتهم: قصة عمر بن الخطاب إذ بدا له أن يضع لمهور النساء حداً، فتلت عليه امرأة قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ (النساء ، آية : ٢٠). فما زاد على أن قال: رجل أخطأ وامرأة أصابت[٣]. ونبذ رأيه وراء ظهره، ولم يقل لها: ذلك دين وهذه سياسة، وكتب السنة والآثار مملوءة بأمثال هذه الشواهد، ولم يوجد ـ حتى في الأمراء المعروفين بالفجور ـ من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العملية وإن جروا في كثير من تصرفاتهم على غير ما أذن الله به، جهالة منهم أو طغياناً.

---

[١] هو من كلام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.
[٢] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ١٤٠٠.
[٣] سنن البيهقي (٧ / ٢٣٣).

أراد الحجاج أن يأخذ رجلاً بجريمة بعض أقاربه فذكره الرجل بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام ، آية : ١٦٤) فتركه[١]، ولم يخطر على باله ـ وهو ذلك الطاغية ـ أن يقول له ما تلوته دين، وما سأفعله سياسة[٢]. ثم قال: فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يُقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين، وليست هذه الجناية بأقل ما يعتدي به الأجنبي على الدين إذا جاس خلال الديار، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة علناً كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن، ورأينا كيف كان بعض المبتلين بالاستعمار الأجنبي أقرب إلى الحرية في الدين ممن أصيبوا بسلطانهم، ونحن على ثقة من أن الفئة التي ترتاح لمثال مقال الكاتب لو ملكت قوة لألقت محاكم يقضى فيها بأصول الإسلام، وقلبت معاهد تدرس فيها علوم شريعته الغراء إلى معاهد لهو ومجون، بل لم يجدوا في أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف في مساجد يذكر فيها اسم الله تصرف من لا يرجون لله وقاراً[٣].

ـ الصلاة والسياسة:

إن المسلم قد يكون في قلب الصلاة ومع هذا يخوض في بحر السياسة، حين يتلو من كتاب الله الكريم آيات تتعلق بأمور تدخل في صلب ما يسميه الناس سياسة، فمن يقرأ في سورة المائدة الآيات التي تأمر بالحكم بما أنزل الله، وتدمغ من لم يحكم بما أنزل الله سبحانه بالكفر والظلم والفسوق.

ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٤).

ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٥).

ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٧).

---

[١] البداية والنهاية (٩ / ١٢٤).
[٢] مقالة ضلالة الدين عن السياسة من (رسائل الإصلاح)، ص: ١٥٩ ـ ١٧٣.
[٣] المصدر نفسه، ص: ١٥٩ ـ ١٧٣.

يكون قد دخل في السياسة وربما اعتبر من المعارضة المتطرفة، لأنه بتلاوة هذه الآيات وجه الاتهام إلى النظام الحاكم ويحرِّض عليه، لأنه موصوف بالكفر أو الظلم أو الفسق أو بها كلها في حالة تعطيله لأحكام الشريعة وتبديلها بما يخالفها.

ومثل ذلك من يقرأ الآيات التي تحذر من موالاة غير المؤمنين، قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للهِّ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء، آية: ١٤٤).

ومن قنت "قنوات النوازل" المقررة في الفقه، وهو الدعاء الذي يُدعى به في الصلوات بعد الر فع من الركعة الأخيرة، وخصوصاً من الصلاة الجهرية، وهو مشروع عندما تنزل بالمسلمين نازلة، كغزو عدو، أو وقوع زلزال أو فيضان أو مجاعة عامة أو نحو ذلك.. كما نفعل كثيراً عندما يقع عدوان صهيوني كبير على فلسطين، أو على لبنان وكما حدث كثيراً في حرب السوفييت لأفغانستان وحرب الصرب للبوسنة والهرسك وغيرها[١].

وكما حدث في ثورات الربيع العربي في الدعاء للشعوب للتخلص من النظم الاستبدادية والديكتاتورية، وهكذا كنا ندخل في معترك السياسة، ونخوض غماره، ونحن في محراب الصلاة متبتلون خاشعون، فهذه طبيعة الإسلام لا ينعزل فيه دين عن دنيا، ولا تنفصل فيه دنيا عن دين، ولا يعرف قرآنه ولا سنته ولا تاريخه ديناً بلا دولة ولا دولة بلا دين[٢]، إن الدين منارة تهدي وليس قيداً يعوق، وأن الشريعة ـ كما قال ابن القيم ـ عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليس من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل[٣].

---

[١] الدين والسياسة، ص: ١٠٣.
[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.
[٣] إعلام الموقعين (٣/ ٣).

ـ الإسلام وتطور الحياة:

إن الإسلام لا يمنع تطور الحياة وانتقالها من السيىء إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن، بل نرى الإسلام أبداً يُشّوق المسلم إلى "التي أحسن" في كثير من الأمور، فهو يحاور بالتي هي أحسن، ويدفع إساءة المسيء بالتي هي أحسن، ويقرب مال اليتيم بالتي هي أحسن ويتطلع دائماً إلى "الأحسن" في كل شيء، كيف لا وقد علمه القرآن ذلك حين قال:﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(الزمر، آية : ٥٥).

وقال تعالى:﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر، آية : ١٧ ـ ١٨).

لقد رأينا الرسول الكريم يعني بأمر "الإحصاء" قبل أن يهتم به البشر، فطلب من أصحابه أن يحصوا له عدد من يلفظ بالإسلام فأحصوا له، فكانوا ألفاً وخمسمائة رجل[١].

وفي بعض الروايات: «اكتبوا لي....[٢]» فهو إحصاء يُراد تدوينه وكتابته.

وهو عليه الصلاة السلام، يقدر التجربة في شؤون الدنيا، ويبني عليها نتائجها، فحين رأى في بعض أمور الزراعة أمراً، وأظهرت النتائج خلافه، قال لهم بكل وضوح: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[٣]. فأنتم المرجع المعتبر في الأمور الفنية والدنيوية التي تحسنونها دون حاجة إلى الرجوع إلى الوحي[٤].

وهو لم يكتف بدعوتهم إلى العمل لدنياهم :﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة، آية : ١٠).

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك، آية : ١٥).

---

[١] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٤٩.
[٢] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٠٦٠.
[٣] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٣٦٣.
[٤] السنة مصدر للمعرفة والحضارة للقرضاوي.

بل حثهم على أن يحسنوا العمل، ويبلغوا به درجة الإتقان والإحكام، وجعل ذلك فريضة دينية مكتوبة عليهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»"[١].

والإحسان هو: الإتقان الذي يحبه الله، فهو تعالى يحب المحسنين، ويحب من أحدنا إذا عمل عملاً أن يتقنه[٢].

ـ علاقة السياسة بالشريعة:

من المعلوم أن لكل فعل بشري حكماً شرعياً حسب نوعه، وأن الفعل السياسي نوعان: صحيح وفاسد وأن الصحيح هو السياسة العادلة والفاسد هو السياسة الظالمة.

ومن البدِهِي أن حكم السياسة العادلة الوجوب، وحكم السياسة الظالمة الحرمة، وهو ما يقطع بأن العلاقة بين السياسة والشريعة قائمة على كل حال، فهي إما علاقة اتصال وتلاحم، وإما علاقة انفصال وتعارض بحسب ما تتصف به هذه السياسة أو تلك من عدل أو ظلم، فإذا كانت سياسة عادلة فهي من الشريعة وإليها وإذا كانت سياسة ظالمة فليست من الشريعة ولا تمت إليها بصلة، وبناءً على هذه القاعدة، فإن كل ما له علاقة بالسياسة من خلافة ودولة وحكم وإمارة ورئاسة ووزارة، وكل ولاية عامة كيفما كانت طبيعتها العملية من حيث صلاحها أو فسادها، فهي مشمولة بأحكام الشريعة كما قال ابن خلدون: اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه. .فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها، وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها، لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد[٣].

وما فتئ علماؤنا يؤكدون من قديم على ضرورة التلاحم بين الدين والسلطان كما قال الإمام الغزالي: الدين والسلطان توأمان، الدين أسس والسلطان حارس، وما لا أسس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع[٤].

---

[١] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٩٥٥.
[٢] الدين والسياسة، ص: ١٣٠.
[٣٣] مقدمة ابن خلدون (٢/ ٦٣٥).
[٤] الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، ص: ١٤٨ ـ ١٤٩.

وتأسيساً على هذه العلاقة العضوية بين الدين والدولة في الإسلام، أصبحت الدولة هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن تنفيذ أحكام الشريعة كما قال ابن خلدون: فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية، من الصلاة والإفتاء والقضاء والجهاد والحسبة، كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى[١].

وأعتبرت الشريعة الولايات العامة من أعظم الواجبات الشرعية التي لا قيام للدين ولا الدنيا إلا بها[٢]، الشيء الذي جعل ولاة العدل أعظم أجراً، وولاة الجور أعظم وزراً، كما قال العز بن عبد السلام: أجمع المسلمون على أن الولايات من أفضل الطاعات، فإن الولاة المقسطين أعظم أجراً وأجلّ قدراً من غيرهم، لكثرة ما يجري على أيديهم من إقامة الحق ودرء الباطل، فإن أحدهم يقول الكلمة الواحدة فيدفع بها مائة ألف مظلمة فما دونها، أو يجلب بها مائة ألف مصلحة فما دونها، فيا له من كلام يسير وأجر كبير.

أما ولاة السوء وقضاة الجور، فمن أعظم الناس وزراً وأحطهم درجة عند الله، لعموم ما يجري على أيديهم من جلب المفاسد العظام ودرء المصالح الجسام، وإن أحدهم ليقول الكلمة الواحدة فيأثم بها ألف إثم وأكثر على حسب عموم مفسدة تلك الكلمة، وعلى حسب ما يدفعه بتلك الكلمة من مصالح المسلمين، فيا لها من صفقة خاسرة وتجارة بائرة، وعلى الجملة، فالعادل من الأئمة الولاة والحكام، أعظم أجراً من جميع الأنام بإجماع أهل الإسلام، لأنهم يقومون بجلب كل صالح كامل، ودرء كل فاسد شامل، فإذا أمر الإمام بجلب المصالح العامة ودرء المفاسد العامة كان له أجر بحسب ما دعا إليه من المصالح العامة وزجر عنه من المفاسد ولو بكلمة واحدة لأجر عليها بعدد متعلقاتها كما ذكرنا[٣].

وهو ما يقطع بأهمية الدولة والسياسة والحكم وجميع الولايات والوظائف العامة في حياة الشعوب أكثر من أي وقت مضى، فقد ازدادت هذه الأهمية بشكل كبير في عصرنا الحاضر، بحيث ما عاد هناك شيء، إلا وللدولة تدخل فيه من قريب أو بعيد، فهي صاحبة الحق في وضع الدساتير وتعديلها حسب رغبتها وتسطير القوانين، وإصدار المراسيم والقرارات والدوريات، والمذكرات وتنظيم الحياة العامة ومراقبة الحياة الخاصة من شهادة الميلاد إلى

---

[١] المقدمة ابن خلدون (٢/ ٦٠٣).

[٢] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ٣٩٠ ـ ٣٩٧).

[٣] قواعد الأحكام (١/ ١٢٠ ـ ١٢١).

الوفاة، وهي تعدد طبيعة التعليم الذي يتلقاه وطبيعة الطعام الذي تأكله وطبيعة المسكن الذي نسكنه، وطبيعة الطريق الذي نعبره، وطبيعة الجريدة التي نقرؤها وطبيعة الخطبة التي نتلقاها وطبيعة التلفاز الذي نشاهده، وكمية الدراهم التي نتقاضاها[١]، وطبيعة الأجواء العامة التي نؤدي فيها شعائرنا التعبدية، من صلاة وصيام وزكاة وحج...الخ، فنحن مادة القرار السياسي التي تتخذه الدولة، ونحن المعنون به بالأساس، فهو إما أن يكون في صالحنا وإمَّا ضد مصالحنا، ما دام القصد من الولايات العامة والمناصب العامة تدبير المصالح العامة، كما هو معلوم، وبهذا تظهر قيمة الوازع السلطاني وأهميته في منظومة التشريع الإسلامي وضرورته لحفظ مقاصد الشارع ومصالح العباد، غير أن إعمال هذا الوازع لا يعني بالضرورة الاعتماد على السلطة، بكل ما تحمله من معاني الفرض والقهر والزجر والإكراه البدني أو المعنوي، بل العكس هو الصحيح.

إن الأصل في السياسة الشرعية.. الراشدة، أن يكون الوازع بمنهج القرآن قبل قوة السلطان، وهو المسلك الذي سلكته القيادة السياسية الشرعية في عهد الدولة النبوية والخلافة الراشدة، ومن سار على نهجها في إقامة الدين وتوسيع دائرة التدين والصلاح والإصلاح العام بمختلف الوسائل التربوية التعليمية الهادفة أكثر من الوسائل الزجرية الرادعة، وإلى اللجوء إليها، إلا في حالات الضرورة القصوى التي لم ينفع معها نصح أبوي ولا إرشاد تربوي.

وفيما يلي خلاصة أهم النقاط التي ينبغي استحضارها باستمرار أثناء النظر في الموقع الحقيقي للسياسة والدولة من الشريعة.

ـ لا مجال للمقارنة بين التجربة الإسلامية وتجربة الغرب المسيحي في مسألة العلاقة بين الدين والدولة، فلكل تجربته المميزة له، فإذا كان الغرب قد انقطع عن مؤسساته الدينية لأسباب موضوعية خاصة به، فليس لنا من تلك الأسباب ما يدعونا إلى الانقطاع عن ديننا، بل العكس هو الصحيح، كما برهنا عليه أعلاه.

---

[١] مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية، عبد النور بزا، ص: ٣٢٨ ـ ٣٣٠.

ـ الإسلام ليس مجرد اعتقاد سلبي، لا دخل له في الحياة الخاصة والعامة للإنسان، بل هو عقيدة تنبثق منها شريعة يجني عليها سلوك ونظام عام يحكم الشأن الخاص، ويدبر الشأن العام.

ـ السياسة الشرعية هي كل ما يوافق مقاصد الشرع، ويحقق مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، وإن لم يرد فيها نص شرعي، ولم يسبق بشأنها اجتهاد عقلي.

ـ السياسة العادلة من صميم الشريعة، أما السياسة الظالمة فلا تمت إليها بصلة وإن أضيف إليها بأي شكل من أشكال التأويل.

ـ السياسة فعل من الأفعال البشرية، تعتريها الأحكام الشرعية الخمسة، فقد تكون واجبة أو محرمة أو مندوبة أو مكروهة أو مباحة بحسب نوعها ومرجعيتها ومقاصدها ونتائجها والحاجة إليها.

ـ علاقة السياسة والدولة بالإسلام علاقة عضوية بحيث لا يتصور أحدهما حقيقة دون الآخر، فهما أشبه ما يكونان بعلاقة القلب أو الدماغ بالجسم، فلا حياة لجسم بدون قلب ولا قيمة له بدون دماغ، كما أنه لا قلب ولا دماغ بدون جسم، ولذلك فلا يمكن لهما إلا أن يكونا متلازمين أحدهما مع الآخر، وإلا وقع الخلل فيهما معاً، كما هو واقع حال الأمة اليوم.

ـ ليس في الإسلام متحدث وحيد باسمه بعد الرسو صلى الله عليه وسلم، ولذلك فهو لا يعرف ولا يعترف بما يسمى التفويض الإلهي أو النظام الثيوقراطي، أو التوريث السياسي، أو الكهنوتي للسلطة، ومن ثم فإن مقولة أحقية الحاكم وحده في الجمع بين الدين والسياسة دون غيره من الناس، بدعة من المبتدعات السياسية المعاصرة التي لا أصل لها في الإسلام، ولم يقل بها أحد من أهل العلم.

ـ كل من يتصور إقامة الدين بكل ما في الكلمة من معاني الإسلام والإيمان والإحسان، والتقوى والعبادة والتقرب إلى الله، والحرية والعدالة والمساواة والكرامة، والمحافظة على أرواح الناس وأعراضهم وعقولهم وممتلكاتهم، وجميع مصالحهم وأوطانهم وكل شُعب إيمانهم.. دون قيام سلطة سياسة مدنية عادلة منتخبة من أغلبية الأمة، ذات مرجعية إسلامية، فهو واهم أشد

الوهم، وأقل ما يقال عنه: إنه بحاجة ماسة إلى تجديد النظر في معرفته بحقيقة الإسلام ومقاصده ووسائله.

وبالجملة فإن السلطات السياسية الشرعية العادلة، والوظائف الحكومية الراشدة، والولايات العامة الصالحة، من أهم المقاصد الكفائية التي تتحقق بها مقاصد الشارع، وتحفظ بها مصالح الخلق على الوجه الأكمل.

وبدون هذا النوع من المقاصد العامة، تهدر أغلب المقاصد الشرعية وتضيع معظم المقاصد الإنسانية[١].

- **هذا الكتاب:**

محاولة جادة للاستجابة للتغييرات الكبرى التي تمر بها شعوبنا مع اندلاع ثورات الربيع العربي، فالشعوب لديها مطالب وتسعى لتحقق أهدافاً ومبادىء أعلنتها، كالحرية والعدالة والمساواة والشورى، ومحاربة الفساد، والتعددية والتداول السلمي، فعكفت رغم الانشغال عن البحث والتنقيب وسبر التجارب الإنسانية، والغوص في أعماق التاريخ القديم، والحديث لاستخراج النافع والمفيد من التراث الإنساني والإسلامي، مسترشداً بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ومتعلماً من سيد البرية من سيرته الشاملة والتي لا يستغني عنها طالب علم، ولا باحث عن الحقيقة، ولا مصلح اجتماعي، ولا مفكر إستراتيجي، ولا قائد سياسي، ولا زعيم نهوض حضاري يؤمن بالقيم والمبادىء الإنسانية الرفيعة.

فقد رأيت من خلال سيرته قول الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

وأجمل منك لم تر قط عيني
وأفضل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

---

[١] مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية، ص: ٤٣٠ ـ ٤٣٢.

وهذا المشروع الفكري المستمد من الرؤية الإسلامية للمبادىء والقيم والمفاهيم والسنن لا أدري كم يستغرق من الزمن، هل أصل إلى المبتغى أم أدفن في قبري قبل تحقيقه، إلاّ أن أملي في الله كبير ورجائي فيه بلا حدود، إنه سميع قريب.وقد مكنني الله من الاطلاع الواسع وجمعت المادة المرادة بعد أن يسَّر لي الأسباب، وأتضرع إلى العليم الحكيم والتواب الرحيم أن يوفقني لخدمة بني الإنسان، ويمدني بعون من عنده وتوفيق وتأييد والوصول إلى المراد الذي يحبه ويرضاه سبحانه وتعالى.

إنني على يقين لا يتزعزع وإيمان لا تؤثر فيه الأمواج العاتية، بأن الشهود الحضاري لأمتنا قد بدأ في الشروق مع هذه الثورات الربانية، وأنه مهما كان المكر والكيد والبغي فالعاقبة للمتقين، وسنن الله ماضية لا تحيد ولا تجامل ولا تتبدل ولا تتغير.

فالسعيد من استخدمه الله لطاعته وجعله من مفاتيح العقول والقلوب والخيرات المادية والمعنوية، وفتح له أبواب العمل والقبول وامتثل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ، آية : ١٦٢ ـ ١٦٣).

إن الشعوب الإسلامية تمر بمرحلة جديدة في تاريخها المعاصر، فقد أذن الله لها بالنهوض والتخلص من الاستبداد والنظم الجبرية الديكتاتورية، وبدأت نقطة الانطلاق من تونس الحبيبة العزيزة التي أذاقها نظام بن علي سوء العذاب، فعمل على تجفيف منابع الهدى والإيمان والتقى وأوقع البلاد في الفقر والذل والبطالة والضنك، فكانت البداية من هذا الشعب الحر، وبدأنا نرى قول الله تعالى يتحقق في حياتنا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص ، آية : ٥ ـ ٦).

إن شعوب الربيع تريد أن تخرج من نفق الظلم وتُلملم جراحها وتبني مستقبلها وتعمر بلادها وتحافظ على الحريات العامة، وذلك بمراعاة أحكام الشريعة الإسلامية والمواثيق والمعاهدات الدولية للحقوق والحريات والقيم وعادات وتقاليد هذه الشعوب الأصيلة، وتتطلع إلى تحقيق طموحاتها في الحرية والتنمية والعدالة والشورى، وأن يتأسس اقتصاد حر مستدام قادر على الاندماج في الاقتصاد العالمي، ومتنوع كفيل بأن يلبي احتياجات مواطنيها الآنية والمستقبلية، وتأمين فرص أفضل للجميع ومستوى معيشي مرتفع، مع تقريب الفوارق بين الطبقات، وأن ترى مؤسسات قضائية مستقلة تكون بمثابة صمام الأمان لمجتمعاتها بكافة مؤسساتها وأفرادها وضمانة جوهرية لاستقرارها، وحفظ حقوق أفرادها وأن يكون لها نظام متكامل للرعاية الصحية تقدم خدمات صحية وقائية وعلاجية عالية الجودة، ولائقة لكل مواطنيها، وأن تبني دول هذه الشعوب إستراتيجية وطنية للرعاية الصحية يكون من أولى أولوياتها تحسين خدمات المستشفيات وضمان تطوير الرعاية المستمرة، وخدمات الصحة النفسية وتقديم خدمات الطوارىء، ورفع كفاءتها وتتمنى الشعوب بناء نظام تعليمي يواكب المعايير العالمية المعاصرة ويضاهي أفضل النظم التعليمية في العالم، ويرسخ مبادىء الحرية، وتنشر ثقافة قبول الآخر، وتدعو للحوار، وتؤمن بالعمل الجماعي وروح الفريق، والإيجابية المبادرة، وترعى القيم والتقاليد والثوابت، وأن تحل أزمة السكن والعمل وتطور الرياضة، وتعد بناء المنظومات الرياضية تنظيماً وتشريعاً بشكل احترافي علمي مدروس، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الاهتمام بالنشاط الرياضي في كافة مراحل التعليم، مع نشر الوعي الرياضي ومكافحة التعصب بالنشىء وغير ذلك من الأهداف التي تسعى الشعوب لتحقيقها، وهذا يحتاج إلى ثقافة واسعة وأفكار مبدعة وتربية رصينة، وعلوم نافعة لتحقيق آمال وطموحات الشعوب. ولذلك كانت فكرة هذه الموسوعة التي صدر منها:

- العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
- الشورى فريضة إسلامية.
- الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير والتعبير والاعتقاد والحريات الشخصية.

ـ الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

وبإذن الله ستكون دراسات حول:

ـ مفهوم المواطنة.

ـ التكافل الاجتماعي.

ـ دولة الكرامة والمساواة.

ـ العلاقة بين الشريعة والدستور والقانون.

ـ العدالة.

ـ حقوق الإنسان.

ـ السلطة التشريعية (البرلمان).

ـ السلطة التنفيذية (الحكومة).

ـ السلطة القضائية (القضاء).

ـ المعارضة والتعددية والأحزاب.

وأما هذا الكتاب الذي أقدم له الآن فهو يتحدث عن الدولة الحديثة دعائمها ووظائفها برؤية إسلامية، مستحضراً فكر الدولة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتوجيهات القرآنية في هذا المجال.

يجد القارىء في هذا الكتاب دراسة عن مفهوم الدولة ونشأة الدولة الإسلامية، وعن المراحل التي مر بها الرسول صلى الله عليه وسلم للوصول للدولة منذ المرحلة السرية، ودار الأرقم ابن أبي الأرقم، وأثر شخصيته صلى الله عليه وسلم في صناعة القادة والمادة الدراسية التي اعتمدها في تربية الأفراد، ومرحلة الإعداد والبناء، وانتشار الدعوة في بطون قريش، وعن فقه النبي صلى الله عليه وسلم في التعاون مع السنن، كسنة التدرج، وتغيير النفوس والابتلاء والتمكين، والأخذ بالأسباب، وعن حركة الطواف على القبائل طلباً للنصرة، وبيعة العقبة الأولى والثانية والهجرة إلى المدينة.

وعن دعائم الدولة في المدينة، كبناء المسجد، والدستور وحركة السرايا وسنة التدافع، والاهتمام بالأمن والتخطيط والإدارة والاقتصاد والإعلام، والبناء التربوي والعلمي، والقانون والسلطة القضائية، والسلطة التشريعية والتنفيذية والمفاوضات السياسية والعلاقات الخارجية، وسياسة كسب الأعداء، وحاولت في الحديث عن الدعائم الجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين الماضي والحاضر.

وشرحت وظائف الدولة والاهتمام بالمواطن وتقديم الخدمات له والتي من أهمها السكن والعمل والرياضة والاهتمام بالمرأة والأسرة والطفولة والشباب، ورعاية الفئات الخاصة، كالأرامل وذوي العاهات والأمراض المزمنة والاهتمام بالبيئة والصحة والسياحة، وموارد الدولة ومحاسبة الموظفين والوزراء وغير ذلك من الأمور.

فهذا الكتاب ضمن مجموعة من الدراسات الفكرية والثقافية التي تحاول أن تساهم وتترك بصمة نافعة للمشروع النهضوي الحضاري للأمة الإسلامية، يقول الثعالبي: لا يكتب أحداً كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة، فكيف في سنين معدودة؟

وقال العماد الأصبهاني: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا، لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

هذا، وقد أنهيت هذا الكتاب **"الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها"** في يوم ٢٠١٣/٥/٢٦م الساعة الرابعة عصراً الموافق ١٤٣٤/٧/١٦هـ ، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من

دعائه:﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل، آية : ١٩).

وقال تعالى:﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر، آية : ٢).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

"سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين".

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

المبحث الأول: مفهوم الدولة.

أولاً: الدولة لغة وإصطلاحاً

١ـ الدولة لغة:

بالعودة إلى معاجم اللغة العربية تجد أن كلمة الدولة مشتقة من مادة "الدال والواو واللام" "دول" وهي تطلق بمعانٍ عدة، ومنها:

بالضم: انقلاب الزمان، والعقبة، وبالفتح: في الحرب، أو هما سواء أو الضم في الآخرة، والفتح في الدنيا. والدولة: الحوصلة، والشقشقة وشيءٌ مثل المزادة، والقانصة.

والإدالة: الغلبة، ودالت الأيام: دارت، والله تعالى يداولها بين الناس.

والدول: لغة في الدَلو، وانقلاب الدهر من حال إلى حال، وبتحريك "الدول": النبل المتداول[١].

وفي "الصحاح" للجوهري: الدولة في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، والدولة "بالضم" في المال والجمع دُوْلات ودُوَلٌ، وقال أبو عبيدة: الدُولةُ بالضم: اسم الشيء الذي يُتداول به بعينه، وبالفتح الفعل، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد[٢].

وبهذا نلحظ أن لفظة الدولة في اللغة تطلق بإزاء الأمور التالية:

ـ تغير الزمان، ودورانه، وتحوله من حال إلى حال.

ـ عاقبة الأمر ومآله ومنتهاه.

ـ الغلبة والانتصار على العدو.

---

[١] القاموس المحيط للفيروزآبادي، ص: ١٢٩٣.
[٢] الصحاح لأبي اسماعيل الجوهري الفارابي (٤/ ١٣٩٠ ـ ١٣٩١).

ـ اسم لعدة أشياء يتداولها الناس، كالمزادة ضيقة الفم، والقانصة، وجانب البطن، والدلو، والنبل وغيرها[1].

٢ـ الدولة اصطلاحاً:

يذكر بعض أساتذة السياسة أن ثمة ما يقارب مائة وخمسين تعريفاً للدولة[2]، ويعتبر هذا المفهوم الدولة من المفاهيم القديمة التي وجدت على أرض الواقع وصارت حقيقة معاينة، قبل أن يتم الاصطلاح على هذه الكلمة "الدولة" للدلالة على ذلك المفهوم.

وقد جرى استخدام مصطلح "الدولة" عند الكثير من التيارات والمذاهب المعاصرة، واختلف معناها بحسب الدائرة الفكرية التي استخدم فيها، ولعلنا نجول في معاني هذا المصطلح من خلال الدوائر الفكرية التالية[3]:

أ ـ الدولة في الفكر الإسلامي:

أشار الإمام الطبري إلى أن أول مرة استعمل فيها العرب هذا المصطلح كانت فيما ورد في خطبة الحسن بن علي وهو يدعو أهل الكوفة إلى بيعته بقوله: وأن لهذا الأمر مدة والدنيا دول[4].

وكذلك ما جاء في قول أبي العباس السفاح مخاطباً أهل الكوفة أيضاً: أنتم محل محبتنا...، وأتاكم الله بدولتنا[5].

ثم توسع استخدام هذا المصطلح عند العرب إجمالاً في كتاباتهم التاريخية والأدبية، حتى جاء العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته مقرراً لهذا المفهوم في كثير من عباراته.

ومن ذلك قوله:" فالإنسان مدني بطبعه، أي: لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة،..." وتم عمران العالم، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم، تكون

[1] الدولة المدنية، د. ماجد علي الزميع، ص: ٣٢.
[2] المصدر نفسه، ص: ٣٣.
[3] الدولة المدنية، د. ماجد الزميع، ص: ٣٣.
[4] تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ١٢٤).
[5] المصدر نفسه (٦/ ٨٣).

له الغلبة، والسلطان، واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك، وأنه لابد للبشر من الحكم الوازع وذلك الحكم يكون بشرع مفروض[١].

فهو هنا يشير رحمه الله إلى أهم مكونات الدولة من الشعب الذي أشار إليه بقوله:" الإنسان مدني بطبعه، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة، وكذلك الحاكم الذي وصفه بأنه "تكون له الغلبة والسلطان، واليد القاهرة".

ثم الدستور أو المنهج الذي يحتكمون إليه، والذي سماه "بالشرع المفروض" ثم شاع استعماله بعد ذلك لدى الكثير من الباحثين والعلماء.

فهذه العبارات تدلنا على أن هذا المعنى كان معروفاً عند العرب، ومستقراً في استعمالاتهم اللغوية، وإن لم تشكل حدوده النهائية بصفتها النهائية[٢].

وربما غلب على الحكم في هذه الدول أن يكون وراثياً، يخلف الأبناء فيه الآباء، وهو الملك العضوض الوارد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث النعمان بن بشير، أنه عليه الصلاة والسلام قال: تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون ملكاً عاضاً، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون ملكاً جبرية، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة[٣].

والخلافة على منهاج النبوة لها معالم وملامح، منها إقامة المبادئ الإنسانية بين الناس، كالعدل، والشورى، والمساواة والحرية، واحترام الكرامة.. إلخ وقد جاء في دائرة المعارف بهذا المعنى: "الدولة سلسلة الملوك المتتابعة في مملكة ما، من عائلة واحدة ثم بعد ذلك شاع استخدام هذا المصطلح في كتابات الكثير من الباحثين، متأثرين بالمدارس الفكرية التي ينتمون

---

[١] مقدمة ابن خلدون (١/ ٤٦).
[٢] الدولة المدنية، ص: ٣٤.
[٣] مشكاة المصابيح حسنة، الألباني، رقم: ٥٣٠٦.

إليها، وهكذا كانت بداية نشوء مصطلح "الدولة" وشيوع استعماله وانتشاره بعد ذلك في الفكر العربي والإسلامي[1].

ب ـ الدولة في الفكر الغربي:

وفي الفكر الغربي، فيمكن القول بأن بداية هذا المفهوم كانت مع كتابات الفيلسوف اليوناني أفلاطون: الذي كان يرى بأن الدولة هي جماعة من الناس الأحرار المتساوين يرتبطون فيما بينهم بأواصر الأخوة، ويطيعون ـ لبقاء النظام في المدينة ـ الحكام المستنيرين أولي الرعاية والحزم، الذين اتخذوهم رؤساء ويخضعون للقوانين التي ليست إلا قواعد العدل ذاته[2].

ثم درج بعد ذلك استعمال هذا المصطلح في كتابات الكثير من الفلاسفة والمؤرخين الغربيين، وعند التأمل في كتابات الفكر الغربي الحديث، فإن مفهوم الدولة في الفكر الليبرالي يختلف عنه في الفكر الشيوعي الاشتراكي وذلك بناءً على النظرة العامة لكل من التيارين.

ـ الدولة في الفكر الشيوعي الاشتراكي:

أما مفهوم الدولة في الفكر الشيوعي الاشتراكي يقوم على فكرة الصراع الطبقي، "ولذلك فالدولة في رأي إنجلز هي الخلاصة الرسمية للمجتمع، أيًّا ما كان ذلك المجتمع، ومن هنا جاء عدم اعتراضه بالدولة في شكلها التقليدي البرجوازي، سواء كان شكل هذه أو ليجارشيا[3]، أو ديمقراطياً رأسمالياً باعتبار أنه لا يُقر هذه الأشكال جميعاً.

وفي هذا السياق جاء في دائرة المعارف الاجتماعية في مفهوم الدولة بأنها: أداة السلطة السياسية في المجتمع الطبقي، وأما الدولة الاشتراكية فهي دولة عموم الشعب وهي الهيئة

---

[1] الدولة المدنية، ص: ٣٥.
[2] النظم السياسية، ثروت بدوي، ص: ٢٤.
[3] حكم القلة التي تتميز بالمال والنسب أوالسلطة العسكرية.

السياسية للشعب بأسره، وأداة لبناء الشيوعية وجعل الطبقة العاملة هي القاعدة العامة لعموم الشعب[١].

والخلاصة: هي أن الفكر الاشتراكي يرى أن الدولة شكل تاريخي للتنظيم السياسي للمجتمع، وأنها نشأت مع ظهور الملكية الخاصة، وانقسام المجتمع إلى طبقات يستغل بعضها بعضاً[٢].

فهذا هو مفهوم الدولة في الفكر الشيوعي الاشتراكي وهو مفهوم يستبعد البعد الديني والعقدي وذلك راجع إلى موقف الشيوعية أصلاً من الأديان عموماً والتي ترى أنها أفيون الشعوب، وسبب التخلف للعقل البشري، وغير ذلك من عبارات الشيوعية والاشتراكية في موقفها المعادي والمحارب للدين، كما هو معروف سلفاً[٣].

ـ الدولة في الفكر الليبرالي:

وأما الدولة عند التيار الليبرالي فإنها تتميز بخمس خصائص:

ـ أن الدولة مجموعة مؤسسات منفصلة يمكن التمييز فيها بين العام والخاص.

ـ أن تتمتع بالسيادة والسلطة العليا في أراضيها.

ـ السيادة شاملة ومتساوية لكل الذين يشغلون مناصب رسمية في الجهاز الحاكم.

ـ يتم تجنيد العاملين فيها وتدريبهم.

ـ قدرة الدولة على تحصيل الإيرادات لتمويل انشطتها.

فهذه الخصائص هي السمات التي يتفق المؤرخون، ومعظم علماء الاجتماع على أنها تميز الدولة الحديثة[٤].

---

[١] الدولة المدنية، ص: ٣٧.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٧.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٣٨.
[٤] الدولة المدنية، ص: ٣٨.

فالدولة في أوسع معانيها في الفكر الليبرالي الحديث هي عبارة عن مفهوم قانوني يصف جماعة ما تقيم في رقعة جغرافية محددة، وتنظم جهودها وإمكانياتها في إطار مؤسسات سياسية تديرها هيئة حاكمة فعالة تسيطر على دفة الأمور[١].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٣٨.

المبحث الثاني: الدولة الإسلامية

أولاً: نشأة الدولة الإسلامية

اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزول الوحي بتربية الأفراد والجماعة المؤَمنة التي تكون في المستقبل نواة الدولة الجديدة وقد خضعت مسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية الأفراد وبناء الدولة وتبليغ الرسالة لتوجيهات القرآن الكريم وكذلك التعامل مع سنن الله في المجتمعات والشعوب وبناء الدول، فكانت دعوته قد مرت بمراحل ومعالم وسنن وقوانين من أهمها:

١ـ المرحلة السرية:

استمر النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته السرية يستقطب عدداً من الأتباع، والأنصار من أقاربه، وأصدقائه وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة بعد إقناعهم بالإسلام وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للرسول صلى الله عليه وسلم، لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ظهرت فيها الصعوبة والمشقة في تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شره، ويثقون به، فمن معالم هذه المرحلة الكتمان والسرية حتى عن أقرب الناس، وكانت الأوامر النبوية على وجوب المحافظة على السرية واضحة وصارمة، وكان صلى الله عليه وسلم يكوّن من بعض المسلمين أسراً "خلايا"، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعداد وتدريب، لا اختفاء جبن، وهروب، حسب ما تقتضيه الخطة الربانية، فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ينظم أصحابه من أسر وخلايا صغيرة، فكان الرجل يجمع الرجل والرجلين، إذ أسلما عند الرجل به قوة، وسعة من المال، فيكونان معه ويصيبان منه فضل، ويجعل منهم حلقات، فمن حفظ شيئاً من القرآن، علّم من لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات

أسر أخوة وحلقات تعليم، وكان المنهج الذي سار عليه رسول الله في تربية أتباعه هو القرآن الكريم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه تربية شاملة في العقائد والعبادات والأخلاق، والحس الأمني وغيرها.

ونجد النواة الأولى للتربية الأمنية كانت في مكة، وتوسعت مع توسع الدعوة ووصولها إلى دولة، ومن الآيات المكية التي أشارت إلى هذا المعنى:

ـ قوله تعالى:﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِّ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، آية : ٨٧).

وجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا، ويبحثوا عن يوسف وأخيه، وفي هذا إقرار من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ﴾[١]، ولا شك: أن الصحابة كانوا يجمعون المعلومات عمّن يريدون دعوته للإسلام، وكانت القيادة تشرف على ذلك، ولذلك قام النبي صلى الله عليه وسلم بترتيب جهاز أمني رفيع، يشرف على الاتصال المنظم بين القيادة والقواعد، ليضمن تحقيق مبدأ السرية.

٢ـ مقر القيادة "دار الأرقم بن أبي الأرقم":

كان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بالتخطيط الدقيق المنظم، ويحسب لكل خطوة حسابها، وكان مدركاً تماماً أنه سيأتي اليوم الذي يؤمر فيه بالدعو علناً وجهراً، وأن هذه المرحلة سيكون لها شدتها وقوتها، فحاجة المسلمين المنظمة تقتضي أن يلتقي الرسول المربي مع أصحابه، فكان لابد من مقر لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (١/ ١٠٥).

بن أبي الأرقم، إذ أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم: أن الأمر يحتاج إلى الدقة المتناهية في السرية، والتنظيم ووجوب التقاء القائد المربي بأتباعه في مكان بعيد عن الأنظار ذلك أن استمرار اللقاءات الدورية المنظمة بين القائد وجنوده هو خير وسيلة للتربية العملية والنظرية، وبناء الشخصية القيادية الدعوية وممّا يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعد أتباعه ليكونوا بناة دولة وحملة الدعوة وقادة الأمم، حرصه الشديد على هذا التنظيم السري الدقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كل هذا ولو كان يريد مجرد إبلاغ الدعوة للناس، لكان خير مكان في الكعبة حيث منتدى قريش كلها، ولكن الأمر غير ذلك، فلابد من السرية التامة في التنظيم وفي المكان الذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطريقة التي يحضرون بها إلى مكان اللقاء[1].

وتذكر كُتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقراً لقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعد المواجهة الأولى التي برز فيها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال ابن اسحاق: وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلّحَي[2] بعير فشجه فكان أول دم أريق في الإسلام[3].

وأصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدعوة يتجمع فيها المسلمون ويتلقون عن رسول الله كل جديد من الوحي، ويستمعون له صلى الله عليه وسلم وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيربيهم صلى الله عليه وسلم على عينه كما تربى هو على عين الله ـ عز وجل ـ وأصبح هذا الجمع هو قرّة عين النبي صلى الله عليه وسلم[4].

---

[1] دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، كامل سلامة، ص: ٢١٨.
[2] اللحي: العظم الذي تنبت عليه اللحية.
[3] سيرة ابن هشام (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).
[4] التربية القيادية، منير الغضبان (١/ ١٩٨).

وكانت أهم خصائص الذين تربوا على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم هي:

ـ الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التقديم بين يديه.

ـ التأثر الوجداني العميق بالوحي والإيمان.

كان خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرجال في العالم، وهم الذين قامت عليهم الدعوة والجهاد، والدولة والحضارة فيما بعد، فكان من أكابر الخريجين أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص ..إلخ.

٣ـ شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وأثرها في صناعة القادة:

لقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم المربي الأعظم أن يربي في تلك المرحلة السرية وفي دار الأرقم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد والجهاد والدعوة، فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النبي صلى الله عليه وسلم فائقة في اختيار العناصر الأولى للدعوة في خلال السنوات الثلاثة الأولى من عمر الدعوة وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصاً ليؤهلهم لتسليم القيادة، وحمل الرسالة، فالرسالات الكبرى، والأهداف الإنسانية العظمى لا يحملها إلا أفذاذ الرجال، وكبار القادة، وعمالقة الدعاة وكانت دار الأرقم مدرسة من أعظم مدارس الدنيا وجامعات العالم، التقى فيها الرسول المربي بالصفوة المختارة من السابقين الأولين، فكان اللقاء الدائم تدريباً عملياً لجنود المدرسة على مفهوم الجندية والسمع والطاعة، والقيادة وآدابها، وأصولها ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثقة بالله، والعزيمة والإصرار، ويأخذهم بالتزكية والتهذيب، والتربية والتعليم، كان هذا اللقاء المنظم يشحذ العزائم، ويقوي الهمم، ويدفع إلى البذل والتضحية والإيثار[١].

---

[١] دولة الرسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين، ص: ٢٢٠.

٤ـ المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادة الدراسية التي قام بتدريسها النبي صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم، القرآن الكريم، فهو مصدر التلقي الوحيد، فقد حرص الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم على توحيد مصدر التلقي، وتفرده وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القدس ينزل بالآيات غضة طرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيسمعها الصحابة من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، فتسكب في قلوبهم وتتسرب في أرواحهم وتجري في عروقهم مجرى الدم وكانت قلوبهم وأرواحهم تتفاعل مع القرآن، وتنفعل فيتحول الواحد منهم إلى إنسان جديد، بقيمه، ومشاعره وأهدافه وسلوكه وتطلعاته، لقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم حرصاً شديداً على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادة الدراسية، والمنهج الذي تتربى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيء من غير القرآن[١].

٥ـ انتشار الدعوة في بطون قريش:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك، وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي، والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تؤلب عليه العشائر الأخرى، بحجة: أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجمع أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من "تيم" وعثمان بن عفان من "بني أمية" والزبير بن العوام من "بني أسد" ومصعب بن عمير من "بني عبد الدار وعلي بن أبي طالب من "بني هاشم" وعبد الرحمن بن عوف من "بني زهرة" وسعيد بن زيد من "بني عدي" وعثمان ابن مظعون من "بني جُمح"،

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (١/ ١١٣)

بل إن عدداً من المسلمين من هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من هُذيل، وعتبة بن غزوان من مازن وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس من مذجح، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وعمرو بن عبسة من سليم، وصهيب النمري من بني قاسط، لقد كان واضحاً أن الإسلام لم يكن خاصاً بمكة[١].

لقد شق النبي صلى الله عليه وسلم طريقه بكل تخطيط ودقة وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم أن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس، من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها منذ خطوتها الأولى، حيث إن القرآن الكريم المكي بين شمول الدعوة وعالميتها.

ـ قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (ص، آية : ٨٧).

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (القلم، آية : ٥٢).

٦ـ فقه النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع السنن:

إن بناء الدول، وتربية الأمم، والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن، ونواميس تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، وعند التأمل في سيرة الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم نراه قد تعامل مع السنن، والقوانين بحكمة وقدرة فائقة.

إن السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون على الإنسان في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جداً، والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سنن الله تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله.

[١] السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٣٣).

والقرآن الكريم حينما يوجه أنظار المسلمين إلى سنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الكون والشعوب والأمم والدول والأفراد جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، وإنما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السنن وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع واطمأنوا إلى ثبات النظام التي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدية إليه.[١]

إن حركة الإسلام الأولى التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم في تنظيم جهود الدعوة وإقامة الدولة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري خضعت لسنن وقوانين، منها، كأهمية القيادة في صناعة الحضارات وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في مقاومة الباطل، وأهمية المنهج التي تستمد منه العقائد، والأخلاق والعبادات والقيم والتصورات، ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر:

أ ـ سنة التدرج:

وهي من سنن الله تعالى في خلقه وكونه، وهي من السنن المهمة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله عز وجل ومنطلق هذه السنن: أن الطريق طويل لاسيما في هذا العصر الذي سيطرت فيه الجاهلية وأخذت أهبتها واستعدادها، كما أن الشر والفساد قد تجذر في الشعوب واستئصاله يحتاج إلى تدرج، وبدأت الدعوة الإسلامية الأولى مندرجة تسير بالناس سيراً دقيقاً، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس ثم مرحلة المواجهة والمقاومة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز، وما كان يمكن كذلك أن نقدم واحداً منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[٢].

---

[١] في ظلال القرآن (١ / ٤٧٨).
[٢] التمكين للأمة الإسلامية لمحمد السيد يوسف، ص: ٢٢٧.

فالتغيير المنشود لا يكون بين عشية وضحاها، والواقع لا يتبدل في طرفة عين، دون النظر في العواقب، ودون فهم للظروف والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقومات أو للأساليب والوسائل[1].

وقد وجه الله تعالى أنظارنا إلى هذه السنة في أكثر من موقع، فالله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، يعلمها سبحانه وتعالى ويعلم مقدراها، وكان جل شأنه قادراً على خلقها في أقل من لمح البصر، وكذلك لأطوار خلق الإنسان والحيوان والنبات، كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نموها وكمالها ونضجها، وفق سنة الله تعالى الحكيمة.

وسنة التدرج مقررة في التشريع الإسلامي بصورة واضحة ملموسة، وهذا من تيسير الإسلام على البشر، حيث أنه راعى معهم سنة التدرج فيما شرعه لهم إيجاباً وتحريماً، فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة التي استقرت عليها[2].

إننا إذا درسنا القرآن الكريم، والسنة المطهرة، دراسة عميقة علمنا كيف وبأي تدرج وانسجام تم التغيير الإسلامي في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً على حسب مجراها الطبيعي، حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين[3].

وهذه السنة الربانية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يراد تطبيق الإسلام في الحياة واستئناف حياة إسلامية متكاملة، يكون التمكين ثمرتها، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقياً فلا نتوهم: أن ذلك يمكن أن يتحقق بقرار يصدر من رئيس أو ملك أو مجلس قيادي أو برلماني، وإنما يتحقق ذلك بطريقة التدرج، أي بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والاجتماعية، وذلك هو المنهج الذي سلطه النبي صلى الله عليه وسلم لتغيير الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة، كانت مهمته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد،

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (١ / ١٢١).
[2] التمكين للأمة الإسلامية، ص: ٢٢٧.
[3] المصدر نفسه، ص: ٢٢٩.

لحمايتها ونشرها في الآفاق، ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدرما كانت مرحلة تربية وتكوين[1].

ب ـ سنة تغيير النفوس:

من السنن المهمة على طريق النهوض السنة التي يقررها قول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد ، آية : ١١).

إن التغيير الذي قاده النبي صلى الله عليه وسلم بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها العظماء، ثم انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع حيث نقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة، لقد قام النبي صلى الله عليه وسلم ـ بمنهجه القرآني ـ بتغيير في العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، فتغير ما حوله وفي دنيا الناس، فتغيرت المدينة ثم مكة ثم الجزيرة ثم بلاد فارس والروم في حركة عالمية تسبح وتذكر خالقها بالغدو والآصال.

كان اهتمام المنهج القرآني في العهد المكي بجانب العقيدة، فكان يعرضها بشتى الأساليب، فغمرت قلوبهم معاني الإيمان وحدث لهم تحول عظيم، قال تبارك وتعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام ، آية : ١٢٢).

حقاً أنه تصوير رائع عجيب تقف الأقلام حائرة في وصفه، وكذلك الأسلوب الإسلامي في كل حين تنهل منه الألباب وتصدر عنه الأساليب، وتعجز عن إيفائه حقه في التعبير، من الموت

---

[1] الخصائص العامة بالإسلام، يوسف القرضاوي، ص: ١٦٨.

إلى الحياة، ومن الظلمات إلى النور، هل يستويان مثلاً؟ مسافة هائلة ونقلة عظيمة لا يعرف عظمتها ويدرك مقدارها إلا من تغرس في حالهم في ضوء هذا البيان القرآني المعجز[١].

لقد جاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصحيحة، وتثبيتها في قلوب المؤمنين وإيضاحها للناس أجمعين، وذلك ببيان توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والإيمان بكل ما أخبر الله به من الملائكة، والكتاب والنبيين، والقدر خيره وشره واليوم الآخر وإثبات الرسالة للرسل ـ عليهم لسلام ـ والإيمان بكل ما أخبروا به[٢].

فقد عرّف القرآن المكي الناس من هو الإله الذي يجب أن يعبدوه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يربيهم على تلك الآيات العظيمة، فقد حرص صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول على أن يعطي الناس التصور الصحيح عن ربهم، وعن حقه عليهم مدركاً: أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عند من صفت نفوسهم واستقامت فطرتهم[٣].

وركّز القرآنُ الكريم المكي على اليوم الآخر غاية التركيز، فقلَّ أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة وأحوال المنعمين، وأحوال المعذبين، وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم حتى لكأن الإنسان يرى يوم القيامة رؤي العين، قال تعالى:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

[١] الانحرافات العقدية والعلمية، علي الزهراني (١ / ٢٥، ٢٦).
[٢] أهمية الجهاد في نشر الدعوة لعلي العلياني، ص: ١٢٥.
[٣] السيرة النبوية للصلابي (١/ ١٢٥).

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر، الآيات : ٦٧-٧٥).

ـ وقد جاءت الآيات الكريمة مبينة واصفة للجنة فأثر ذلك في نفوس الصحابة أيّما تأثير، فمِمَّا جاء في وصف الجنة: أنها لا مثيل لها، وأن لها أبواباً، وفيها درجات وتجري من تحتها الأنهار، وفيها عيون وقصور وخيام وفيها أشجار متنوعة، كسدرة المنتهى، وشجرة طوبى، وتحدث القرآن الكريم عن نعيم أهلها وطعامهم وشرابهم وخمرهم وآنيتهم ولباسهم وحليّهم وفرشهم وخدمهم وأحاديثهم ونسائهم، وعن أفضل ما يُعطاه أهلها، وعن آخر دعواهم، بحيث أصبح الوصف القرآني للجنة مهيمناً على جوارح وأحاسيس، وأذهان وقلوب المسلمين[١].

ـ وكان الصحابة يخافون الله تعالى ويخشونه ويرجونه، وكان لتربية الرسول صلى الله عليه وسلم أثر في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآني الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل الأفاعيل في نفوس الصحابة، لأن القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة، ومعالمها من قبض الأرض ودكها وطي السماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار، وتسجيرها ومور السماء وانفطارها وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النجوم، وصوَّر القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم وهوانهم وحسرتهم، ويأسهم وإحباط أعمالهم، وتخاصم العابدين والمعبودين، وتخاصم الأتباع وقادة الضلالة، وتخاصم الضعفاء والسادة، وتخاصم الكافر وقرينه الشيطان، ومخاصمة الكافر أعضاءه، وتخاصم الروح والجسد، وتحدَّث القرآن الكريم عن الشفاعة وبيَّن شروطها، والمقبول منها والمرفوض، والمراد بالحساب والجزاء، وعن مشهد الحساب، وهل يسأل الكفار ولماذا يسألون، وتحدث القرآن الكريم عن الاقتصاص في المظالم بين الخلق، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة، وبيّن المولى عز وجل في القرآن الكريم عظم شأن الدماء، وبيّن: أن هناك يوم القيامة توضع الموازين التي توزن بها الأعمال، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الحوض ومن الذين يردون عليه، والذين يُذادون عنه،

---

[١] السيرة النبوية (١/ ١٢٩).

وتحدث القرآن الكريم عن حشر الكفار إلى النار، ومرور المؤمنين والمنافقين على الصراط، وخلاص المؤمنين وحدهم[1].

ـ واهتم القرآن الكريم في الفترة المكية بقضية القضاء والقدر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر، آية : ٤٩).

وكان صلى الله عليه وسلم يغرس في نفوس الصحابة مفهوم القضاء والقدر واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه وتعليمهم أركان الإيمان الستة، وصحح عندهم كثيراً من المفاهيم والتصورات والاعتقادات عن الإنسان، والحياة والكون، والعلاقة بينهما، ليسير المسلم عن نور من الله، ويدرك هدف وجوده في الحياة ويحقق ما أراد الله منه غاية التحقيق ويتحرر من الوهم والخرافات[2].

ـ وكان البناء التعبدي مبني على تزكية أرواح الصحابة بأنواع العبادات، كالصلاة وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه وكل أنواع العبادات المفروضة والعبادات بمعناها الواسع الذي يشمل كل عمل يعمله الإنسان أو يتركه بل كل شعور يقبل عليه الإنسان تقرباً إلى الله تعالى، بل يدخل فيها كل شعور يطرده الإنسان عن نفسه تقرباً به إلى الله تعالى مادامت نية المتعبد بهذا العمل هي إرضاء الله سبحانه وتعالى، فكل الأمور مع نية التقرب إلى الله تعالى سبحانه وتعالى عبادة يثاب صاحبها، وتربي روحه تربية حسنة[3].

وكانت تربية رسول الله لأصحابه شاملة لأنها مستمدة من القرآن الكريم الذي خاطب الإنسان ككل يتكون من الروح، والجسد والعقل، فقد اهتمت التربية النبوية بتربية الصحابي على تنمية قدرته في النظر والتفكر والتدبر، لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا مطلب قرآني أرشدنا إليه ربنا.

ـ قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (ص، آية : ٢٩).

---

[1] السيرة النبوية (١/ ١٣٦).
[2] المصدر نفسه (١/ ١٤٣).
[3] المصدر نفسه (١/ ١٦٠).

فالعقل نعمة من الله على الإنسان يتمكن بها من قبول العلم، واستيعابه ولذلك وضع القرآن الكريم منهجاً لتربية العقل ومن أهم نقاط هذا المنهج، تجريد العقل من المسلمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد، فقد حذر القرآن الكريم من ذلك في الآية الكريمة التالية قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم ، آية : ٢٨).

ـ وألزم العقل بالتحري والتثبيت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات ، آية : ٦).

ـ دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون، قال الله تعالى: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" (الحجر ، آية : ٨٥).

ـ دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات، وأخلاق، وآداب، وأسلوب حياة كامل، في السلم والحرب، في الإقامة والسفر، لأن ذلك ينضج العقل، وينميه وبتعرفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص، ليطبق الشرع الرباني في حياته، ولا يبغي عنه حولاً، لما فيه من السكينة والطمأنينة، والسعادة للبشرية، ولأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما شرع ما شرع لذلك.

ـ دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم ، آية : ٩).

ـ وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تربية أصحابه جسدياً، واستمد أصول تلك التربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدي الجسم وظيفته، التي خلق لها دون إسراف أو تقطير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته على حساب طاقة أخرى[١].

لقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته على المنهج الكريم، منهج تزكية الأرواح وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد وتقويتها، لإعداد الشخصية الربانية المتوازنة.

ولقد نجحت تربيته صلى الله عليه وسلم في تحقيق أهدافها المرسومة وإعداد أفراد الأمة رجالاً ونساءً لتبليغ رسالات الله بين الناس من خلال دولة العدالة والمساواة والحرية والقانون، وحقوق الإنسان، والكرامة التي تم تأسيسها على أسس متينة وقيم راسخة، وعقيدة صحيحة، وأخلاق حميدة بالمدينة.

ولقد اهتم المنهج الرباني الذي سار عليه رسول الله بالأخلاق الرفيعة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق، وقد ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعة، وكان صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم ما ينزل من قرآن فإذا سمعوه وتدبروه عملوا بتوجيهاته، والمتدبر للقرآن الكريم يجده مليئاً بالحث على مكارم الأخلاق وعلى تنقية الروح وتصفيتها من كل ما يعوق سيرها إلى الله تعالى، ورسول الهدى صلى الله عليه وسلم القدوة الكاملة والمربي الناصح للأمة كان على خلق عظيم[٢].

ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ، آية : ٤)، ومعنى الآية واضح، أي: ما كان يأمر به من أمر الله وينهي عنه من نهي الله، والمعنى: إنك على الخلق الذي آثرك الله به في القرآن[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: "إن خلق النبي صلى الله عليه وسلم كان القرآن"[٤].

---

[١] السيرة النبوية (١ / ١٦٦، ١٦٧).
[٢] أهمية الجهاد في نشر الدعوة، ص: ٦٤، ٦٥.
[٣] تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم العربي (٢ / ٦٥٣).
[٤] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٧٤٦.

وقد جمع الله لنبينا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ، آية : ١٩٩).

قال مجاهد في معنى الآية: يعني: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخصيص، مثل قبول الأعذار والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق مواطنهم.

لقد سار النبي صلى الله عليه وسلم على المنهج القرآني في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة، والعقائد في وقت واحد، لأن العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحة في كتاب الله تعالى، وقد بين سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين الأخلاقيات الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـ"لا إله إلا الله"، والأخلاقيات الجاهلية التي ينبغي أن ينبذها المؤمنون، والحقيقة: أن التنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللحظة الأولى مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية، واستمر معه حتى النهاية.

أن الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في الإسلام، وليست محصورة في إطار معين من نطق السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله، كما أن المظاهر السلوكية كلها ذات الصبغة الخلقية الواضحة هي الترجمة العملية للاعتقاد، والإيمان الصحيح لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير، فحسب إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك النظري أو حين نرى عكسه أن نتساءل أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك[١].

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطاً قوياً، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ

---

[١] دراسات قرآنية لمحمد قطب، ص: ١٣٠.

يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون ، آية : ١ ـ ١١)، فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التوكيد ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم تصف هؤلاء المؤمنون بذلك الوصف المطول المفصل، الذي يعني بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين، موحياً إيحاءً واضحاً أن هذه الأخلاقيات ـ من جهة ـ هي ثمرة الإيمان، وأن الإيمان ـ من جهة أخرى ـ هو سلوك ملموس يترجم عن العقيدة المكنونة إنهم بادىء ذي بدء خاشعون في صلاتهم، فذلك أوّل مظهر للمؤمن الصادق: أن تكون صلاته ـ وهي اللحظة التي يقف فيها متعبداً لربه ذاكراً له في قلبه، متصلاً به بروحه ـ صلاة خاشعة بما ينبئ عن صدق الصلة بالله، التي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصلاة، ثم تثني السورة بصفة سلوكية أخرى ذات دلالة، هي: أنهم عن اللغو معرضون، فاللغو لا ينبىء عن نفس جادة، والإيمان الصحيح يورث النفس الجد بما يشعرها من ثقل التكاليف، وحديتها والجد ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً، ولكن اللغو ـ من جانب آخر ـ لا يستقيم مع جدية الشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام خالقه، ثم إن هؤلاء المؤمنين لابد أن تكون في قلوبهم الحساسية لحق الله في أموالهم وهو الزكاة، ولابد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس، فلا يتعدون حدود الله، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعية، فيحفظون الأمانة، ويرعون العهد، وبهذا نفهم فهم الصحابة للأخلاق فهي ثمرة طبيعية للعقيدة الصحيحة، وكذلك العبادة الحية الخاشعة لله، هكذا تعلموا من القرآن الكريم ومن هدي حبيبهم الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم.

إن الأخلاق في التربية النبوية شيء شامل، يعمُّ كل تصرفات الإنسان، وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق هي أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق هي العفو والصفح ووقوع العدوان من الأعداء تتبعه أخلاق هي

الانتصار أي ـ رد العدوان ـ وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة.

هذا أمر، والأمر الآخر ـ وهو الأهم ـ أن الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله وليست للبشر ولا لأحد غير الله فالصدق لله، والوفاء بالعهد لله، واتقاء المحرمات في علاقات الجنس لله، والعفو والصفح لله، والانتصار من الظلم لله، وإتقان العمل لله، كلها عبادة لله تقدم لله وحده، خشية لله، وتقوى وتطلعاً إلى رضاه، إنها ليست صفقة بشرية للكسب والخسارة إنما هي صفقة مع الله[1].

لقد أولى المنهاج النبوي الكريم ـ المستمد من كتاب رب العالمين ـ الأخلاق أهمية كبيرة، وحث على التمسك بفضائلها بمختلف الأساليب، وحذر من ارتكاب مرذولها بشتى الطرق ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقة من نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، فإذا كانت العقائد تشكل أركان الصرح الإسلامي، فإن التشريعات تكون تقسيمات حجراته وممراته ومداخله، والأخلاق تضفي البهاء والرونق والجمال على الصرح المكتمل، وتصبغه الصبغة الربانية المتميزة، وإذا كانت العقيدة الإسلامية تشكل جذور الدوحة الإسلامية وجذعها، فإن الشريعة تمثل أغصانها وتشعباتها، والأخرى تكون ثمارها اليانعة، وظلالها الوارفة، ومنظرها البهيج النضير[2].

لقد استخدم المنهاج النبوي أساليب التأثير والاستجابة والالتزام في تربيته للصحابة، لكي يحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي والعمل التطبيقي، سواء كانت اعتقادية، كمراقبة الله تعالى، ورجاء الآخرة، أو عبادية كالشعائر التي تعمل على تربية الضمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النفس ومع تطور الدعوة الإسلامية، ووصولها إلى الدولة أصبحت هناك حوافز إلزامية تأتي من خارج النفس متمثلة في:

ـ التشريع:

الذي وُضع لحماية القيم الخلقية، كشرائع الحدود والقصاص، التي تحمي الفرد والمجتمع من رذائل البغي على الغير: بالقتل أو السرقة، أو انتهاك الأعراض بالزنى والقذف أو البغي على النفس، وإهدار العقل بالخمر والمسكرات المختلفة.

---

[1] دراسات قرآنية، محمد قطب، ص: ١٣٩.
[2] المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار فتح الله سعيد، ص: ٢٤٥.

ـ سلطة المجتمع:

التي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتناصح بين المؤمنين، ومسؤولية بعضهم على بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤولية قرينة الزكاة والصلاة وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم :﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، آية : ٧١).

ـ سلطة الدولة:

التي وجب قيامها، وأقيمت على أسس أخلاقية وطيدة، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق، وبثّها في سائر أفرادها ومؤسساتها، وتجعلها من مهام وجودها ومبرراته[١].

وبذلك اجتمع للخلق الإسلامي أطراف الكمال كله وأصبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائدي والروحي والأخلاقي في الفترة المكية، ولقد آتت هذه التربية أكلها، فقد كان ما يزيد على العشرين من الصحابة الكرام من الخمسين الأوائل السابقين إلى الإسلام، يمارسون مسؤوليات قيادية بعد توسع الدعوة، وانطلاقها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم آخرون معظمهم استشهدوا أو ماتوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان في الرعيل الأول أعظم شخصيات الأمة على الإطلاق، كان فيهم تسعة من العشرة المبشرين بالجنة، وهم أفضل الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم نماذج أسهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة، كعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذر، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان من هذا الرعيل أعظم نساء الأمة خديجة رضي الله عنها، ونماذج عالية أخرى، مثل أم الفضل بنت الحارث، وأسماء ذات النطاقين، وأسماء بنت عميس وغيرهن.

---

[١] المنهاج القرآني في التشريع، ص: ٤٣٣.

لقد أُتيح للرعيل الأول أكبر قدر من التربية العقدية والروحية والعقلية والأخلاقية على يد مربي البشرية الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، فكانوا هم حداة الركب وهداة الأمة[١]، فقد كان رسول الله صلى الله عليه ولم يزكيهم ويربيهم وينقيهم أوضار الجاهلية، فإذا كان السعيد الذي فاز بفضل الصحبة من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو مرة واحدة في حياته، وآمن به، فكيف بمن كان الرفيق اليومي له، ويتلقى منه، ويعبق من نوره وتغذى من كلامه، ويتربى على عينه[٢].

جـ ـ سنة الابتلاء:

بعد الاعداد العظيم الذي قام به النبي صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية وتعبدية، خلقية رفيعة المستوى حان موعد إعلان الدعوة بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء ، آية : ٢١٤ ـ ٢١٦).

فجمع قبيلته صلى الله عليه وسلم وعشيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوفهم من العذاب الشديد، إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار، وبيَّن لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه[٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً ينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم: أن خيلاء بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال أبو

---

[١] التربية القيادية للغضبان (١ / ٢٠١).
[٢] رسالة الأنبياء، عمر أحمد (٣ / ٤٦).
[٣] المصدر نفسه.

لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد ، آية : ١ ـ ٢). البخاري رقم ٤٩٧١، مسلم رقم ٢٠٨.

وفي رواية: "ناداهم بطناً بطناً، ويقول لكل بطن: «**أنقذوا أنفسكم من النار..**» ثم قال: «**يا فاطمة انقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»[1].

كان القرشيون واقعيين عمليين، فلما رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق الأمين ـ قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم، وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» وكان ذلك تعريفاً بمقام النبوة، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية، والعلوم الوهبية، وإنذاراً في حكمة وبلاغة لا نظير لهما في تاريخ الديانات، والنبوءات، فلم تكن طريق أقصر من هذه الطريق، وأسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[2].

ولكن أبا لهب قال: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟

وجاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس على اختلاف قبائلهم، وبلدانهم، ويتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم وفي الموسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حُر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير، حين نزول قوله تعالى:﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر، آية : ٩٤ ـ ٩٧).

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٤٧٧١، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٠٤.
[2] السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ص: ١٣٨.

كانت النتيجة لهذا الصدع هي الصد، والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب والكيد المدبر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، أصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان، وكان هذا في حد ذاته مكسباً عظيماً، ساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كان يشيع في القبائل قالت السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى زعماء الكفر، والشرك.

كانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر، تناقل الناس للأخبار مشافهة، وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، صار هذا الحدث العظيم حديث الناس في المجالس، ونوادي القبائل، وفي بيوت الناس[١].

وكانت أهم اعتراضات زعماء الشرك موجهة نحو وحدانية الله، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم الذي أنزل عليه من رب العالمين[٢].

وكان لضعف تأثير النبوءات في جزيرة العرب، وللعصبية لتراث الآباء والأجداد، وموقف أهل الكتاب المساند للوثنية، وسيطرة الأعراف والعوائد القبلية، وحرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب، سبب في إنكار دعوة الإسلام في العهد المكي.

ولقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، لأشكال وأنواع، وأصناف متعددة من الابتلاء، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتشويه الدعوة وإيذائه صلى الله عليه وسلم وإيذاء أصحابه، وعرض المغريات، والمساومات لترك الدعوة، ومطالبته بجعل الصفا ذهباً، والاستعانة باليهود في مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدعاية الإعلامية في الموسم ضد الدعوة وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، والحصار الاقتصادي الذي تعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنو هاشم، وبنوعبد المطلب من قبل كفار مكة، والإيذاء الجسدي، وغير ذلك من أنواع الابتلاء.

والابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً، فلقد جرت سنة الله ألا يُمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختيار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث فيميز الله الخبيث من

---

١ الغرباء الأوّلون، سلمان العودة، ص: ١٦٧.

٢ السيرة النبوية للصلابي (١/ ١٨٥).

الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبلي المؤمنين، ويختبرهم ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي رضي الله عنه حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء أن يمكّن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة[١].

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكّن ورسوخ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة، لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختبار لا مجرد الاختبار[٢].

إن طريق الابتلاء سنة الله في الدعوات، كما أنه الطريق إلى الجنة، وقد حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات[٣].

وللابتلاء حكم كثيرة من أهمها: تصفية النفوس وتربية الجماعة المسلمة، و الكشف عن خبايا النفوس، والإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، ومعرفة حقيقة النفس ورفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة**»[٤].

وقد قابل رسول الله صلى الله عليه وسلم الابتلاء بسنة الأخذ بالأسباب وكان يربي أصحابه على:

ـ التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ـ التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

---

[١] الفوائد لابن القيم، ص: ١٩٥.
[٢] التمكين للأمة الإسلامية، ص: ٢٣٥.
[٣]أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٨٢٢.
[٤] السيرة النبوية للصلابي (١/ ١٩٥ ـ ١٩٧).

ـ التطلع للمستقبل، الذي ينصر الله به الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الكفر والعصيان، وثمة أمر آخر كبير، ألا وهو أنه صلى الله عليه وسلم مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات التي تعترض طريق الدعوة إلى الله[١].

د ـ سنة الأخذ بالأسباب:

إن من أهم السنن في بناء الدول وفي حركة الحياة سنة الأخذ بالأسباب ولقد تعامل معها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربية المجتمع وبناء الدولة، كما أن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدرة أيضاً كالمسببات فمن زعم أن الله تعالى قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذهل عن حقيقة القدر، فالأسباب مقدرة كالمسببات، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل[٢].

إن من سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن، والعجز والكسل، وتعاطي أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوت سنه، ولم ينظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذي سأله، أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: «**أعقلها وتوكل**»[٣]، وقال: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[٤]، وما غزواته المظفرة صلى الله عليه وسلم إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش، وبعث الطلائع والعيون، وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة،

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٢٢٨).
[٢] الإيمان بالكتب السماوية والرسل والقدر (٢/ ٥٩٩).
[٣] رواه ابن حيان بإسناد صحيح عن عمرو بن أمية.
[٤] البخاري، ك الطب، باب: ١٩ (٥/ ٥٣٨٠).

وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيطة في هجرته، أعد الرواحل التي يمتطيها والدليل الذي يصحبه وغير ذلك الطريق واختبأ في الغار[1]. وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد والمزاد وهو سيد المتوكلين وحركة النبي صلى الله عليه وسلم ترجمان وتفسير عملي للقرآن الكريم الحافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد[2].

- قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال ، آية : ٦٠).

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالإعداد الشامل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال ، آية : ٦٠).

وإعداد القوة في حقيقته الأخذ بالأسباب الشاملة، كقوة العقيدة والإيمان وقوة الصف والتلاحم وقوة السلاح والساعد، إن الآية الكريمة تضع أذهان المسلمين على الإعداد الكامل المعنوي والمادي، والعلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات ويدخل في طياتها، الإعداد التربوي والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري[3].

إن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتى وفاته، ولم يفرِّط في أي منها، فتعامل مع سنة الله في تغيير النفوس، وسنة الله في التدافع مع الباطل، وسنة التدرج في بناء الجماعة، ثم الدولة، وسنة الابتلاء، واستفرغ صلى الله عليه وسلم جهده في الأخذ بالأسباب التي توصل للتمكين فكانت هجرتا الحبشة وذهابه للطائف وعرضه للدعوة على القبائل، ثم هجرته إلى المدينة، فأقام الدولة وحافظ عليها وسار أصحابه من بعده على نهجه،

---

[1] عقيدة التوحيد سعاد ميبر، ص: ٢١٢.
[2] الإيمان بالكتب السماوية والرسل والقدر (٢ / ٦٠٠).
[3] فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: ٢١٤.

وتعاملوا مع السنن بوعي وبصيرة، وصنعوا حضارة لم يعرف التاريخ البشري مثلها حتى يومنا هذا.

إن حركة النبي صلى الله عليه وسلم في تربية الأمة، وإقامة الدولة نور يهتدي، وسنة يقتدي بها في البحور المتلاطمة، والمناهج المتغايرة، والظلام البهيم، وإنها ليسيرة على من يسَّرها الله عليه.

هـ ـ الطواف على القبائل طلباً للنصرة:

بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله ـ عز وجل ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرك في المواسم التجارية، ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل وفق خطة سياسية دعوية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصديق الرجل الذي تخصص في أنساب العرب، وتاريخها، وكانا يقصدان "غُرر الناس، ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعرض دعوته[1].

وكان طلب الرسول صلى الله عليه وسلم للنّصرة من خارج مكة إنما بدأ ينشط بشكل ملحوظ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عقب وفاة عمه أبي طالب، الذي كان يحميه من قريش وذلك لأن من يحمل الدَّعوة، لن يستطيع أن يتحرَّك التحرك الفعال لأجلها، وتوفير الاستجابة لها، في جوٍّ من العنف والضغط، والإرهاب.

ـ وحصر رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب النصرة في زعماء القبائل، وذوي الشرف، والمكانة، ممَّن لهم أتباع يسمعون لهم، ويطيعون، لأن هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدعوة وصاحبها.

[1] الأنساب، للسعماني (١ / ٣٦).

ـ ويلاحظ في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، بخصوص طلب النَّصرة: أنه كان يطلبها لأمرين اثنين:

- كان يطلب النصرة من أجل حماية تبليغ الدعوة، حتى تسير بين الناس محمية الجانب، بعيدة عن الإساءة إليها، وإلى أتباعها.
- كان يطلب النصرة، من أجل أن يتسلم النبي صلى الله عليه وسلم مقاليد الحكم والسلطان على أساس تلك الدعوة وهذا ترتيب طبيعي للأمور.

ـ ومن صفة النصرة، التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبها لدعوته من زعماء القبائل، أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة ـ والحالة هذه ـ يُعرِّضها لخطر القضاء عليها من قبل الدولة التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطراً عليها، وتهديداً لمصالحها.

إن الحماية المشروطة، أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضد كسرى، لو أراد القبض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسليمه، ولن يخوضوا حرباً ضد كسرى، لو أراد مهاجمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات[١].

ـ إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، هذا الردُّ من النبي صلى الله عليه وسلم على المثنى بن حارثة حين عرض على النبي صلى الله عليه وسلم حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة يرى بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يُسامي[٢].

و ـ بيعة العقبة الأولى:

من الحقائق التي لا يقع عليها أي ـ خلاف ـ أن هذا المجتمع السياسي أو (الدولة) قد بدأ حياته الفعلية وأخذ يؤدي وظائفه، ويحول المبادئ النظرية إلى أعمال، بعد أن استكمل

---

[١] التحالف السياسي في الإسلام لمنير الغضبان، ص: ٥٣.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٦٤.

حريته وسيادته، وضم إليه عناصر جديدة ووجد له موطناً، على إثر "بيعة العقبة الأولى والثانية" بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ووفود المدينة، والواقع أن هاتين البيعتين كانتا نقطة التحول في حياة الإسلام، ولم تكن الهجرة إلا إحدى النتائج التي ترتبت عليهما والنظرة الصحيحة إليهما أن ينظر إليهما على أنهما حجر الزاوية في بناء الدولة الإسلامية ومن ثم تتضح أهميتهما، وما أشبههما بالعقود الاجتماعية التي بدأ لبعض فلاسفة السياسة في العصور الحديثة أن يفترضوا حدوثها معتبرين أنها الأساس الذي قامت عليه الدول والحكومات، ولكن "العقد الاجتماعي" الذي تحدث عنه "روسو" وأمثاله كان مجرد نظرية، أما العقد الذي حدث هنا مرتين عند العقبة، وقامت على أساسه الدولة الإسلامية، فهو عقد تاريخي: هو حقيقة يعرفها الجميع تمَّ فيه الاتفاق بين إرادات إنسانية حرة وأفكار واعية ناضجة، من أجل تحقيق رسالة سامية.

فقد ولدت الدولة الإسلامية إذن في وضح النهار، وتم تكونها في ضوء التاريخ، وإذ بدأت عملها لم تكن هناك أية وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها إنها سياسية: من إعداد الأداة لتنفيذ العدالة، أو تنظيم للدفاع أو بث للتعلم، أو جباية للمال، أو عقد معاهدات أو إنفاذ سفارات إلا كانت هذه الدولة تؤديها، ومن المجال أن ينكرها أحد، إلا إذا كان يباح له أن يجحد أية حقيقة أو حقائق تاريخية وقعت في أي عصر من العصور، وأجمع عليها الناس قاطبة، ومن هذه الحقائق التي ذكرنا يتألف البرهان التاريخي الذي رأينا على الطبيعة السياسية للنظام الإسلامي[١].

كانت بيعة العقبة الأولى بعد عام من المقابلة الأولى، التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل يثرب عند العقبة، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة، وبايعوه العقبة الأولى، عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي

---

[١] النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الرئيسي، ص: ٣١.

بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس وكان بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[١].

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة، في العقبة الأولى، فقال: كنت فيمن كان حضر العقبة، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض علينا الحرب، على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، لانقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله ـ عز وجل - إن شاء غفر، وإن شاء عذب[٢].

وبنود هذه البيعة، هي التي بايع الرسول صلى الله عليه وسلم عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم بيعة النساء[٣]، وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم مع المبايعين مصعب بن عمير يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فكان يسمى بالمدينة "المقرئ" وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان بجانب إلمامه لما نزل من القرآن يملك من اللياقة والهدوء، وحسن الخلق، والحكمة قدراً كبيراً فضلاً عن قوة إيمانية، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[٤]، واستطاع السفير مصعب رضي الله عنه أن يهيىء البيئة الصالحة، لانتقال الدعوة والدولة إلى مقرها الجديد، حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عملياً وسلوكياً والتي تعني الالتزام التام بنظام الإسلام[٥].

---

[١] السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٩٧).
[٢] أخرجه البخاري، الحديث رقم:١٨، ٩٢، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٧٠٩.
[٣] الغرباء الأولون، ص: ١٨٥.
[٤] المصدر نفسه، ص: ١٨٦، ١٨٧.
[٥] النظرية السياسية الإسلامية، ص: ٣٣٩.

وبذل الرسول صلى الله عليه وسلم كل ما يملك من جهد لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصير للجهد البشري الممكن في بناء القاعدة الصلبة، التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة، واحتل هذا الجهد سنتين من الدعوة والتنظيم.

ـ ونجحت التعبئة الإيمانية في نفوس من أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنه قد آن الأوان لقيام الدولة الجديدة وكما يقول جابر رضي الله عنه، وهو يمثّل هذه الصورة الرفيعة الرائعة، حتى متى نترك، رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطرد في جبال مكة ويخاف.

ـ وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكة قبيل موسم الحج، من العام الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات والإمكانات المتاحة، أو كيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج، وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة، قادرة على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنعته[١].

ز ـ بيعة العقبة الثانية:

كان اللقاء الذي غيَّر مجرى التاريخ، في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة، حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين، من أهل يثرب، فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم اتصالات سرية، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل[٢].

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: ... فقلنا: حتى متى يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُطرد في جبال مكة، ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل، ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعُك؟ قال: «**تبايعوني على السَّمع والطاعةِ في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن**

---

[١] التحالف السياسي، ص: ٧١.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٧.

تقولوا في الله لا يأخذكم في الله لومةُ لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم، وتمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكُمُ الجنة»[1].

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو من أصغرهم ـ فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جُبينة، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسليها "أي: نتركها" قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة[2].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطاعة والنصرة والحرب، لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب[3]، أما رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري ـ وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية ـ ففيها تفصيلات مهمة، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة، من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من بايعنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نتسلل تسلل القطا "الحمام" مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم في منعه من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأخذ لنفسه، ولربه ما يجب من الشروط.

---

[1] صحيح ابن حبان، الحديث رقم: ٧٠١٢.
[2] السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٩).
[3] مستند الإمام أحمد (٥/ ٣١٦) بإسناد صحيح لغيره.

قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم**»، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنّا مما نمنع [1]منه أُزُرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب وأهل الحَلَقة " السلاح" ورثناها كابراً عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها "يعني: اليهود" فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**».

ثم قال: «**أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم**»، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم منهم الانصراف إلى رحالهم وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نفلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لم نُؤمر بذلك، ولكن أرجعوا إلى رحالكم**»، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عمّا بلغهم من بيعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ودعوتهم له للهجرة فحلف المشركون من الخزرج والأوس، بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم.

قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت له كلمة ـ كأني أريد أن أشرك بها القوم فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من سادتنا، مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بها إليّ، وقال: والله لتنتعلنّهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت " أي: أغضبت" والله الفتى، فأردد إليه نعليه، قال: قلت: لا والله لا أردهما، فأل والله صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه[2].

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٤٢).
[2] مسند أحمد (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢).

ـ كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها وبواعثها وآثارها وواقعها التاريخي، فتح الفتوح، لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألية عليها ولم يغيب عن أنصار الله قدرها ووزنها، في ميادين الحروب والقتال، وهي آثارها تشميرٌ ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله، على كل عالٍ مستكبر في الأرض، حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق، وعدل ونصر واستشهاد وتبليغ لرسالة الإسلام[1].

ـ ويظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة وكانت تمثل تحدًّيا خطيراً وجريئاً لقوى الشرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي:

ـ سرية الحركة والانتقال لجماعة المتابعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة مما جعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمراً غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق، بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرّجل كما تم تحديد المكان في شعب الإيمان، بعيداً عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة[2].

ـ الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتسللون مستخفين، ورجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

---

[1] محمد رسول الله، لمحمد صادق عرجون (٢/ ٤٠٠).
[2] الهجرة النبوية المباركة، عبد الرحمن البر، ص: ٦١.

ـ ضرب السرية التامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب، الذي جاء مع النبي صلى الله عليه وسلم ليتوثق له[1]، وعلي بن أبي طالب الذي كان عيناً للمسلمين على فم الشعب وأبو بكر الذي كان على فم الطريق ـ وهو الآخر ـ عيناً للمسلمين[2]، أما من عداهم من المسلمين وغيرهم، فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصوت، وألا يطيلوا في الكلام، حذراً من وجود عين تسمع صوتهم، أو تجس حركتهم[3].

ـ متابعة الإخفاء والسرية حيث كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئاً رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد؛ وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر، مَرَّ المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع[4].

ـ اختيار الليلة الأخيرة في ليالي الحج، وهي الليلة الثالثة عشرة من ذي الحجة حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم، إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع، وهذا ما حدث[5].

ـ وكانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته إذا قدم المدينة[6].

ـ وسرعان ما استجاب قائد الأنصار ـ دون تردد ـ البراء بن معرور، قائلاً: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٢.
[2] التربية القيادية (٢/ ١٠٩).
[3] الهجرة النبوية المباركة، ص: ٦٢.
[4] المصدر نفسه، ص: ٦٢.
[5] الهجرة النبوية المباركة، ص: ٦٧.
[6] التحالف السياسي، ص: ٨٢.

صلى الله عليه وسلم فقومه أبناء الحرب، والسلاح[1]، ومما يجدر الإشارة إليه في أمر البراء: أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأياً، فوالله ما أدري: أتوافقونني عليه أم لا؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البنية ـ يعني: الكعبة ـ مني بظهر، وأن أصلي إليها فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يصلي إلاّ إلى الشام ـ بيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلّوا إلى بيت المقدس وصلى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع عمه العباس رضي الله عنه بالمسجد الحرام، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم العباس رضي الله عنه: **«هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟»** قال نعم. فقصّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: **«قد كنت على قبلة لو صبرت عليها»**[2].

قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلىّ معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة ومات في صفر قبل قدومه صلى الله عليه وسلم بشهر، وأوصى بثلث ماله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقبله وردّه على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله[3]، ويستوقفنا في هذا الخبر:

ـ الإنضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم صلى الله عليه وسلم وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره، يتعارض مع ذلك يُعد مرفوضاً، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها في حياتهم وهم ـ بعد ـ مازالوا في بداية الطريق.

ـ إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن توقير أي إنسان واحترامه، إنما هو انعكاس لسلوكه، والتزامه بأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية لتحل محلها قيم إيمانية، فهي المقاييس الحقة، التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفاً وترتيباً[4].

---

[1] السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤).
[2] السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤).
[3] السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٥).
[4] المصدر نفسه (١/ ٤٤٥).

ـ كان أبو الهيثم بن التيهان صريحاً عندما قال للرسول صلى الله عليه وسلم: إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»[١].

وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبّر عمّا في نفسه بكامل حريته[٢]، وكان جواب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم عظيماً، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار والأنصار جزءاً منه[٣].

ـ يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة، منها:

ـ أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعين النقباء، وإنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمر شورى، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمارسوا الشورى عملياً من خلال اختيار نقبائهم.

ـ التمثيل النسبي في الاختيار فمن المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

ـ جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقفوه ومعتنقوه، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم وأنهم غدوا أهل الإسلام، وحماته وأنصاره[٤].

في قول العباس بن عبادة بن نفلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى**

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٤٦).
[٢] التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٩٧).
[٣] التربية القيادية (٢/ ٦٧).
[٤] دراسات في السيرة النبوية، د.عماد الدين خليل، ص: ١٣٢.

رحالكم»، درس تربوي بليغ، وهو: أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى، وتشريعاته الحكيمة، فإذا شرع الجهاد، فإن أمر الإقدام، أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين، بعد التشاور، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[١]، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى، أدت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات وتنفيذها عن العدو هو الكفيل ـ بإذن الله ـ بنجاحها ولكن ارجعوا إلى رحالكم[٢].

ـ وكانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، وقولهم له: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً، ما صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد عن بيعته صلى الله عليه وسلم، حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأما نسيبة بنت كعب "أم عمارة" فقد سقطت في أحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحازت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عميقة، وشهدت بيعة الرضوان[٣]، وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إرباً إرباً، فما وهنت، وما استكانت، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد، فقاتلت حتى قطعت يدها، وجُرحت اثني عشر جرحاً[٤]، وأما أسماء بنت عمرو من بني سلمة، قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[٥].

ـ وعندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصارفي كتب السير والتراجم، نجد: أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة

---

[١] التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٠٤).
[٢] التحالف السياسي في الإسلام، ص: ٩٦.
[٣] المرأة في العهد النبوي، د.عصمة الدين، ص: ١٠٨.
[٤] السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٨٠).
[٥] المرأة في العهد النبوي، ص: ١٠٨.

النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر، فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربه شهيداً، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئاً إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال والنساء[1].

ح ـ الهجرة إلى المدينة:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرغم من أساليبها الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا في مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين القبائل العرب، لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال ، آية : ٣٠).

فقال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح، فأثبتوه بالوُثُق يريدون النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي صلى الله عليه وسلم ـ تلك الليلة[2]. وخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا، ثاروا إليه، فلما رأوا علياً ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتصُّوا أثره، فلما بلغوا الجبل، اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار،

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٤٨)، التربية القيادية.
[2] مصنف عبد الرزاق (٥ / ٣٨٩).

فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً[1].

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآيات التي تتحدث عن مكر المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم: إنه التذكير بما كان في مكة قبل تغيُّر الحال، وتبدل الموقف، وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته فيما يقضي به ويأمر، ولقد كان المسلمون الذين يحاطون بهذا القرآن أول مرة يعرفون الحالين معرفة الذي عاش، ورأى، وذاق، وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوف وقلق في مواجهة الحاضر الواقع، وما فيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم لا مجرد النجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبسوه حتى يموت أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفياً مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كله، ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعاً، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب جميعاً، فيرضوا بالدية، وينتهي الأمر﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُّ وَاللهُّ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة، فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط[2].

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بالترتيبات اللازمة للهجرة ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وكان أبو بكر الصديق في رفقته، وآل الصديق في خدمته صلى الله عليه وسلم.

وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رؤي العين، طمأن الرسول صلى الله عليه وسلم الصديق بمعية الله لهما، فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت للنبي صلى الله عليه

[1] البداية والنهاية (٣ / ١٨١).
[2] في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠١).

وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال صلى الله عليه وسلم: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[١]؟

وذكر المولى عز وجل في كتابه قوله تعالى:﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، آية : ٤٠).

ولما سمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أُطُم[٢]، من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مُبيضين[٣] يزول بهم السراب[٤]، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم[٥] الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين[٦]، من شهر ربيع الأول[٧]، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ـ ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يُحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة[٨]، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته[٩].

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٩٢٢.
[٢] أُطُم: بضم أوله وثانيه الحصن.
[٣] مُبيضين: عليهم ثياب بيض.
[٤] السراب: أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له.
[٥] جدكم: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه.
[٦] هذا هو المعتمد وشذ من قال: يوم الجمعة الفتح، رقم: ٣٩٠٦.
[٧] الهجرة في القرآن الكريم، لأحزمي سمعون، ص: ٣٥١.
[٨] المصدر نفسه، ص: ٣٥٢.
[٩] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٩٠٦.

وبعد أن قام رسول الله صلى الله عليه وسلم المدة التي مكثها بقُباء، وأراد أن يدخل المدينة بعث إلى الأنصار فجاؤوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مطاعين فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وحفُّوا دونهما السلاح.

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، قيل في المدينة: جاء نبيُ الله فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله[1].

فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقاً يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة، إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة "المدينة" ومنها إلى سائر بقاع الأرض. لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضل الذي حياهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطناً للنظام الإسلامي العام، والتفصيلي بكل مقوماته، لذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج، ويقولون يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله[2].

روى الإمام مسلم بسنده قال: عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق، ينادون: يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله[3]، وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم الذي لم ير مثله في تاريخ الإنسانية، سار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فعن أنس رضي الله عنه في حديث الهجرة الطويل: فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله[4]، إذ سمع به عبد الله بن سلام، وهو في نخل لأهله يخترف[5] لهم فعجّل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه فسمع من نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى أهله، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: **«أي بيوت أهلنا[6] أقرب؟»** فقال أبو

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٩١١.
[2] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٣٥٣.
[3] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٣٠١٤.
[4] فتح الباري (٧/ ٢٥١).
[5] يخترف: يجتني من ثمارها.
[6] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٣٥٤.

أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي قال: «**فأنطلق فهيء لنا مقيلاً**»[1]، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه وبهذا قد تمت هجرته صلى الله عليه وسلم، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم، ولم تنته الهجرة بأهدافها وغاياتها بل بدأت بعد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم للوصول للمستقبل الباهر للأمة، والدولة الإسلامية، التي استطاعت أن تصنع حضارة إنسانية رائعة، على أسس من الإيمان والتقوى والإحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم[2].

ومن الفوائد والدروس والعبر:

ـ الصراع بين الحق والباطل صراع قديم وممتد:

وهو سنة إلهية نافذة، قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِّ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج، آية : ٤٠).

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ـ مكر الأعداء بالمصلحين مستمر متكرر:

سواء عن طريق الحبس أو القتل أو النفي والإخراج من الأرض، وعلى المصلح أن يلجأ إلى ربه، وأن يثق به ويتوكل عليه، ويعلم: أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، قال عز وجل : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال، آية : ٣٠).

[1] أخرجه البخاري، حديث رقم: ٣٩١١. مقيلاً: مكان تقع فيه القيلولة.
[2] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٣٥٥.

ـ دقة التخطيط والأخذ بالأسباب:

إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأن التخطيط جزء من السنة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم، وأن الذين يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة، أمثال هؤلاء مخطؤون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين[١].

*ـ وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة، كان مدروساً دراسة وافية، فمثلاً:

ـ جاء صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر، في وقت شدة الحر ـ الوقت الذي لا يخرج فيه أحد ـ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ـ إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم في أثناء مجيئه للصديق، وجاء إلى بيت الصديق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم[٢].

ـ أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة، دون تحديد الاتجاه.

ـ كان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر.

ـ بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة في ذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان الخبير مشركاً، مادام على خلق ورزانة وفيه دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[٣].

*ـ انتفاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل من هؤلاء الأفراد، وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

---

[١] الأساس في السنة، سعيد حوى (١/ ٣٥٧).
[٢] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٨٥).
[٣] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٣٦١.

*ـ وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به، على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

*ـ فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم وصرفتهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى خرج في جنح الليل، تحرسه عناية الله وهم نائمون، وقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة، بمضجع الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائماً مسجى في بردته، في حين أن النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

*ـ وقد كان عمل أبطال هذه الرحالة على نحو التالي:

ـ علي رضي الله عنه: ينام في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم، ليخدع القوم ويسلم الودائع ويلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

ـ عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصادق وكاشف تحركات العدو.

ـ أسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنون المشركين، بحثاً عن محمد صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

ـ عامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللبن واللحم إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كي لا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد، والتموين، والتعمية.

ـ عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول صلى الله عليه وسلم، ليأخذ الرد طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير الأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط الظروف بأسلوب حكيم، ووضع كل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة واختصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعقولة أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته، ومن ثم باتت عناية الله متوقعة[1].

ـ الأخذ بالأسباب أمر ضروري:

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمراً ضرورياً وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعدّ كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل، ولكنه في الوقت نفسه مع الله يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح وهنا يستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض، ويكلل العمل بالنجاح[2].

ـ دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة، كان لها فضل كبير ونصيب وافر من الجهاد، منها: عائشة بنت أبي بكر الصديق التي حفظت لنا القصة ووعتها، وبلغتها للأمة، وأسماء ذات النطاقين، التي أسهمت في تموين الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار، بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي.

قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة طرح منها قُرطي، قالت: ثم انصرفوا[3]، فهذا درس من أسماء رضي الله عنها، تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم، وأما درسها الثاني البليغ فعندما دخل عليها جدُّها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه،

---

[1] أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد، ص: ٣٩٣ ـ ٣٩٧.
[2] من معين السيرة، ص: ١٤٨.
[3] تاريخ الطبري (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا، فقد أحسن. وفي هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك[1].

ولقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء، وبنات المسلمين مثلاً هُنّ في أمس الحاجة إلى الاقتداء به والنسج على منواله.

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة، لا تشكو ضيقاً ولا تظهر حاجة حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بركة المكناة بأم أيمن وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان[2].

ـ أمانات المشركين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم:

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله دليل باهر على تناقضهم العجيب، الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر، أو مجنون أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكانوا لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم(٣) وصدق الله العظيم، إذ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِّ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام، آية : ٣٣).

وفي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لعليّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة، برغم هذه الظروف الشديدة التي كان المفترض أن يكتنفها الاضطراب بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، برغم ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٢) إسناد صحيح.
[2] الهجرة النبوية المباركة، ص: ١٢٨.
[3] فقه السيرة، د.محمد سعيد البوطي، ص: ١٩٣.

لينسى، أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تُنسي الإنسان نفسه، فضلاً عن غيره[١].

ـ وضوح سنة التدرج:

حيث نلاحظ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تقابل مع طلائع الأنصار ـ في لقائه الأول ـ لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلما جاؤوا في العام التالي، بايعهم بيعة النساء على العبادات والأخلاق والفضائل، فلما جاءوا في العام الذي يليه، كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنصر والإيواء[٢]، وجدير الملاحظة: أن بيعة الحرب لم تتم إلا بعد عامين كاملين، أي تأهيل وإعداد استمر عامين كاملين، وهكذا تم الأمر على تدرج ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم[٣].

إنه المنهج الذي هدى الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى التزامه، ففي البيعة الأولى، بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام عقيدة ومنهاجاً وتربية، وفي البيعة الثانية، بايعه الأنصار على حماية الدعوة، واحتضان المجتمع الإسلامي الذي نضجت ثماره، واشتدت قواعده قوة وصلابة.

إن هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التربوي للدعوة الإسلامية، وإن الأمر الأول هو المضمون، والأمر الثاني ـ وهو بيعة الحرب ـ هو السياج الذي يحمي ذلك المضمون، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين في إعلان القوم الإسلام، إذ تم إعدادهم حتى غدوا موضع ثقة وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ: أن بيعة الحرب لم يسبق أن تمت قبل ذلك اليوم مع أي مسلم، إنما حصلت عندما وجدت الدعوة في هؤلاء الأنصار، وفي الأرض التي يقيمون فيها المعقل الملائم، الذي ينطلق منه المحاربون لأن مكة لوضعها عندئذ لم تكن تصلح للحرب[٤].

---

[١] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٣٦٤.
[٢] الهجرة النبوية المباركة، ص: ٢٠٢.
[٣] بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق، ص: ١١٩.
[٤] بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق، ص: ١١٩.

وقد اقتضت رحمة الله بعباده: ألاّ يحمّلهم واجب القتال إلاّ أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنورة أول دار إسلام[١].

---

[١] فقه السيرة للبوطي، ص: ١٧٢.

ثانياً: دعائم دولة الإسلام في المدينة

شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة، على قواعد متينة وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة، الاهتمام ببناء دعائم الأمة، كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في شؤون الحياة كافة، فقد استمر البناء التربوي التعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار، ويشرّع الأحكام لتربية الأمة ودعم مقومات الدولة وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية، تتطور مع مراحل الدعوة وبناء المجتمع، وتأسيس الدولة، وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزمة الاقتصادية بالمدينة واستمر البناء التربوي، ففرض الصيام، وفرضت الزكاة، وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة قوية.

١ـ بناء المسجد:

كان أول ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، التي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصلوات، التي تربط المرء برب العالمين وتنقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة[١]، وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمل مع أصحابه، وضرب أول معول في حفر الأساس الذي كان عمقه ثلاثة أذرع، ثم اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة والجدران ـ التي لم تزد عن قامة الرجل إلا قليلاً ـ باللبن الذي

---

[١] فقه السيرة للغزالي، ص: ١٩١، فقه السيرة للبوطي، ص: ١٥١.

يعجن بالتراب، ويسوى على أشكال أحجار صالحة للبناء[1]، وفي الناحية الشمالية منه أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل كانت تسمى الصفة أما باقي أجزاء المسجد، فقد تركت مكشوفة بلا غطاء[2]، وأما أبواب المسجد فكانت ثلاثة: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبية، وباب في الجهة الشرقية، كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية يقال له: باب الرحمة، أو باب عاتكة[3].

وبني لرسول الله صلى الله عليه وسلم حُجَرٌ حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوت من ترَفّع عن الدنيا وزخارفها، وابتغى الدارة الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد وكانت صغيرة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارغ بيده، قال الحسن البصري ـ وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة ـ: قد كنت أنال أول سقف في حُجَر النبي صلى الله عليه وسلم بيدي[4].

وهكذا كانت بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في غاية البساطة بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية، التي كان يتخذها علية القوم تباهياً بها في السّلم، واتّقاء بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أبَّي ابن سلول اسمه مزاحم، وكما كان حصن حسان بن ثابت رضي الله عنهما اسمه فارع، إن النبي صلى الله عليه وسلم بنى بيوته بذلك الشكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقة، لو أنه أشار إلى رغبته بذلك مجرد إشارة، لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك، ليضرب لأمته مثلاً رفيعاً وقدوة عالية في التواضع والزهد في الدنيا، وجمع الهمة والعزيمة للعمل لما بعد الموت[5]، ومن أهم الفوائد والدروس من بناء المسجد:

أ ـ المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٤١٦).
[2] محمد رسول الله، لمحمد رضا، ص: ١٤٣.
[3] التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، علي معطي، ص: ١٥٧.
[4] السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٦).
[5] التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٣).

إن إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه[1].

ـ قال تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة، آية : ١٠٨).

ـ وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ* لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور، آية : ٣٦ ـ ٣٨).

ب ـ المسجد رمز لشمولية الإسلام:

ـ حيث أُنشيء ليكون متعبداً لصلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده، وشكره على نعمه عليهم، يدخله كلُّ مسلم، ويقيم فيه صلاته وعبادته، ولا يضاره أحد مادام حافظاً لقداسته، ومؤدياً حق حرمته[2].

ـ كما أنشيء المسجد ليكون ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، والوافدين عليه طلباً للهداية، ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته[3].

ـ وهو قد أنشيء ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزيلية، التي حثَّ القرآن الكريم على النظر فيها، ليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم، ومعهداً يؤمه طلاب العلم من كل صوب ليتفقهوا في الدين، ويرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل[4].

---

[1] السيرة النبوية (١/ ٤٢٥) للصلابي.
[2] محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد الصادق (٣/ ٣٣).
[3] المصدر نفسه (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).
[4] المصدر نفسه (٣/ ٣٣).

ـ وهو قد أنشىء ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقراً لا تكدره مِنَّة أحد عليه، فينهل من رفده، ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي، لا يصده أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد يتخرج، وبرزت بطولته بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة وكم من داعٍ إلى الله تلقى في ساحته دروس الدعوة إلى الله، فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جذب القلوب شذاها، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية، لتستضيء بأنوارها.

وكم من إعرابي جلف لا يفرق بين الأحمر والأصفر وفد عليه فدخله، ورأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله هالة تحف به، يسمعون منه، وكأن على رؤوسهم الطير فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه واهتدى واستضاء، ثم عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله، ويربيهم بعلمه الذي علم وسلوكه الذي سلك، فآمنوا بدعوته واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التاريخ الإسلامي[1].

ـ وهو قد أنشىء ليكون قلعة الاجتماع إذا استنفروا، تعقد فيه أولوية الجهاد، والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات، للتوجه إلى مواقع الأحداث وفي ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة[2].

ـ وهو قد أنشىء ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه، ليكون مشفىً يستشفى فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله صلى الله عليه وسلم من عيادتهم، والنظر في أحوالهم والاستطباب لهم، ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديراً لفضلهم[3].

ـ وهو قد أنشىء ليكون مركزاً لبريد الإسلام، منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تُتلقى الأنباء السياسية سلماً أو حرباً، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد، ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون[4].

---

[1] المصدر نفسه (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).
[2] محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).
[3] المصدر نفسه (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).
[4] المصدر نفسه (٣/ ٣٥).

ـ وهو قد أنشىء ليكون مرقباً للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المريبة ويراقبها، ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه ويخالطونه في بلده، من شراذم اليهود، وزمر المنافقين، ونفاقات الوثنية، الذين انغمسوا في الشرك، فلم يتركوه ليتجنب المجتمع المسلم عاقبة كيدهم، وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة[1] غدرهم وخيانتهم[2].

ج ـ التربية بالقدوة العلمية:

من الحقائق الثابتة أن النبي صلى الله عليه وسلم شارك أصحابه العمل والبناء، فكان يحمل الحجارة وينقل الطين على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرق بين رئيس ومرؤوس أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير فالكل سواسية أمام الله، لا فرق بين مسلم وآخر إلا بالتقوى، ذلك هو الإسلام عدالة ومساواة في كل شيء، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله، والرسول صلى الله عليه وسلم كغيره من المسلمين، لا يطلب إلا ثواب الله[3]، فقد كانت مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة الأولى بالفأس فقط، بل غاض بعملية البناء كاملة، وقد دُهش المسلمون من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد علته الغيرة، فتقدم أسيد بن حُضير رضي الله عنه ليحمل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أعطينه، فقال: اذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله مني[4]، وقد سمع المسلمون ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه، فازدادوا نشاطاً، واندفاعاً في العمل[5].

إنه مشهد فريد من نوعه، ولا مثيل له في دنيا الناس، وإذا كان الزعماء والحكام قد يقدمونه على المشاركة أحياناً بالعمل، لتكون شاشات التلفزيون جاهزة لنقل أعمالهم، وتملأ الدنيا في الصحف، ووسائل الإعلام كلها، بالحديث عن أخلاقهم وتواضعهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم

---

[1] المغبة من كل شيء: عاقبته وآخره.
[2] محمد رسول الله (٣/ ٣٦).
[3] التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص: ١٥٨.
[4] صور من حياة الرسول، أمين دويدار، ص: ٢٦١.
[5] التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص: ١٥٨.

ينازع الحجر أحد أفراد المسلمين ويبين له أنه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه، وقد تفاعل الصحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء، وأنشدوا هذا البيت:

لئن قعدنا والنبي يعمل

لذاك منا العمل المُضلُّل

إن هذه التربية العملية لا تتم من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمق، وإنما تتم من خلال العمل الحيّ الدّؤوب، والقدرة المصفاة من رب العالمين، والتي ما كان يمكن أن تتم في أجواء مكة، والملاحقة والاضطهاد والمطاردة فيها، إنما تتم في هذا المجتمع الجديد، والدولة التي تُبنى، وكأنما غدا هذا الجمع من الصحابة الكرام كله صوتاً واحداً وقلباً واحداً، فمضى يهتف:

اللهم إنّ العيش عيشُ الآخرة

فانصر الأنصار والمهاجرة

ويهتف بلحن واحد:

لئن قعدنا والنبي يعمل

فذاك منا العمل المُضَلَّل

وكان الهتاف الثالث:

هذي الجمال لا جمالُ خيبر

هذا أبر لربنا وأطهر

فحمل التمر والزبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانة عظيمة في المجتمع المدني، لكنه أصبح لا يذكر أمام حمل الطوب لبناء المسجد النبوي العظيم، فقد أيقنوا بقوله تعالى:" مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِّ بَاقٍ" (النحل، آية : ٩٦).

وأما الهتاف الرابع:

لا يستوي من يعمر المساجدا

يدأب فيها قائماً وقاعداً

ومن يُرى عن الغبار حائداً[1]

د ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد عن طلق بن علي اليمامي الحنفي، قال: بنيت المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يقول: «**قرّبوا اليمامى من الطين، فإنه أحسنكم له مسيساً**»[2]، وأخرج الإمام أحمد عن طلق أيضاً قال: جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يبنون المسجد، وكأنه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة فخلطت الطين، فكأنه أعجبه فقال: «**دعوا الحنفي والطين، فإنه أضبطكم للطين**»، وأخرج ابن حيان عن طلق، قال: فقلت: يا رسول الله أأنقل كما ينقلون؟ قال: «**لا، ولكن أخلط لهم الطين فأنت أعلم به**»[3]، فقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوافد على المدينة، والذي لم يكن من المسلمين الأوائل ووظف خبرته في خلط الطين، وفي قوة العمل، وهو درس للمسلمين في الثناء على الكفاءات والاستفادة منها، وإرشاد نبوي كريم في كيفية التعامل معها، وما أحوجنا إلى هذا الفهم العميق[4].

هـ ـ شعار الدولة المسلمة:

إن أذان الصلاة شعارٌ لأول دولة إسلامية عالمية "الله أكبر، الله أكبر" إنها تعني أن الله أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره، "أشهد أن لا إله إلا الله" أي: لا حاكمية ولا سيادة ولا سلطة، إلا لله رب العالمين "إن الحكم إلا لله" فمعنى لا إله إلا الله لا حاكم ولا آمر ولا مشرع إلا الله "أشهد أن محمداً رسول الله" أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة[5]، ويعني الاعتراف لرسالة الله بالرسالة، والزعامة الدينية والدنيوية والسمع والطاعة له[6].

---

[1] فتح الباري (٧/ ٣١٤)، السيرة لابن هشام (٢/ ١٤٢).
[2] مسند أحمد، مجمع الزوائد (٢/ ٩).
[3] صحيح ابن حبان، الحديث رقم: ١١٢٢.
[4] التربية القيادية (٢/ ٢٥٢).
[5] قراءة سياسية للسيرة النبوية لمحمد قلعجي، ص: ١١٤.
[6] دولة الرسول من التكوين، ص: ٤٣٨.

"حيَّ على الصلاة.. حيَّ على الفلاح" أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء الدولة التي أخلصت وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساس من القيم السامية "قد قامت الصلاة"، وقد اختيرت الصلاة من بين سائر العبادات، لأنها عماد الدين كله، ولأنها بما فيها من الشعائر كالركوع والسجود والقيام أعظم مظهر لمظاهر العبادة بمعناها الواسع، التي تعني الخضوع والتذلل والاستكانة، فهو خضوع ليس بعده خضوع فكل طاعة لله على وجه الخضوع والتذلل عبادة، فهي طاعة العبد لسيده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعة وتذللاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِّ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر، آية : ٦٦).

وهذا الارتباط بين شعار الدولة الرسمي بحاكمية الله، وسيادة الشرع، سقوط الطواغيت، وقوانينهم وأنظمتهم وشرائعهم، بـ "حيَّ على الفلاح.. قد قامت الصلاة" يشير إلى أنه لا قيام للصلاة، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظل دولة تقوم عليها وتقوم بها ولها، فقد كان المسلمون يصلون خفية في شعاب مكة قبل قيام دولتهم، أما وقد قامت تحت سيوف الأنصار، فليجهروا بالأذان والإقامة، وليركعوا ويسجدوا لله رب العالمين.

إن الواقع التاريخي خير شاهد على أن الله لا يُعبد في الأرض حق عبادته، إلا في ظل دولة قوية تحمي رعاياها من أعداء الدين، ثم تتكرر كلمات الأذان: الله أكبر.. الله أكبر للتأكيد على المعاني السابقة[١].

الأمن الاجتماعي في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تهتم الدولة بالمساجد وتعمل على تطويرها من خلال تأسيس وزارة أوقاف وإرشاد مستقلة قادرة على المساهمة الحقيقية والفعالة في التنمية المجتمعية وفق فهم إسلامي يدرك الواقع

---

[١] السيرة النبوية (١/ ٤٣٠) للصلابي.

ويستشرف آفاق المستقبل ويسخّر المؤسسات الوقفية لخدمة المجتمع المدني وصولاً إلى تحقيق الأمن الاجتماعي ومن أهم الأهداف التي تسعى الدولة الحديثة لتحقيقها من خلال وزارة الأوقاف والشؤون الدينية:

ـ تحقيق الملاءمة والانسجام مع مؤسسات المجتمع المدني والجامعات والمراكز البحثية دعماً للعلاقات التكاملية بينهما.

ـ زيادة وعي القضاة والعاملين في مجال الوقف وبناء إدارات وقف وإرشاد قادرة على القيام بدورها وفقاً للمفهوم المدني للوقف.

ـ رفع مستوى الإقبال على تعلم القرآن الكريم قراءة وحفظاً وتفسيراً وترتيلاً وتجويداً وتنمية مهارات القائمين على تحفيظه مما سيؤدي بدوره إلى تخريج أجيال من حفظة القرآن الكريم المهرة، ويعين على ذلك مع الاهتمام بأهل التخصص إعداد المساجد ومراكز التحفيظ إعداداً حضارياً يساهم في تحقيق الهدف.

ـ نشر العقائد والمبادئ والأخلاق والمعلوم بالدين بالضرورة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ الإسلام من خلال دورات وندوات، ووسائل الإعلام وتفعيل دور المساجد حتى تصل إلى كل المواطنين والمواطنات.

ـ التوسع في برامج التنمية المجتمعية ذات الصلة بالعمل النسائي والدعوة إلى التفاعل الإيجابي مع الحضارة المعاصرة مع الحفظ على سمات الهوية الإسلامية، تفعيل المساهمة مع الجمعيات الخيرية وعمل مراكز لها بجانب المساجد بحيث تشع روح المسجد على من حولها.

ـ التأكيد على الوحدة الوطنية ونبذ التفرقة والتعصب والغلو وربط هذا الشعب بأمته وآمالها وطموحاتها.

ـ تطوير أعمال الحج والعمرة بهدف رفع مستوى الخدمة وتنمية قدرات القائمين على أعمال وبرامج المساجد.

ـ جعل المسجد مركزاً للإشعاع الديني والحضاري والتربوي والثقافي والاجتماعي وإعداد إصدار الموسوعات الإسلامية بأساليب عصرية تساعد على التفقه في الدين وتوزيعها على المساجد والنوادي والمواطنين.

ـ تفعيل دور البحوث والدراسات الشرعية في تلبية احتياجات المجتمع.

ـ تطوير آليات بيان الحكم الشرعي في القضايا العامة والخاصة والاهتمام بالمخطوطات الإسلامية، والإنسانية وحفظها بطريقة علمية عصرية نضمن حسن الانتفاع بها.

ـ العمل على إيجاد مكتبات في كل المساجد وأخرى عامة تعزز الدور الفاعل للمكتبات في نشر الثقافة والعلم والمعرفة والفقه وتوثيق الروابط مع كافة المكتبات ومراكز البحوث ذات الصلة داخلياً وخارجياً.

ـ نشر الوعي الإسلامي الصحيح بين المواطنين وتبني منهج الوسطية والحكمة والاعتدال في دعوة الناس إلى دين الله.

ـ التواصل مع جميع شرائح المجتمع، ومؤسسات المجتمع المدني المهتمة بالشأن الإسلامي الداخلي والخارجي والعاملة في ميدان تنمية المجتمع.

٢ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول صلى الله عليه وسلم في برنامجه الإصلاحي والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم والاستمرار في الدعوة إلى التوحيد، والمنهج القرآني، بناء المسجد وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وهي خطوة لا تقلُّ أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد لكي يتلاحم المجتمع المسلم، ويتآلف وتتضح معالم تكوينه الجديد[١].

كان مبدأ التآخي العام بين المسلمين قائماً منذ بداية الدعوة في عهدها المكي ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين، فقال صلى الله عليه وسلم: «**لا**

---

[١] الإدارة الإسلامية، د. مجدلاوي، ص: ٥٢.

تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق الثلاثة أيام»[1].

ـ وقال صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه**[2]، **ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة**[3]، **فرّج الله ـ عز وجل ـ عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة»**[4]، وقد أكد القرآن الكريم الأخوة العامة بين أبناء الأمة في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران، آية : ١٠٣).

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال، آية : ٦٣).

وقد أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه العصبيات، فلا حمية إلا للإسلام، وتسقط به فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم، إلا بمروءته وتقواه، وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثر[5].

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[6].

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٠٦٥.
[2] أي: لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه بل ينصره.
[3] كربة أي: غمة.
[4] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٤٤٢، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٥٨٠.
[5] فقه السيرة للغزالي، ص: ١٩٣، ١٩٤.
[6] المصدر نفسه، ص: ١٩٤.

إن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من السبق السياسي، الذي اتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تأصيل المودة وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار الذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[١].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، آية : ٩).

وممّن تآخوا في الله من المهاجرين والأنصار، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخارجة بن زهير، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، والزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وسعيد بن زيد وأبي بن كعب، ومصعب بن عمير وأبو أيوب، خالد بن الوليد وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان وأبو ذر الغفاري، والمنذر بن عمرو وحاطب بن أبي بلتعة[٢]، وعويم بن ساعدة وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء وبلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي[٣]، ومن أهم الدروس والفوائد والعبر من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

أ ـ آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقدياً يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح[٤].

فقد فهم الصحابة أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله فحققوا ذلك كله في أنفسهم وطبقوه في حياتهم فمحّضوا ولاءهم

---

[١] فصول في السيرة، عبد المنعم السيد، ص: ٢٠٠.
[٢] بلتعة: تبلتع الرجل: إذا تطرّف.
[٣] السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٩ ـ ١١١).
[٤] السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٥٢).

وجعلوه لله ورسوله والمؤمنين وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرائعة التي تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذي منحوه لخالقهم ولدينهم وعقيدتهم وإخوانهم[١].

إن التآخي الذي تمَّ بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقاً بعقيدة تمَّ اللقاء عليها والإيمان بها. فالعقيدة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى هي العمود الفقري للمؤاخاة التي حدثت، لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله، دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه[٢].

ب ـ الحب في الله أساس بنية المجتمع المدني:

إن المؤاخاة على الحب في الله أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، إذا ما وهنت وتآكل كل بنيانها[٣]، ولذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعميق معاني الحب في الله، في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلِّي**»[٤].

كانت توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم تحث الصحابة على معاني الحب والتكافل، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً، فلا يستعلي غني على فقير، ولا حاكم على محكوم، ولا قوي على ضعيف، وكان للحب أثره في المجتمع المدني الجديد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه بيُرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت : ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران آية : ٩٢).

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٤٤٢).
[٢] فقه السيرة، للبوطي، ص: ١٥٦.
[٣] محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣/ ١٢٩).
[٤] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٥٦٦.

قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إن الله يقول ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحبّ أموالي "بيُرحاء"، وإنها صدقة لله، أرجو برّها، وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمّها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[١].

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدثنا عن هذه المعاني الرفيعة، حيث قال: لما قدمنا المدينة، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وأنظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها فإذا حلت[٢] وتزوجتها . قال: فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع[٣].

قال: فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن، قال: ثم تابع الغُدو[٤]، فما لبث أن جاء عبد الرحمن الرحمن عليه أثر صفره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تزوجت؟**» قال: نعم. قال: «**ومن؟**» قال: امرأة من الأنصار. قال: «**كم سُقت؟**» قال: زنة نواة من ذهب أو: نواة من ذهب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «**أولِم ولو بشاة**»[٥].

ونلاحظ: أن كرم سعد بن الربيع قابله عفة وكرم نفس من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، ولم يكن مسلك عبد الرحمن بن عوف خاصاً به، بل إن الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار، ثم باشروا العمل والكسب، واشتروا بيوتاً لأنفسهم، وتكفلوا بنفقة أنفسهم، ومن هؤلاء أبو بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم رضي الله عنهم.

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ١٤٦١، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: ٩٩٨.

[٢] نزلت لك عنها: أي طلقتها لأجلك.

[٣] قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السوق إليهم.

[٤] تابع العدو: أي داوم الذهاب إلى السوق للتجارة.

[٥] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٠٤٨.

ج ـ النصيحة بين المتآخين في الله:

كان للمؤاخاة أثر في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**صدق سلمان**»[١].

د ـ قيم إنسانية ومبادئ مثالية:

من خلال الروابط الوثيقة التي ألفت بين المهاجرين والأنصار، أرست قيم إنسانية واجتماعية، ومبادئ مثالية، لا عهد للمجتمع القبلي بها، وإنما هي شأن المجتمعات المتحضرة الفاضلة، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشريف كوسيلة لكسب الرزق، فلقد قبل المهاجرون في أول الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة، ولكنهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزق لهم، ولا يعوّلوا على رابطة المؤاخاة التي سعد بها الأنصار، فكان منهم من اشتغل بالتجارة، ومنهم من عمل بالزراعة، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالة على إخوانهم، ذلك عزة الإيمان لا ترضي لصاحبها أن يكون عالة على أحد، بل تطلب منه أن يعطي أكثر مما يأخذ، فاليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى، وقد فهم الصحابة الكرام من تعاليم الإسلام أن العمل عبادة، وهي منزلة لم تصل إليها النظم المعاصرة التي قصرت فائدتها على سد حاجات الإنسان المادية والمعنوية، وفي ضوء هذا المفهوم الإسلامي نستطيع أن نقول: إن الإخاء والعمل كانا حجر الزاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتالي في تأسيس

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ١٩٦٨.

الحضارة الإسلامية التي بنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أول دولة في الإسلام، برئاسة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ترعرعت حتى أصبحت شجرة يتفيأ ظلالها العالم كله[١].

٣ـ دستور دولة المدينة:

نظم النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق، والواجبات وقد سُميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة "الدستور" ولقد تعرض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه "السيرة النبوية الصحيحة" لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال:" ترتقي بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة"[٢]، وبيّن أن أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها، فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قلّ استعمالها فيما بعد، حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة، أو تخص أحد بالإطراء، أو الذم، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية، وغير مزورة[٣].

ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة، وأساليب كتب النبي صلى الله عليه وسلم يعطيها توثيقاً آخر.

أ ـ كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار:

نص الوثيقة[٤]:

ـ هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

[١] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٤١١.
[٢] السيرة النبوية للعمري (١/ ٢٧٥).
[٣] تنظيمات الرسول الإدارية لصالح العلي، ص: ٤ ـ ٥.
[٤] مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله، ص: ٤١ ـ ٤٧.

ـ إنهم أمة واحدة من دون الناس.

ـ المهاجرون من قريش على رِبْعتهم[١]، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو عوف على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم[٣] الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو الحارث "بنو الخزرج" على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو ساعدة على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو جُشم على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو النجار على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو عمرو بن عوف على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو النّبيب على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو الأوس على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرحاً[٤] بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

---

[١] الربعة: الحالة التي جاء الإسلام وهم عليها.
[٢] العاني: الأسير.
[٣] معاقلهم: المعاقل: أي الديات والواحدة معقلة.
[٤] مفرحاً: المثقل بالدين والكثير العيال.

ـ وإن المؤمنين المتقين "أيديهم" على "كل" من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[١] ظلم أو إثماً، أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

ـ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

ـ وإن ذمة الله واحدة، يُجبر عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

ـ وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

ـ وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدل بينهم.

ـ وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً.

ـ وإن المؤمنين يُبيء[٢] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

ـ وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجبر مشرك مالا لقريش، ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

ـ وإنه من اعتبط[٣] مؤمناً قتلاً عن بيِّنة، فإنه قَوَد[٤] به، إلا أن يرضى ولي المقتول ـ "العقل" وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

ـ وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحدثاً[٥]، أو يؤويه وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

ـ وإنه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإن مرده إلى الله، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

ـ وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم، فإنه لا يُوتغ[٦] إلا نفسه، وأهل بيته.

---

[١] دسيعة: عظيمة.
[٢] يُبيء: من البَوَاء وهو المساواة.
[٣] أي: قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.
[٤] القود: القصاص.
[٥] من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه.
[٦] يوتغ: يهلك الهلاك، والمعنى: فسد وهلك وأثم.

ـ وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

ـ وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

ـ وإن ليهود بني جُشم مثل ما ليهود بني عوف.

ـ وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

ـ وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

ـ وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

ـ وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم.

ـ وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

ـ وإن بطانة يهود كأنفسهم، بطانة الرجل: أي خاصته، وأهل بيته.

ـ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم.

ـ وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

ـ وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

ـ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

ـ وإن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم.

ـ وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرّده إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، أي : إن الله وحزبه المؤمنين على الرّضا به.

ـ وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين وعلى كل أناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم.

ـ وإن يهود الأوس ـ مواليهم وأنفسهم ـ على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وإن البرّ دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرَّه.

ـ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن برّ وأتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

واضح من هذه الصحيفة المباركة التي قاربت الخمسين نصاً أنها أسست عدداً من المبادئ السياسية الهامة التي شكلت بمجموعها الدستور السياسي للمدينة الذي حدد حقوق وواجبات أعضاء المجتمع السياسي الجديد، مسلمين وغير مسلمين، وصاغ البنية السياسية للنظام الناشىء من جهة ولأمة الإسلام فيما بعد من جهة أخرى ولقد تناول العديد من الباحثين هذه المبادئ السياسية بالدراسة ونستطيع أن نجمل أهمها فيما يلي:

ب ـ تحديد مفهوم الأمة:

تضمّن دستور المدينة مبادئ عامة، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها، وفي طليعة هذه المبادئ، تحديد مفهوم الأمة، فالأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعهم، مهاجرين وأنصارهم، ومن تبعهم ممن لحق بهم، وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس[٢]، وهذا شيء جديد كل الجدة في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، إذ نقل الرسول صلى الله عليه وسلم قومه من شعار القبلية والتبعية لها إلى شعار الأمة التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم: إنهم أمة واحدة.

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء، آية:٩٢)

---

[١] مجموعة الوثائق السياسية، ص: ٤١ ـ ٤٧.
[٢] التاريخ السياسي والعسكري، د.علي معطي، ص: ١٦٩.

ـ وبيَّن سبحانه وسطية هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة، آية: ١٤٣).

ـ ووضح سبحانه وتعالى أنها أمة إيجابية، فهي لا تقف موقف المتفرج من قضايا عصرها، بل تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الفضائل وتحذر من الرذائل[١].

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران، آية : ١١٠).

كما أن مفهوم الأمة مفتوح وغير مغلق على فئة دون فئة، بل هي ممتدة لتشمل الإنسانية كلها إذا ما استجابت لدين الله تعالى، الذي ارتضاه لخلقه ولبني آدم أينما كانوا[٢].

ج ـ مفهوم المواطنة:

إعتبرت الصحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدولة الإسلامية، الذين يعيشون في أرجائها مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس ـ بمقتضى أحكام الصحيفة ـ سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[٣].

د ـ إقليم الدولة:

وجاء في الصحيفة: إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأصل التحريم ألا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير، فما بالك في الأموال

---

[١] دستور الأمة، عبد الناصر العطار، ص: ٩.
[٢] دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: ٤٢١.
[٣] نظام الحكم لظافر القاسمي (١/ ٣٧).

والأنفس[1]؟ فهذه الصحيفة حدَّدت معالم الدولة أمة واحدة، وإقليم هو المدينة، وسلطة حاكمة يرجع إليها وتحكم بما أنزل الله.

إن المدينة كانت بداية إقليم الدولة الإسلامية، ونقطة الانطلاق، ومركز الدائرة التي كان الإقليم يتسع منها، حتى يضع حداً للقلاقل والاضطرابات، ويسود السلم والأمن العام، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليثبتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات وحدود المدينة بين لابتيها شرقاً وغرباً، وبين جبل ثور في الشمال، وجبل عير في الجنوب[2].

ثم اتسع "الإقليم" باتساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، حتى عمّ مساحة واسعة من غرب أوروبا وجنوبها، ومناطق فسيحة من غرب آسيا وجنوبها إلى أكثر أهل الصين وروسيا شرقاً، وكل شمال إفريقيا وأواسطها[3].

إن إقليم الدولة مفتوح وغير محدود بحدود جغرافية أو سياسية، فهو يبدأ من عاصمة الدولة "المدينة" ويتسع حتى يشمل الكرة الأرضية بأسرها.

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف، آية : ١٢٨).

هـ ـ الحريات وحقوق الإنسان:

إن الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم في صياغة موادها، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض، فقد كانت موادُّها مترابطة وشاملة، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم

[1] المصدر نفسه (١/ ٣٨).
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٧٥٥.
[3] دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: ٤١١.

بالحقوق والحريات بأنواعها[1]، يقول الدكتور محمد سليم العوّا: ولا تزال المبادئ التي تضمنها الدستور ـ في جملتها ـ معمولاً بها، والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى اليوم.. وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها، في أول وثيقة سياسية دوّنها الرسول صلى الله عليه وسلم[2].

فقد أعلنت الصحيفة أن الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعباد، وحق الأمن ..إلخ، فحرية الدين مكفولة للمسلمين دينهم ولليهود، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، آية : ٢٥٦).

وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ، أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين الناس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس وتفسح المجال وتيسير السبل أمام كل إنسان ـ يطلب حقه ـ أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهداً أو مالاً[3]، وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل التي من شأنها أن تعوق صاحب الحق في الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس، دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء، أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ معقباً على قوله تعالى : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا

---

[1] دولة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص: ٤٢٠.
[2] النظام السياسي في الإسلام لأبي فارس، ص: ٦٥.
[3] المصدر نفسه، ص: ٥٨.

وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى، آية : ١٥).

يعني أني مأمور بالإنصاف دون عداوة، فليس من شأني أن أتعصب لأحد أو ضد أحد، وعلاقتي بالناس كلهم سواء، وهي علاقة العدل والإنصاف، فأنا نصير من كان الحق في جانبه، وخصيم من كان الحق ضده، وليس في ديني أي امتيازات، لأي فرد كائناً من كان، وليس لأقاربي حقوق، وللغرباء حقوق أخرى، ولا للأكابر عندي مميزات لا يحصل عليها الأصاغر والشرفاء والوضعاء، عندي سواء فالحق حق للجميع والذنب والجرم ذنب للجميع، والحرام حرام على الكل، والحلال حلال للكل، والفرض فرض على الكل، حتى أنا نفسي لست مستثنى من سلطة القانون الإلهي[١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء، آية : ١٣٥).

وهذا نص قرآني صريح في تكليف المجتمع القيادي المسلم بتحقيق العدل على أتم صورة، وأكمل أحواله، فالعدل على النفس، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس، وأبعد البُعدَاء، وفي قوله تعالى: ﴿كُونُواْ﴾ أمر للمجتمع المسلم، في جميع أفراده، وجماعاته، أينما حلوا من أرض الله، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة أو المتباعدة، وهو أمر كينونة يشعر بمادته بالإلزام والالتزام، والتهيّوء والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله تعالى ﴿ قَوَّامِينَ﴾ بصيغة المبالغة، إيماء إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكل ما أوتي من قوة مادية وروحية، مشمًّرا على ساق العزم في بذل الجهد، والتحفز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعي.

---

[١] الحكومة الإسلامية، ص: ٢٠٢.

والقرآن الكريم بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم أن يحمله تعزز الغني بثرائه وغناه على ألا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرحمة للفقير، فيحابى بظلم الغني لأجله، ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم أن يميل مع الهوى، ويخضع للعواطف، فيحيد عن العدل لياً بالحق، وإعراضاً عنه، وقد جاءت أخت هذه في نسق أسلوبها وألفاظها، لتكمل صورة إقامة العدل على أتم وجوهه، ولتقرر أن موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحب والمبغض، والقريب والبعيد، والصديق والعدو.

ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة، آية : ٨).

فصورة الخطاب الكينوني هنا ﴿كُونُواْ﴾ ـ الذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم، الذي نيط به قيادة الإنسانية ـ هي صورته هناك، لأن العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى التي حملوها، ليؤدّوها إلى الناس في حياتهم[١].

بيد أن الأمر قد اختلف في الآيتين اختلافاً جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصلاً من أصول الرسالة الخالدة الخاتمة، الذي يعمّ الحياة من جميع جوانبها، ففي الآية الأولى وجّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ ألى أن يكون قوَّاما بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمة منازع الحبّ والودّ والقربى، وفي هذه الآية الثانية وجّه الآمر للمجتمع بعنوانه المشرق، إلى أن يكون قوَّاما بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمة جميع عواطف البعض والعداوة[٢]، وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهَّاضا بالعدل، قائماً به بين الناس، له قيادته للإنسانية، وليخلص له التوجه

[١] محمد رسول الله (٣/ ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤).
[٢] محمد رسول الله (٣/ ١٤٤، ١٤٥).

إلى الله تعالى في إخلاص العبودية له وحده، لا تحمله محبة مهما عظمت، أو بغض مهما اشتد على الإعراض عن إقامة العدل، إحقاقاً للحق، وإنصافاً للمظلوم، ونصراً للضعيف[1].

وأما المساواة، فقد جاءت نصوص صريحة في الصحيفة حولها، منها: أن ذمة واحدة، وأن المسلمين ﴿يجير عليهم أدناهم﴾، وأن ﴿المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس﴾، ومعنى الفقرة الأخيرة: أنهم يتناصرون في السراء والضرّاء "الفقرة ١٥" وتضمنت الفقرة "١٩" أن: ﴿المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله﴾، قال السُهيلي ـ شارح السيرة ـ في كتابه "الروض الأنف" ومعنى قوله يبيء: هو من البَوَاء أي المساواة[2]، ويعد مبدأ المساواة أحد المبادئ العامة التي أقرّها الإسلام، وهو من المبادئ التي تساهم في بناء المجتمع المسلم ولقد أقرّ هذا المبدأ، وسبق به تشريعات، وقوانين العصر الحديث ومما ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، آية : ١٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى أبلّغت**»[3]؟

إن هذا المبدأ كان من أهم المبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب قديماً نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوة للمسلمين الأولين[4].

وليس المقصود بالمساواة هنا "**المساواة العامة**" بين الناس جميعاً في أمور الحياة كافة، كما ينادي بعض المخدوعين، ويرون ذلك عدلاً[5]، فالاختلاف في المواهب والقدرات والتفاوت في

---

[1] محمد رسول الله (٣/ ١٤٥).
[2] نظام الحكم للقاسمي (١/ ٣٨).
[3] مسند أحمد (٥/ ٤١١).
[4] مبادئ نظام الحكم في الإسلام، عبد الحميد متولي، ص: ٣٨٥.
[5] الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني (١/ ٦٢٤).

الدرجات غاية من غايات الخلق[١]، ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، مساواة مقيدة بأحوال فيها التساوي وليست مطلقة في جميع الأحوال[٢]، فالمساواة تأتي في معاملة الناس أمام الشرع، والقضاء والأحكام الإسلامية كافة، والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس أو اللون أو الثروة أو الجاه أو غير ذلك[٣]، إن الناس جميعاً في نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس واللون أو النسب أو الطبقة، والحكام والمحكومين كلهم في نظر الشرع سواء، ولذلك كانت الدولة الإسلامية الأولى، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين الناس وكانت تراعي الآتي:

ـ إن مبدأ المساواة أمر تعبدي، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

ـ إسقاط الاعتبارات الطبقية والعرفية والقبلية والعنصرية والقومية والوطنية والإقليمية وغير ذلك من الشعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانية، وإحلال المعيار الإلهي بدلاً عنها للتفاضل، ألا وهو التقوى.

ـ ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، ولا يُراعى أحد لجاهه أو سلطانه أو حسبه ونسبه، وإنما الفرص للجميع، وكل على حسب قدراته وكفاءاته ومواهبه وطاقته وإنتاجه.

إن تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدولة الإسلامية، يقوي صفها، ويوحد كلمتها، وينتج عنه مجتمع متماسك متراحم يعيش لعقيدة ومنهج ومبدأ[٤].

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمّ ما قد تحتاجه الدولة من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وظل القرآن يتنزل في المدينة عشر سنين، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادئ الحكم، وأصول السياسة، وشؤون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال، وأسس التقاضي وقواعد العدل، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج، والسنة الشريفة تدعم هذا، وتشيده وتفصّله في تنوير وتبصرة، فالوثيقة خطّت خطوطاً عريضة في

---

[١] فلسفة التربية الإسلامية لماجد الكيلاني، ص: ١٧٩.
[٢] مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين، ص: ١١٦.
[٣] فقه النصر والتمكين، د. علي الصلابي، ص: ٤٦٣.
[٤] فقه النصر والتمكين، ص: ٤٦٦.

الترتيبات الدستورية، وتعد في قيمة المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بالأجانب الكفار المقيمين معهم، في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة، على التخصيص إذا لوحظ أنها أول وثيقة إسلامية تسجل وتنفذ في أقوام كانوا ـ منذ قريب ـ وقبل الإسلام ـ أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة والتسلط، وبالتخوض في حقوق الآخرين وأشيائهم[١].

و ـ المرجعية العليا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم:

جعلت الصحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد نصّت على مرجع ففي الخلاف في الفقرة "٢٣" وقد جاء فيها: وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم، والمغزى من ذلك واضح، وهو تأكيد سلطة عليا دينية تهيمن على المدينة، وتفصل في الخلافات، منعاً لقيام اضطرابات في الداخل من جراء تعدد السلطات وفي الوقت نفسه تأكيد ضمني برئاسة الرسول على الدولة[٢]، فقد حدّدت الصحيفة مصدر السلطات الثلاثة: التشريعية والقضائية والتنفيذية، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على تنفيذ أوامر الله، من خلال دولته الجديدة، لأن تحقيق الحاكمية لله على الأمة هو محض العبودية لله تعالى، لأنه بذلك يتحقق التوحيد، ويقوم الدين، قال تعالى:﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، آية : ٤٠).

يعني: ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبية والعقائد والعبادات والمعاملات، إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة[٣].

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى.

---

[١] صور وعبر من الجهاد النبوي، د. محمد فوزي، ص: ٢٩ ـ ٣٠.
[٢] التاريخ السياسي والحضاري للسيد عبد العزيز، ص: ١٠٢.
[٣] تفسير المنار، محمد رشيد رضا (١٢/ ٣٠٩).

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر، آية : ٢ ـ ٣).

ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء، آية : ١٠٥).

فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب، فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله، وكما أن العبادة لا تكون إلا عن وحي منزل، فكذلك لا ينبغي أن يحكم إلا بشرع منزل، أو بما له أصل في شرع منزل[١].

إن تحقيق الحاكمية تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، آية : ٥٦).

وقد اعترف اليهود في هذه الصحيفة بوجود سلطة قضائية عليا، يرجع إليها سكان المدينة ـ بما فيهم اليهود ـ بموجب بند رقم "٤٣"، لكن اليهود لم يُلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائماً، بل فقط عندما يكون الحدث، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية، فهم يحتكمون إلى التوراة، ويقضي بينهم أحبارهم، ولكن إذا شاؤوا، فبوسعهم الاحتكام إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد خير القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم بين قبول الحكم فيهم، أو ردهم إلى أحبارهم، قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة ، آية ، ٤٢).

[١] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٣٣) عبد العزيز مصطفى.

ومـن القضـايا التـي أراد اليهـود تحكيم الرسول صلى الله عليـه وسلم فيها اختلاف بني النضير، وبني قريظة في دية القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تعرضهم عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما ظهر الإسلام في المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف، وطالبت بالمساواة في الدِّية[1]. فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْس وَالْعَيْنَ بِالْعَيْن وَالأنفَ بِالأنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة ، آية : ٤٥). وبهذه الصحيفة التي أقرت المـادة ((٤٣)) على: أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم سلطة قضائية مركزية عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولها قوة تنفيذية، لأن أوامر الله واجبة الطاعة، وملزمة التنفيذ، كما أن أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم هي من الله، وطاعتها واجبة[2].

وبذلك أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيس الدولة وفي الوقت نفسه رئيس السلطة القضائية والتنفيذية والتشريعية، فقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلطات الثلاث، بصفته الرسول الحاكم، ورئيس الدولة، فقد تولى رئاسة الدولة وفق نصوص الصحيفة، وباتفاق الطوائف المختلفة الموجودة في المدينة، ممن شملتهم نصوص الصحيفة[3].

- **الحقوق والحريات العامة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:**

فالدولة يمكن أن تطور دستورها ممّا يُلبي احتياجات الشعوب، من الحفاظ على الحريات العامة ومراعاة المواثيق والمعاهدات الدولية للحقوق والحريات وأحكام الشريعة الإسلامية والقيم والعادات والتقاليد الأصيلة، وأن دعمها وحمايتها ضرورة أساسية لممارسة ودعم

[1] السيرة النبوية الصحيحة (١ / ٢٩١).
[2] دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: ٤١٨.
[3] السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٦١).

وحماية الشورى ومن الحقوق والحريات العامة التي يجب أن ينص عليها دستور الدولة الحديثة.

ـ لكل مواطن الحق في ممارسة الحياة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، والدينية، وحريته الشخصية، وملكيته الخاصة مصانتان مصونة. وحياته الخاصة حرم آمن، وحقه في اللجوء إلى قاضيه الطبيعي مكفول، وله أن يصدع شكواه بشتى الطرق في حدود القانون دونما قيد أو شرط ولا مصادرة، أو تأميم أو فرض ضريبة إلا بقانون.

ـ كل المواطنين سواسية أمام القانون، وفي تقليد الوظائف العامة والمناصب الرسمية وتكافؤ الفرص ضرورة والعمل حق وواجب وجنسية الدولة لا تمنح أو تسقط أو تسحب إلا وفقاً لأحكام القانون.

ـ التعليم حق لكل مواطن، وعلى الدولة أن تكفله مجاناً في جميع مراحله بالمؤسسات التعليمية الحكومية ويجب عليها القضاء على الأمية كما ترعى وتدعم الدولة المؤسسات العلمية والبحثية، وتصون الحق في الملكية الفكرية والبحث العلمي.

ـ الحرية المسؤولة للصحافة والطباعة والنشر والإعلام بكافة وسائله، فلا رقابة عليها ولا تقييد لها، والحق في الحصول على المعلومات مكفولة، وحرية الرأي والفكر والتعبير والتجمع والتظاهر والاجتماع والإضراب مصانة.

ـ الرعاية الصحية والضمان الاجتماعي لكل مواطن، وحرمة جسده مصانة فلا يجوز بحال تعذيبه أو امتهانه، أو احتقاره أو ازدرائه أو المساس به مادياً ومعنوياً.

ـ مؤسسات المجتمع المدني ركيزة مهمة من ركائز العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي وعلى الدولة العمل على حرية إنشائها والانضمام إليها ودعمها واستقلاليتها والأخذ بناصيتها بحسبانها اليد الطولى للمشاركة السياسية وذلك سواء كانت اتحادات أم نقابات أو جمعيات أو أندية أو روابط.

ـ لمصابي الحروب أو بسببها، ولزوجات وأبناء الشهداء الأولوية في فرص العمل ولذوي الاحتياجات الخاصة نصيباً مفروضاً في كل تعيينات الدولة.

والدولة الحديثة تؤمن بأن السياسة ليست غاية في ذاتها بل هي إطار وآلية من خلالها تتفاعل إرادة أفراد الشعب لتحقيق طموحاتهم في الحرية والتنمية والعدالة والشورى، وأن المواطن هو الفاعل الحقيقي والمستهدف من سياسة الدولة، وأن الدولة في سياستها تنطلق من المبادئ والأسس التالية.

ـ تؤكد على مبدأ سيادة القانون.

ـ إن السلطة للشعب وحده، وهو مصدر السلطات، وتؤمن بمبدأ الفصل بين السلطات الثلاثة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتوازنها وتعاونها، وتؤمن بأن الشورى الحقيقية لا تتأتى إلا بتفعيل هذا المبدأ وتدعو إلى ضرورة تحقيق ذلك من خلال الرقابة على دستورية القوانين والتأكد من التزام السلطة التشريعية بما ورد في الدستور والحد من تفويض السلطة التشريعية صلاحياتها للسلطة التنفيذية، وخاصة فيما يتعلق منها بالحقوق والحريات وضرورة إخضاع أعمال السلطة التنفيذية للرقابتين البرلمانية والقضائية.

ـ والدولة الحديثة هي دولة لجميع مواطنيها وتحترم كل إنسان يعيش فوق أراضيها.

ـ وتؤمن بالتعددية السياسية والفكرية والحق في التداول السلمي للسلطة، عبر انتخابات نزيهة حرة يشارك فيها المواطنون في الداخل والخارج على حد سواء.

ـ تؤمن أن العملية السياسية الشورية أساسها في القانون وتعمل على تطوير كل التشريعات لتكون الشورى هي روح القوانين.

ـ تنادي بإطلاق حرية تشكيل الأحزاب السياسية، على أن يكون تأسيسها بمجرد الأخطار، وتحت رقابة القضاء الطبيعي وحده وأن يكون الحزب مفتوحاً لعضوية جميع المواطنين بلا تمييز بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو الجهة أو القبيلة، وأن يلتزم الحزب بقواعد العمل الشوري في إطار دستور مدني.

ـ تؤمن بأن المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات متكافئون في الفرص وفي حق تولي الوظائف العامة.

ـ تؤيد التوسع في مفهوم تولي المناصب العامة بالانتخاب وبخاصة المناصب ذات العلاقة المباشرة بالشعب، مثل عمداء الكليات والبلديات ومدراء الأمن.

ـ تدعم تعزيز مفهوم اللامركزية الإدارية وأهمية وجود جيل من متخذي القرار في المجالس المحلية على كافة الصعد الأمنية والتنموية والاستثمارية.

ـ تؤيد مبدأ نسبية التمثيل في الانتخابات العامة المحلية حيث يضمن ذلك المبدأ التعبير الحقيقي والواقعي والفاعل عن أكبر عدد من التيارات السياسية والفكرية والاجتماعية كما يضمن تعبيراً أمثل عن حقوق الأقليات والنساء، ويراعي التعداد السكاني والتباين الجهوي، ويحترم اختلاف الأصول والأعراق والهويات.

ـ تسعى لتحقيق حكم محلي شوري حقيقي يقوم على انتخاب المجالس المحلية وما في حكمها، وإعطاء المحليات صلاحيات فعلية في التقرير والتفيذ وتدبير موارد مالية محلية، وتكون بتلك المحليات مسؤولة أمام ناخبيها وليس أمام الحكومة ولأعضاء هذه المجالس حق سحب الثقة من رؤسائها.

ـ تؤمن بأن الاعتبارات المفوضية ينبغي أن تكون المعيار الحاكم في شغل الوظائف الحكومية وغير الحكومية على حد سواء.

ـ تلك الاعتبارات يجب أن تبنى على أسس من الكفاءة والمهنية والتفاني والإيمان الصادق بالتعبير عن مصالح الوطن وذلك بمعزل عن الاعتبارت الشخصية أو الأهواء الفردية.

ـ ومن ثم فلا وجه لتوزيع وظائف الدولة على أساس قبلي أو جهوي أو طائفي أو عشائري أو مذهبي أو على خلفية من مخاصصة، أو إرضاء لحزب أو فكر أو تيار بعينه.

ـ ترى أن خير دور للجيش هو الحفاظ على إقليم الدولة والدفاع عنه، ولا تقبل له بأي تدخل في مفاصل العمل المدني بشتى أشكاله السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

ـ تثمن عالياً مهمة الشرطة في الحفاظ على الأمن وحماية الحريات وحقوق الإنسان وذلك من خلال بناء منظومة شرطية أساسها الكفاءة والتميز وفصلها عن المآرب السياسية والحزبية.

ـ ترفض تماماً كافة القوانين والمحاكم الاستثنائية أو الخاصة.

ـ إطلاق حرية العمل الطلابي، والنشاط الجامعي.

ـ توفير ضمانات الانتخابات الحرة النزيهة وذلك من خلال تشكيل لجنة قضائية دائمة تنفرد بإرادة مجمل العملية الانتخابية.

ـ توفير الضمانات اللازمة لإجراء انتخابات حرة ونزيهة للنقابات المهنية والعمالية.

ـ محاربة الفساد بكافة أشكاله، وعلى كافة المستويات.

٤ـ سنة التدافع وحركة السرايا:

إن من السنن التي تعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم، سنة التدافع، وتظهر جلياً في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم ضد المشركين وهذه السنة متعلقة تعلقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة، آية : ٢٥١).

ـ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج، آية : ٤٠).

ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيل الله تعالى الآية بقوله : ﴿وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة، آية : ٢٥١).

مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعمّ الناس كلهم[١].

---

[١] مفاتح الغيب للفخر الرازي (٣/ ٥١٤).

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوّهم، ويختتم الآية بتقرير لقاعدة أساسية ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لقد أدرك الصحابة هذه السنة، وعلموا أن القضاء على الباطل وتدميره، لابد له من أمة لها قيادة ومنهج، وقوة تدمغ الباطل وترهقه، وأيقنوا أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط. لقد علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم كيف يتعاملون مع هذه السنة، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فقد شرع الله ـ عز وجل ـ الجهاد لهذه الأمة وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، وما تركه قوم إلا أذلهم الله، وسلط عليهم عدوهم وقد شرع الله ـ عز وجل ـ الجهاد على مراحل، ليكون أروض للنفس، وأكثر ملاءمة للطبع البشري، وأحسن موافقة لسير الدعوة، وطريقة تخطيطها[1]، فكان تشريع القتال على مراحل:

ـ **المرحلة الأولى:** الحظر، وذلك عندما كان المسلم في مكة وكانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالإذن لهم في القتال فيجيبهم صلى الله عليه وسلم: «**أصبروا فإني لم أومر بقتال**».

ـ **المرحلة الثانية:** الإذن من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج، آية : ٣٩).

ـ **المرحلة الثالثة:** وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة، آية : ١٩٠).

ـ **المرحلة الرابعة:** فرض قتال عموم الكفار على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، آية : ٣٦).

[1] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٤٣٨.

إن هذا التدرج في حكم القتال، كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان آخذاً في التكوين من حيث العدد والعُدة، والتدريب وما إلى ذلك، فكان لابد من مضي فترة من الوقت، يكون التعرض فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم، يكون فيها ذلك التعرض لأعداء الدعوة، إنما هو سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يصلب عود الدولة الإسلامية ويشتد بأسها، بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية، حتى لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد وحينئذ يأتي وجوب القتال، في حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية والجيش الإسلامي، على أهبة الاستعداد، لمواجهة الاحتمالات كافة، هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن أي بالإباحة لا بالوجوب، أما في حالة ما لو تعرض المسلمون ـ وهم في دولتهم في المدينة ـ لهجوم الأعداء عليهم، فالقتال هنا فرض، لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية، التي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر والأسود من الناس، في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية وصاحبها صلى الله عليه وسلم وأتباعها[1].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك، وعدّ السعي في هذه الميادين من أجل القربات، وأقدس العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بتطبيق قول الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال ، آية : ٦٠).

وكان منهجه صلى الله عليه وسلم في تكوين المجاهد المسلم، يعتمد على نهجين متوازيين، التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

[1] القتال والجهاد لمحمد هيكل (١/ ٤٦٣، ٤٦٤).

ـ التوجيه المعنوي:

كان صلى الله عليه وسلم يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين فيمنحهم أملاً يقيناً بالنصر أو الجنة، ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد، ظل هذا الأمل يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال ويدفعه إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية، من أجل كسب المعارك، أو الموت تحت ظلال السيوف[1] فمن أقواله صلى الله عليه وسلم في حث أصحابه على الجهاد: «**والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنّي، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أنيّ أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل**»[2].

ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: «**ما أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة**»[3].

ـ التدريب العملي:

سعى النبي صلى الله عليه وسلم إلى اعتماد كلّ طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء ورجالاً ونساء وصبيانا وشباباً وشيوخاً، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال، طعناً بالرمح وضرباً بالسيف ورمياً بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان صلى الله عليه وسلم يمزج خطيّ التربية العسكرية المتوازيين، التوجيه والتدريب والأمل في النصر أو الجنة، وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى، فهي دعوة إلى عموم الأمة، وحتى من دخلوا في سن الشيخوخة للتدريب على إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة.

إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة جميعها، ويوجهها نحو المعالي، وعلوّ العمة.

---

[1] دراسات في السيرة، ص: ١٦١.
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٧٩٧.
[3] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٨١٧.

وكان صلى الله عليه وسلم يهتم بالأعداء على حسب كلّ طرف وحال، ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ : ألا إن القوة الرميّ ألا إن القوة الرّمي ألا إن القوة الرّمي**»[1].

ولذلك أخلص الصحابة في جهادهم لله تعالى، طمعاً في ثوابه، خوفاً من عقابه، فكان كلامهم لله، وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وقدموا أنفسهم دفاعاً عن دين الله، ومن أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وكان لجهاد الصحابة في سبيل الله تعالى آثاره العظيمة في تزكية نفوسهم، والتي تتجلى في الجوانب التالية وهي: تحرير النفس من حب الحياة والتعلق بها، تمحيص النفس وتدريبها على الصبر والفداء، وعزة النفس، وأما أهداف الجهاد، حماية حرية العقيدة، حماية الشعائر، والعبادات ودفع الفساد عن الأرض والابتلاء والتربية والإصلاح، وإرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم، وتوهين كيدهم وكشف المنافقين، ودفع عدوان الكافرين.

ـ أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال، وصار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والردّ على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة فاتجه نشاطه صلى الله عليه وسلم نحو إرسال السرايا، والخروج في الغزوات[2]، فكانت تلك السرايا والغزوات التي سبقت بدر الكبرى، ومن أهمها: غزوة الأبوَاء، سرية عبيدة بن الحارث، سرية حمزة بن عبد المطلب، وغزوة بواط[3]، وغزوة العشيرة[4]، وسرية سعد بن أبي وقاص.

ـ وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم قبل البدء بحركة السرايا والغزوات بإجراء تعداد سكاني في السنة الأولى من الهجرة وبعد المؤاخاة مباشرة وكان الإحصاء للمسلمين فقط، أو حسب نص أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال: «**اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس**»،

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٩١٧.
[2] الجهاد والقتال، محمد خير هيكل (١/ ٤٧٦).
[3] جبل من جبال جهينة، بناحية رضوى بقرب ينبع.
[4] موضع بين مكة والمدينة.

فبلغ تعداد المحاربين منهم "١٥٠٠" ألفاً وخمسمائة رجل[١] فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجب واستغراب: نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا معهم السلاح خوفاً على أنفسهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنع خروجهم ليلاً فرادى، حماية لهم من الغدر[٢]، وبعد هذا التعداد مباشرة، بدأت السرايا والغزوات، وهذا الإجراء الإحصائي يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية في تطوير الدولة الناشئة[٣].

ـ حراسة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم الشخصية:

كان الصحابة رضي الله عنهم يحرسون النبي صلى الله عليه وسلم حراسة شخصية، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أرق النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقال: «**ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة**»، إذ سمعنا صوت السلاح، قال: «**من هذا؟**» قال: سعد يا رسول الله جئت أحرُسُك، فنام النبي صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا غطيطه[٤]، وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى[٥]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: مشروعية من العدو، والأخذ بالحزم، ترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير وتسميته، وإنما عنى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك مع قوة توكله، للاستنان به في ذلك[٦].

ـ نص وثيقة المعاهدة مع بني ضمرة والتعليق عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله، لبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم، إلا أن يحاربون دين الله، ما بل بحر صوفه[٧]، وأن النبي إذا دعاهم لنصرة أجابوه عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برّ منهم واتقى[٨].

---

[١] الوثائق السياسية، لحميد الله، ص: ٦٥.
[٢] الروض الأنف (٥/ ٤٣).
[٣] دراسات في عهد النبوة، عبد الرحمن الشجاع، ص: ١٦٣.
[٤] أخرجه البخاري، الحديث رقم:٢٨٨٥.
[٥] تفسير القرطبي (٦/ ٣٣٠).
[٦] ولاية الشرطة في الإسلام، د.عمر الحميدي، ص: ٦٣.
[٧] كناية عن التأييد والاستمرار.
[٨] الوثائق السياسية لمحمد حميد الله، ص: ٢٢٠، رقم: ١٥٩.

انتهز النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأبواء فرصة ذهبية فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لا تقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش، ولذلك عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضمان حيدتهم، في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته حتى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة[١] كان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التي كانت سوقهم، ومصدر رزقهم قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي مسلك غير موادعة الدولة الإسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وفق المصطلح الحديث[٢].

وقد دلت هذه الموادعة على أن مقتضيات السياسة الشرعية، قد تدفع المسلمين إلى التحالف العسكري أو الاقتصادي أو التجاري، مع أي من الكتل القائمة، وأن التحالف السياسي له أصل في الشريعة، وضرورة يوجبها استهداف رفع الضرر الحاصل، أو المرتقب[٣]، وأن التحالف مبني على قاعدة رفع الضرر، والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرار ورأي، أما إذا كانوا أتباعاً ومنقذين فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشرعي وعلى قيادة الأمة أن تستوعب هدي النبي صلى الله عليه وسلم في حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشرعية التي تقول :لا ضرر ولا ضرار[٤].

وهذه القاعدة **«لا ضَرر ولا ضِرار»** من أركان الشريعة، وتشهد لها نصوص من الكتاب والسنة، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضرراً عاماً أو خاصاً، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التدابير التي تزيل آثاره، وتمنع تكراره، كما يدل على وجوب اختيار أهون الشرين، لدفع أعظمهما، لأن في ذلك تخفيفاً للضرر عندما لا يمكن منعه بتاتاً[٥].

---

[١] نشأة الدولة الإسلامية، د.عون الشريف، ص: ٤٣.
[٢] الفقه السياسي، خالد الفهداوي، ص: ١١٩.
[٣] المصدر السابق، ص: ١٢٤.
[٤] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٥٠٩).
[٥] المدخل الفقهي، مصطفى الزرقا، ص: ٩٧٢.

إن هذه الموادعة توضح جواز عقد الدولة الإسلامية معاهدة دفاعية بينهما وبين دولة أخرى، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتب أي ضرر على مثل هذه المعاهدة، ويجب على الدولة الإسلامية في هذه الحال، نصرة الدولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النصرة ضد الكفار المعتدين، كما يجوز للدولة الإسلامية أن تطلب من الدولة الحليفة إمدادها بالسلاح والرجال، ليقاتلوا تحت راية الدولة الإسلامية، ضد الأعداء من الكفار[١].

وقد شرط النبي صلى الله عليه وسلم على بني ضمرة ألا يحاربوا دين الله، حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم، أو حاول الاعتداء وفي هذا إبعاد للعقبات، التي يمكن أن تقف في طريق الدعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين، أو يقفوا في طريقه[٢]، وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسياً وعسكرياً للمسلمين، لا يستهان به[٣].

ـ من أهداف السرايا:

عندما ندرس حركة السرايا والغزوات التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم بدقة وعمق وتحليل، نستطيع أن نتلمس كثيراً من الأهداف، وندرك بعض ما توحي به من دروس وعبر وفوائد، فإذا تأملنا في حركة السرايا التي سُيرت قبل بدر، نجد أن أفرادها كلهم من المهاجرين، ليس فيهم واحد من الأنصار، يقول ابن سعد ـ رحمه الله ـ : والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه، ومنها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أولاً، وإحياؤها على المستوى الخارجي، وإنهاك الاقتصاد القرشي، ومحاصرته واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكرياً، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحركات قريش، وإرهاب العدو الداخلي في المدينة وما حولها، واختبار قوة العدوّ[٤].

وقد حققت تلك السرايا أهدافها والتي من أهمها:

ـ بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج.

---

[١] الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤٧٩).
[٢] دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: ٥٣٠.
[٣] الدعوة الإسلامية، د.عبد الغفار عزيز، ص: ٢٩٦.
[٤] غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص: ١٤ ـ ٢٤.

ـ كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب.

ـ علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح:

وقد استمرت حركة السرايا والبعوث، وكانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، وكان هذا النشاط المتدفق على شكل موجبات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل، دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة ـ وبقيادة النبي القائد صلى الله عليه وسلم ـ كانت مثل خلية النحل لا تهدأ ولا تكل، وإن الباحث ليلحظ في حركة السرايا والبعوث والغزوات الكبرى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، حرص الصحابة على المشاركة كقادة وجنود، فكان صلى الله عليه وسلم يعدُهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتئ صلى الله عليه وسلم يُبشّر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

لقد كانت السرايا والغزوات التي أشرف عليها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في حياته، بمثابة تدريب حي نابض، بل يمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، فيما بعد.

إن حياة الصحابة رضي الله عنهم، خلال الأربع والعشرين ساعة اليومية، عبارة عن تدريب مستمر، فالبرنامج اليومي المنتظم يبدأ مبكراً من صلاة الفجر، التي تؤدى في جماعة مع قائدهم الأعلى صلى الله عليه وسلم الذي كان يحثهم على أداء هذه الصلاة جماعة في وقتها موضحاً لهم ولأمته أنها المفتاح العجيب ليوم مليء بالنشاط والحيوية، ثم ينطلق كل منهم إلى عمله الذي تتخلله فترات الصلوات الباقية، حتى إذا ما صلوا الصلاة الآخرة "صلاة العشاء" ناموا حتى إذا ما أخذوا قسطاً وافراً من النوم أول الليل إلى الثلث الأخير منه، قام معظمهم لأداء صلاة التهجد التي تملأ قلوبهم روحانية وتكسبهم مزيداً من النشاط لأدائها في وقت يكون الجسم فيه مرتاحاً.

هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدائم واليقظة التامة لمتطلبات دولة الإسلام، فكانوا يقومون بنشاطات تدريبية مركزة، تتمثل ركوب الخيل، والسيف والرماية وكان النبي صلى الله عليه

وسلم يحُثهم على فعل ذلك، بل ويشاركهم فيه، معطياً مع نفسه القدوة، وكان صلى الله عليه وسلم يركز على تعلم الرماية كثيراً، موضحاً أنها خير ما يعد من قوة واستعداداً للكفار.

وكان صلى الله عليه وسلم يشجعهم على الصناعة الحربية، المتمثلة في ذلك الوقت في صناعة الأسهم، يخبرهم: أن الأجر الذي غايته الجنة ينسحب، والمتنبل بها والرامي بها، فيروي لنا عقبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي احتسب في صنعته الخير ومتنبله[1]، والرامي، ارموا وأركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليّ من أن تركبوا وليس من اللهو إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته زوجته، ورميه بنبله عن قوسه، ومن عُلّم الرمي ثم تركه، فهي نعمة كفرها**»[2].

إن المهمات والأهداف التي سعت لتحقيقها السرايا والبعوث كانت تتفاوت تبعاً لاختلاف الظروف المحيطة والحادثة، فكانت السرايا الأولى في معظمها عبارة عن دوريات استطلاعية وإستكشافية وجس نبض، ثم تطورت إلى سرايا اعتراضية توقع الرعب والفزع في القوافل القرشية، وذلك قبل غزوة بدر الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها، أصبحت مهمة بعض السرايا والبعوث تنصبُّ في تصفية الأفراد من أعداء الدولة الإسلامية، الذين يحاولون النيل من مسيرتها، مثل كعب بن الأشرف، والعصماء بنت مروان، وأبي عفك، فكان في قتل كعب ردع لليهود، وقتل العصماء وأبي عفك ردع للمشركين والمنافقين في المدينة.[3]

وعندما انقلبت الأمور لغير صالح المسلمين بعد أحد، طمع الأعراب في خيرات المدينة، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنهم غدروا ببعض البعوث التعليمية ـ كما في الرجيع وبئر معونة ـ غيّر تبعاً لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم "إستراتيجيته" العسكرية فانتقل بالسرايا من قريش إلى الأعراب، لتأديبهم بطريقة صارمة وسريعة ومباغتة، وكان أهم ما يميز تلك السرايا، هجومها التعرضي للأعراب قبل تحشدهم وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

وظلت السرايا والبعوث النبوية تؤدي دورها، وتقوم بمهامها الخاصة لخدمة أهداف الدعوة، فمن درويات قتالية إلى سرايا تعقبية وأخرى تمويهية، حتى إذا ما توطّد الأمر للمسلمين بعد

---

[1][1] المتنبل: هو الذي يناول السهم للرامي.

[2] سنن أبو داوود، الحديث رقم: ٢٥١٣.

[3] فتح الباري، الحديث رقم: ٤٣٥٥.

فتح مكة، اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بإزالة كل ما يمت للوثيقة بصلة، فبعث السرايا والبعوث من مكة لتحطيم بقية رموز الشرك والوثنية، فانطلقت السرايا لتحطيم العُزّى ومناة واللات وسواع ذي الخلصة، وغيرها من الأصنام، والطواغيت الوثنية[1]، وبعد ذلك انطلقت دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم تحركت الجيوش الراشدية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، لنشر دين الله في المعمورة، وإزالة كل العوائق والقوى التي تقف في وجه الدعوة.

لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحللين على اختلاف دياناتهم وأفكارهم ومشاربهم، ولكن ستزول دهشة المحللين المنصفين، عندما يقرؤون تلك التعاليم، والوصايا النبوية لقواد، وجنود السرايا والبعوث، والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية، والتي صارت تتكرر على ألسنة الخلفاء، وقادة جيوش الفتوح، وتظهر في أعمالهم فيما بعد[2].

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشاً، قال: «**انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**»[3]، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «**بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا**»[4].

٥- الأمن:

أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذا الجانب في آيات عديدة منها:

أ - قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (التوبة، آية : ١٢٠).

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٥١٩).
[2] المصدر نفسه (١/ ٥١٩).
[3] سنن أبو داوود، الحديث رقم: ٢٦١٤.
[4] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٧٣٢.

وتشير الآية على أن كل نيل من العدو عليه جزاء[1]، وأن استطلاع أخبار العدو، ومعرفة مواطن الضعف فيه، مواقع آليته، ومنشآته يعتبر نيلاً لأنه يوصل للتخطيط السليم، المؤدي إلى الظفر به.

ب ـ قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، آية : ٨٧).

وجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه وفي هذا إقرار من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ﴾[2].

ج ـ وقال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل، آية : ٢٢).

إن الآية الكريمة ذكرت مبدأ من مبادئ الاستخبارات، وهو مبدأ جمع المعلومات، حيث إن الظروف التي جمعت فيها المعلومات هي ظروف حرب بدليل قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنس وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل، آية : ١٧). نلحظ من الآية تطبيق عناصر الاستخبارات وهي:

ـ إقرار مبدأ الحصول على المعلومات إذ أقر سليمان الهدهد ثم أرسله مرة أخرى : ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (النمل، آية : ٢٧).

ثم قال : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل، آية : ٢٨).

---

[1] في ظلال القرآن (٤/ ١١).
[2] الاستخبارات العسكرية في الإسلام، عبد الله علي، ص: ١٠٥..

ـ عرض المعلومات المجمعة، قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ (النمل، آية : ٢٣ ـ ٢٤). تقسيم المعلومات المعروضة وتقرير مدى صحتها، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (النمل، آية : ٢٧).

ـ تحليل ودراسة المعلومات واستخلاص النتائج منها.

ـ إمداد المسؤولين وإطلاع القادة على المعلومات، فالهدهد كجندي من جنود سليمان رأى أن من واجبه أن يأتي بما حصل عليه من معلومات إلى مسؤوله وهو سليمان[١] عليه السلام : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل، آية : ٢٢).

ـ المباغتة والمفاجأة في جمع المعلومات وتوصيلها وغير ذلك من الدروس والعبر.

د ـ وقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (النمل، آية : ١٧، ١٨). نلحظ في هذه الآيات أن المعلومات السابقة لا تقتصر على بني البشر، فقد يستفيد منها الحيوان والطير، إذ استفاد النمل من المعلومات السابقة، فاستعمل وسائل الإنذار المبكر، إذ قالت نملة بلغة جنسها حسب ما وصلت إليه من معلومات، ادخلوا مساكنكم حفاظاً على حياتكم، لأن سليمان وجنوده ربما يدوسون بأرجلهم فوقكم فتحطمون بغير قصد، فقد بينت السبب في توجيه هذا الإنذار إلى جماعتها من النمل بفضل المعلومات المسبقة التي حصلت عليها[٢].

---

[١] الاستخبارات العسكرية، ص: ١٠٨.
[٢] في ظلال القرآن (٤/ ١٤١).

هـ ـ **قال تعالى:** ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص، آية : ١١ ـ ١٢).

ونلحظ في الآيات الآتي:

ـ إستخدام أم موسى مبدأ جمع المعلومات والحصول عليها في حفاظها على ابنها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ والتقصي إنما هو تتبع الأثر وجمع المعلومات.

ـ اختيار العنصر الأمين والحريص في جمع المعلومات لتكون صحيحة وموثقة وأمينة على ذلك حريصة على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾، فأم موسى لم تختار غير أخته، لأن الأخت تعتبر من الحريصين والأمناء على تلك المصلحة وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات وتحصيل الأخبار، والمهم بمكان أن يكون العنصر المرسل في عملية الاستخبارات أن يكون مندفعاً من ذاته حريصاً على المصلحة المرسلة إليه.

ـ التقصي والتتبع بدون إشارة أو جلب أنظار ﴿قُصِّيهِ﴾ إذ نفهم من كلمة التقصي الانتباه وعدم إشارة الأنظار، ودليل ذلك أنها بصرت به دون أن يشعروا بها.

ـ دقة الملاحظة وقوة الفراسة أثناء جمع المعلومات ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (القصص، آية : ١١).

ـ استعملت أخت موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصرية، وهو التخريب الفكري فبعد أن نظرت إليهن وهن غير قادرات على إرضاعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص، آية : ١٢). وقد قصدت إبعاد موسى عن المراضع، ليخلص إلى أمها دون إشعارهم أنها منه بسبيل.

ـ محاولة تحقيق الهدف أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمها بمكانه، وإنما هي تقصت الأخبار، وتوصلت إلى مكانه وحاولت إعادته إلى أمه وقد نجحت في هذا[١].

و ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ (النساء، آية : ٧١).

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ﴾ (المائدة، آية : ٩٢).

وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء، آية : ١٠٢).

إن الإعداد الأمني والاستخباراتي في بناء الدولة بالمدينة من مظاهره الحذر واليقظة، لأنها تحول دون مفاجآت الأعداء، وتطبيق لآيات القرآن السابقة، كما أن السعي للحصول على المعلومات عن العدو الداخلي أو الخارجي حتى يكون التخطيط على أساس من أسباب القوة ومظاهرها التي أمر الإسلام بإعدادها من أسباب حماية الدولة والمجتمع والمواطنين.

إن من أهم أسباب حماية وبناء الدول أن ينشأ الحس الأمني لدى المواطنين منذ تفتح أعينهم على الحياة، وأن تقوم الدول بتأسيس مؤسسات أمنية على أسس راسخة من المعرفة والعلم والحذر واليقظة.

***ـ معالم نبوية في التربية الأمنية:**

إن السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، قد تركت لنا معالم مهمة وخطوطاً عريضة في هذا الجانب، فنجد في الفترة المكية من معالمها الكتمان والسرية، ولذلك نجد أن:

---

[١] الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: ١١١ ـ ١١٢.

أ - الرسول صلى الله عليه وسلم اختار دار الأرقم بن الأرقم كمقر سري للدعوة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي أتباعه على الإيمان بأركانه الستة والأخلاق الرفيعة استعداداً لمرحلة قادمة، وكان سبب اختياره دار الأرقم:

- أن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد صلى الله عليه وسلم بداره.

- أن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم، فلو كان الأرقم معروفاً بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره، لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

- أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن التجمع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار، من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، بل يتجه نظرها إلى بيوت كبار أصحابه أو بيته هو نفسه - عليه الصلاة والسلام - فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختياره هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبداً أن قريشاً داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء[١]، ونلحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم يهتم ببناء الجهاز الأمني لدعوته، ويزرع أتباعه في وسط القبائل من أجل السعي لتمكين دعوة الإسلام، فعندما أسلم عمرو بن عنبسة أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتم إسلامه ويلتحق بأهله وإذا نظرنا في قصة إسلام أبي ذر رأيت الجوانب الأمنية بارزة في تلك السيرة العطرة.

ب - وفي بيعة العقبة الثانية نلحظ أن المسلمين رتبوا هذا اللقاء ترتيباً رفيعاً، فأخذوا بكافة الاحتياطات الأمنية من حيث الزمان والمكان، وعقدوا الاتفاق عقداً متيناً، وحققوا ما أرادوا والمشركين في غفلة عما يحدث، وفي هجرة النبي صلى الله عليه وسلم قمم شامخة في مجال

[١] المنهج الحركي للسيرة النبوية (١/ ٤٩) منير غضبان.

الترتيب الأمني والتخطيط الاستخباراتي، وبعد أن انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة نجده يهتم بجمع المعلومات عن أعدائه ويربي أصحابه تربية أمنية فريدة من نوعها.

ج - روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه بعث عبد الله بن جحش رضي الله عنه في السنة الثانية للهجرة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، وزوده بكتاب مختوم، أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ويصل إلى موقع معلوم حدده له، فلما وصل ذلك المكان وآن وقت فض الكتاب، فضه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض على اسم الله وبركاته لا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم[١].

ونلحظ في هذه المهمة أمور منها:

- إن هذه السرية كانت سرية استطلاع، غايتها مراقبة العدو واستطلاع أخباره على نحو السرايا الاستكشافية التي تضعها الجيوش أمامها، أو على جانبها، أو على نحو المغافر الأمامية في جهة القتال، وكانت مهمتها المراقبة والاستطلاع فقط دون التعرض للأعداء بالتحرش أو الاحتكاك أو القتال، وهذا ما يسمى: الاستخبارات الهجومية، هدفها جمع المعلومات عن العدو فقط لمصلحة الدولة الإسلامية.

- أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن تبقى سرية ومكتوبة حتى على من يحملها وسينفذها أخذاً بالاحتياط اللازم وخوفاً من تسرب أدنى معلومة، وتربية لأصحابه أن المعلومة تكون على قدر الحاجة[٢].

د - وفي غزوة بدر أعطانا النبي صلى الله عليه وسلم دروساً وعبراً وحكماً لجمع المعلومات على الأعداء وتوظيفها لنزع النصر عن المشركين، فنلحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع معلومات متكاملة على الأعداء وقام صلى الله عليه وسلم بالإشراف المباشر على جهاز الاستخبارات وساهم بنفسه وبغيره في جمع المعلومات عن مشركي مكة، ويمكن لنا أن نحصر

---

[١] سنن البيهقي (١٢/ ٩).
[٢] الإستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: ١١٤.

أساليب الاستطلاع التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم للحصول على المعلومات من مشركي مكة:

ـ أرسل بسيسة بن عمرو وعديّ بن أبي الزغباء حتى يأتياه بخبر عير أبي سفيان، فعادا وأخبراه بموعد وصول العير[1].

ـ قيامه صلى الله عليه وسلم وبصحبته أبي بكر الصديق رضي الله عنه بتحري المكان الذي توجد فيه قريش وقد حصل له ما أراد عندما وقف على شيخ من العرب وسأله عن المكان الذي توجد فيه قريش.

استنطاق الأسيرين اللذين قبض عليهما الصحابة واستفاد صلى الله عليه وسلم من استنباط هذين الأسيرين أموراً مهمة جداً منها، عدد أفراد جيش المشركين، موقع قريش، قيادة جيش المشركين ومن فيه من أشراف مكة[2]، وعتم النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين أخبار المسلمين وقام بأمر الكتمان خير قيام وكان صفة بارزة في غزواته كلها، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها[3]، وفي غزوة بدر مارس رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العمل الأمني، ليرشد الأجيال على مر العصور وكرّ الدهور إلى أهمية وتجلي ذلك في الآتي:

ـ سؤاله صلى الله عليه وسلم الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه وعن قريش وجيشها.

ـ تورية الرسول صلى الله عليه وسلم في إجابته على سؤال الشيخ: ممّا أنتما؟ بقوله صلى الله عليه وسلم: **«نحن مِن ماء»**. وهو جواب يقتضيه المقام فقد أراد به الرسول صلى الله عليه وسلم كتمان أخبار جيش المسلمين.

وفي انصرافه فور استجوابه كتمان ـ أيضاً ـ وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سبب في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم: **«مِن ماء»**[4].

---

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٥٠١.
[2] العبقرية العسكرية، اللواء محمد فرج، ص: ٥٧ ـ ٥٨.
[3] أخرجه مسلم، ك الجهاد، الحديث رقم: ١٧٦٧.
[4] السيرة لابن هشام (١/ ٦١٦).

ـ أمره صلى الله عليه وسلم بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر.

ـ كتمانه صلى الله عليه وسلم خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «**إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا**»[١]، وقد استدل الإمام النووي ـ رحمه الله ـ بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب وألا يبيّن القائد الجهة التي يقصدها، لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو[٢].

وكان صلى الله عليه وسلم يهتم بحركة العدو، ولذلك كانت حركة الاختراق في القبائل المعادية واسعة جداً، ولذلك باغت صلى الله عليه وسلم أعداءه مرات عديدة، وأفشل خططهم العدائية، ولما أرادت قريش أن تباغت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر كان مكتب استخبارات مكة التابع للقيادة في المدينة يبعث بالمعلومات أولاً بأول إلى قيادته.

لقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على استطلاع أخبار قريش، وكان يستعين بعمه العباس، قال ابن عبد البر: وكان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكان المسلمون يتقوّونه بمكة وكان يحب أن يقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مقامك في مكة خير[٣].

لقد كان جهاز الاستخبارات في مكة دقيقاً جداً وحقق نجاحات مهمة، ولقد قاد العباس بن عبد المطلب هذا الجهاز بكل جدارة ونشاط، وكانت معلوماته دقيقة وبياناته صحيحة، فمن هذه المعلومات التي وصلت رسالته إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إن قريشاً قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعاً إذا حفوا بك فأصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف بعير وأوعبوا[٤] من السلاح[٥].

أهم ما احتوت عليه هذه الرسالة:

---

[١] أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٠) برقم: ١٩٠١.
[٢] شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٤٥).
[٣] الاستيعاب (٢/ ٨١٢).
[٤] استوعبه إذا أخذه أجمع.
[٥] مغازي الواقدي (١/ ٢٠٤).

ـ معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة ولذلك استعد النبي صلى الله عليه وسلم وشرع في أخذ العدة لمواجهة هذا الجيش العرمرم.

ـ حجم الجيش وقدراته القتالية وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتف بمعلومات المخابرات المكية بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد بقادة المسلمين إلى أهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط وإستراتيجيات نافعة، فحين وصل جيش المشركين إلى مكان يقال له العرض[1]، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم الحباب بن المنذر فدخل بين جيش مكة وحزر عدده وعُدده ورجع وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ولما بلغ الجيش ذا الحليفة أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم عينين له وهما: ابنا فضالة، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا بالوطاء، ثم رجعا إلى المدينة وأخبرا الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك[2].

ولقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي خوفاً من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة في تخطيط وترتيب، ولذلك حين قرأ أبيّ الرسالة على النبي صلى الله عليه وسلم استكتمه ما فيها، وحينما دخل بيت سعد ابن الربيع قال: أفي البيت أحد؟ فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم واستكتم سعداً الخبر[3].

وفي هذا تعليم لقيادة الدول على أهمية كتم الأسرار وما يتصل بها حتى عن أقرب الناس إليهم من زوجات وأولاد ومن في حكمهم، وإذا دعت الضرورة إلى نشر شيء من ذلك، فينبغي أن يكون لمن يحفظ السر حتى لا يلحق المسلمون بسبب ذلك ضرر.

وبعد أن عقد المجلس الاستشاري ووضعت الخطة المناسبة، اختار صلى الله عليه وسلم الوقت المناسب للتحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو

---

[1] العرض: هو الجرف، موضع المدينة.

[2] المغازي للواقدي (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٨).

[3] المصدر نفسه (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).

هادئاً، والحركة قليلة وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء ـ غالباً ـ في نوم عميق، لأن الأعباء ومشقة السفر قد أخذ منهم مجهوداً كبيراً.

ومن المعروف من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات والحركة الثقيلة: قال الواقدي ـ رحمه الله ـ: ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدلج، فلما كان من السحر، قال: «**أين الأدلاء**»[١]؟ ثم إنه صلى الله عليه وسلم اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهو السرية حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**هل من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟**» فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله ونفذ بين بستانين لبني الحارثة[٢]، ولا شك أن مروره صلى الله عليه وسلم بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه صلى الله عليه وسلم على أخذ الاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير، لأن الطرق العامة تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين وهذا أمر محذور.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يُعلّم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان ومن حيث الزمان، لئلا يتمكن الأعداء من معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم مهب الرياح[٣].

هـ ـ وفي غزوة الخندق يظهر دور جهاز أمن الدولة بارزاً، فقد كان يتابع أخبار الأحزاب ويرصد تحركات العدو ويزود القيادة بكافة المعلومات، فقام فرع مكة الأمني بإرسال معلومات دقيقة ساعدت القيادة في رسم الخطط قبل وصول الأعداء للمدينة، وأرسل طليعة تتابع الأمور علن كثب وترسل المعلومات الدقيقة، ولقد كان حفر الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم، ومارس صلى الله عليه وسلم سلاح التشكيك

[١] المصدر نفسه (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
[٢] السيرة النبوية لأبن هشام (٣/ ٦٥).
[٣] القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص: ٤٦٨.

والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن بعد أن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله إن القوم لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»**[1].

فقام نعيم بن مسعود يزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار. وقال لقريش: إن اليهود إنما تطلب الرهائن من قريش لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في كتب السيرة وإن كانت لا تثبت من الناحية الحديثة إلا أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية فالحرب خدعة[2]، وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب مما أدى إلى كسر شوكتهم، وهبوط عزمهم وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

ـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ـ أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير ويعرفهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، فكان هذا سبباً في تغير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ـ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته، وقد حققت مساعي نعيم تخذيل بني قريظة أمرين مهمين لجيش النبي صلى الله عليه وسلم وهما:

*ـ أن المسلمين بعد انسحاب بني قريظة من التحالف مع الأحزاب أصبحوا في أمان، لأن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون المدينة فلو بقوا في هذا التحالف لما أمن المسلمون من توجيه طعنة لهم من الخلف مع أنهم مشغولون بمواجهة خصمهم من الأمام.

---

[1] البداية والنهاية (٤/ ١٣).
[2] السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٠).

*ـ أن المسلمين اطمأنوا إلى أن بني قريظة سيستمرون في إمدادهم بالمؤن التي يتطلبها الموقف، وذلك لشدة حاجتهم إليها وانشغالهم عن توفيرها بمواجهة الأعداء[1]، وكلف صلى الله عليه وسلم الزبير بتتبع أحوال بني قريظة وجمع المعلومات عن نواياهم ومدى التزامهم بالعهد، ورصد حركتهم المريبة[2].

ومع أخذه صلى الله عليه وسلم بكافة الأسباب إلا أنه كان كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً وجاء المسلمون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر. قال: «**نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»[3].

ـ ودعا صلى الله عليه وسلم: «**اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، أهزمهم وزلزلهم**»[4].

ـ وقال صلى الله عليه وسلم: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده**»[5].

فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم، فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته، زلزل أبدانهم وأنزل الرعب في قلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل جنوداً من عنده سبحانه، وكان صلى الله عليه وسلم يتابع الأمر وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب، فقال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة**»[6]، فاستعمل صلى الله عليه وسلم أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحداً بنفسه فقال: «**قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم ولا تذعرهم علي**» وفي هذا معنى تربوي، وهو

---

[1] القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص: ٤٧٧.
[2] الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: ١١٩.
[3] مسند أحمد (٨/ ١٨).
[4] أخرجه البخاري، ك المغازي (٥/ ٥٩) رقم: ٤١١٥.
[5] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٤١١٥.
[6] أخرجه مسلم (٣/ ١٤١٤) رقم: ١٧٨٨.

أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأوامر والحزم إلا عند الضرورة. قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنما أمشي في حمام فإذا أبو سفيان يُصلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد قوس وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم **«لا تذعرهم عليّ»** ولو رميته لأصبته، فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«قم يا نومان»**[١].

ونستنبط من هذا الموقف دروساً مهمة منها:

- اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم حذيفة رضي الله عنه ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب يدل على معرفته صلى الله عليه وسلم بمعادن الرجال، وأن معدن حذيفة معدن ثمين[٢]، فهو شجاع ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، فهذا العمل يكلفه حياته فلو اكتشفه الأعداء لكانت عقوبته الموت صلباً، ومع هذا أقدم على تنفيذ الأوامر.

ـ وضوح الأمر العسكري الذي وجهه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حذيفة.

ـ الانضباط العسكري الذي كان يتحلى به حذيفة في تنفيذ الأوامر ونجاحه في الدور الذي أمر به وقيامه بالمهمة خير قيام، ورجع وقدم المعلومات اليقينية الصادقة للرسول صلى الله عليه وسلم.

و ـ ولما قرّر النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة، حرص على مباغتة قريش، وكتم الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته، وتصدّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة.

ـ أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

---

[١] أخرجه مسلم، ك الجهاد والسير، الحديث رقم: ١٧٨٨.
[٢] السيرة النبوية، د. محمد أبو فارس، ص: ٣٠٦.

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ إن أبا بكر دخل على عائشة وهي تغربل حنطة فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاز؟ قالت: نعم، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً، غير أنه قد أمرنا بالجهاز[1].

ـ أنه بعث سرية بقيادة قتادة إلى بطن إضم:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم قبل مسيرة مكة سرية مكونة من ثمانية رجال، وذلك لإسدال الستار على نيته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو أهل مكة، بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم[2]، ليظن ظان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار.. فمضوا ولم يلقوا جمعاً فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خشب[3]، فبلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إلى مكة، فأخذوا على ((بيبن)) حتى لقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالسُّقيا[4].

ـ أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيونه داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش" وأخذ رسول الله بالأنقاب"[5].

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة، فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة.

ـ دعاؤه بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

فعندما أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمر بالجد والتهيؤ قال: **«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبغتها بلادها»**[6].

---

[1] البداية والنهاية (٤ / ٢٨٢).
[2] بطن إضم: وادي المدينة التي تجتمع فيه الوديان الثلاثة.
[3] ذو خشب: موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام.
[4] السقيا: موضع يقع في وادي القرى.
[5] الأنقاب: جمع نقب وهو كالعريف على القوم.
[6] البداية والنهاية (٤ / ٢٨٢).

وهذا شأن النبي صلى الله عليه وسلم في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

ـ إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي صلى الله عليه وسلم استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاب إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى صلى الله عليه وسلم على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً والمقداد، فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم، ثم استدعى حاطب رضي الله عنه للتحقيق فقال: يا رسول الله صلى الله عليه، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1].

فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة، آية: ١).

نجد من خلال قصة أن النبي صلى الله عليه وسلم له فقه عميق في معاملة أصحابه، وحرص شديد على الوفاء لهم وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة، لقد جعل صلى الله عليه وسلم من ماضي حاطب رضي الله عنه المجيد سبباً في العفو عنه.

---

[1] أخرجه البخاري، ك المغازي (٥/ ١٠٥) برقم: ٤٢٧٤.

من خلال الآيات القرآنية الكريمة والممارسة النبوية لهذا الباب، تظهر الحاجة للشعوب الإسلامية ودولها المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية استخبارية متطورة تحمي الإسلام والمسلمين من أعدائها، وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنية ولابد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم والسنة النبوية وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة تمثل صفات رجال الأمن المسلمين.

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبهم المفاجآت العدوانية، وقد كتب صن ترو مشيراً إلى أهمية ذلك:

إذا عرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل معركة[١].

إن بناء الأجهزة الأمنية ومكاتب المعلومات التي تقدم للقيادة التقارير لوضع الخطط المناسبة على أثرها ليس أمراً جديداً، بل موغلاً في تاريخ الإنسانية وكذلك في تاريخ المسلمين.

إن من أسباب استمرار الدول ونجاحها إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام والارتقاء وتطويره بما يناسب أحوال العصر الذي نحن فيه.

---

[١] الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: ٣١١.

٦ ـ التخطيط والإدارة:

إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة من الأسباب الأكيدة التي تبني بها الدول ولقد عرَّف بعض الباحثين التخطيط بأنه الجسر: جسر الحاضر والمستقبل[١].

إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا.

ـ قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص، آية: ٧٧).

إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة.

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال، آية: ٦٠).

وهذه الآية دعوة للإدارة الإسلامية بالعمل والتخطيط والاستعداد بقوة لمواجهة أمر مستقبلي قد يحدث لدار الإسلام وأمته، والقوة هنا تفهم بمفهوم العصر، فقد تفهم بالقوة البدنية، وذلك ببناء الرجال الأشداء الأقوياء في إيمانهم وأبدانهم وقوة السلاح بكل أنواعه، وحسب ما تخرجه المصانع من أنواع الأسلحة حتى القوة والطاقة الذرية وذلك ببناء المصانع النووية الإسلامية وحمايتها من ضرب الأعداء لها وذلك كله لإرهاب عدو الله وأعداء الإنسانية وحماية دار الإسلام من الأعداء كما في آية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ مفهوم التخطيط الطويل الأجل الذي يجب أن تأخذ به الدولة الإسلامية وإدارتها الحكيمة حتى تحمي شوكة وقوة الإسلام[٢].

---

[١] التخطيط والإدارة، د.عبد الفتاح دياب، ص: ٩٧.

[٢] التخطيط والرقابة أساس نجاح، ص: ٩٧.

وإن النبي صلى الله عليه وسلم قد اهتم في حياته في بناء الدولة بالتخطيط والإدارة في كل مراحل حياته واستمد أصول التخطيط والإدارة من القرآن الكريم ومن الأمثلة على أهمية التخطيط في القرآن الكريم:

أ. قصة يوسف عليه السلام:

ضرب الله القرآن الكريم مثلاً للتخطيط السليم الذي قام على أسس منطقية فأمكن بذلك تلافي مجاعة كانت تهدد الناس جميعاً بالهلاك، بسبب التخطيط السليم الذي قام به يوسف عليه السلام وهو أمين على الخزائن. وذلك حين فسر الرؤيا التي جاءت على لسان ملك مصر في قوله تعالى: " وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ " (يوسف، آية: ٤٣) وتولى يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف، آية: ٤٧) .

إن يوسف عليه السلام فسَّر الرؤيا وزاد عليها بأن قدم خطة عملية تستغرق القطر كله والشعب المصري كله، أي أن خطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة، وهذا الذي أراده يوسف عليه السلام وعبر عنه بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، إن الذي يخطط له يوسف عليه السلام هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، لأن

الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي، ولأن سلوك الناس في الأزمات غير سلوكهم في الظروف العادية.

استرخاء وبطالة. فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير[1].

إن يوسف عليه السلام قسم خطته إلى ثلاث مراحل:

- ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ (يوسف، آية: ٤٧).

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ (يوسف، آية: ٤٨).

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ (يوسف، آية: ٤٩).

وتظهر ملامح هذه الخطة في الآتي:

- . الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف عليه السلام حدد خطط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعي سبع سنين العمل فيها دائب لا ينقطع، ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف، آية: ٤٧)، وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ (يوسف، آية: ٤٧).

---

[1] سورة يوسف، دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص: ٤٠٩.

- . فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الأقوات سبع سنين عجاف وبعبارة أخرى؛ بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى سيأتي تحمل أيضاً في المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم .
- . ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق ينبغي ألا تأتي هذه السنوات العجاف على كل المدخرات، وإنما كان يوسف عليه السلام واضحاً في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (يوسف، آية: ٤٨) .

فكان هذا الجزء المدخر هو "الخميرة" التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف، أي إعادة استثمارات المدخرات.

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب:

الأول: الإنتاج، **والثاني**: الاستهلاك، **والثالث**: الادخار، وأن يعيد استثمار المدخرات.

ومن طبيعة التطور أن تختلف: تفاصيل الصورة، ولكن أساسها سيظل قائماً عميقاً في ديننا وتراثنا وتظهر معالم التخطيط والإدارة في كلمات يوسف عليه والسلام حيث أن التخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر؛ أما الدعامتان فهما التنبؤ والأهداف وأما

العناصر فهي السياسات، والوسائل والأدوات، والموارد المادية والبشرية، والإجراءات والبرامج الزمنية والموازنة التخطيطية التقديرية[1] .

إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبقاً وهذا عين الذي زاوله يوسف عليه والسلام، لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي والزراعي كل ذلك في ذهنه قد أعدّ إعداداً دقيقاً .

- **.دعامتا التخطيط: التنبؤ، والأهداف:**

أما التنبؤ: فاستشراف المستقبل واستشفاف الآتي، وهذا عين ما كان من يوسف بما علمه الله ـ تعالى ـ ثم تجده أيضاً، قد حدد الأهداف في مضاعفة الإنتاج وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام وهذا يقتضي خطة تفصيلية؛ لأن الهدف العام الكبير ليس شيئاً إذ لم يقترن بخططه التفصيلية، وهنا يأتي دور السياسيات والوسائل، والأدوات والموارد البشرية والإجراءات، والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية .

---

[1] سورة يوسف، دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص: ٤١٥، ٤١٦.

وهذا هو ما فعله يوسف عليه السلام على ضوء علم الإدارة الحديث وإن كان القرآن الكريم حصر كلام يوسف عليه السلام في جمل جامعة وجيزة ولم يشر إلى تنمية الإنسان لكنها متضمنة قطعاً ضمن الخطة، لأن القرآن علّمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه ومحتواه وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيراً .

لقد وضع يوسف عليه السلام العنصر البشري في خطته، بعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذي ينفذها ، وأما منهجه في التعامل مع الإنسان فقد ظهر في دعوته للسجينين للتوحيد ، وبذلك يكون منهجه في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع دعوته للتوحيد وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة .

إن فائدة التغيير الخارجي تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير الخارجي ويحمل القيم الداخلية التي تضمن استمرارية التغيير الخارجي، صحته، وصدقه وأمانته . إن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان في المحتوى النفسي فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل ثم يجسده محتواه النفسي تغييراً خارجياً ، ويحوله إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق؛ لأن أحوال الناس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تغيير إلا إذا تغير محتوى الإنسان وما هو عليه من الحق أو الباطل؛ هذا هو منطق القرآن والحياة لكي ترسي نظاماً لابد أن تهيئ له إنساناً أولا .

إذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الإنسان ومفاهيمه فسرعان ما يتسرب الفساد من الإنسان إلى النظام، فيقوضه أكثر مما يتسرب الإصلاح من النظام إلى الإنسان فيصلحه؛ لأن الأنانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والأنظمة ما لم تهذبها

التربية الداخلية العميقة والأخلاق الكريمة المبنية على معرفة الله وحبه والخوف منه[1] .

إن الآيات القرآنية الكريمة أشارت إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطاً مباشراً، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطة .

- ـ استعداد يوسف عليه السلام على أن يشرف على تنفيذ هذه الخطة، وكان هذا الاستعداد بعد أن بدد ظلال الشك وأوهام التهم عن نفسه، وبذلك حدث التكامل القوي بين الخطة والمخططين بين حساب الأرقام وحساب الأخلاق بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع، بين الدين والحياة[2] .
- ـ الجانب الثاني: يتجلى في اختيار المعاونين الذين ساعدوه في عمله، فكان من رجال يوسف عليه السلام العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء[3] .

كما أشارت الآيات القرآنية إلى المعلومات اليقينية التي بنى عليها يوسف عليه السلام خطته .

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾(يوسف، آية: ٤٨) .

إن من معالم الخطة السياسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مبينة على معلومات يقينية صادقة حقيقية لا على الخيال الشعري المجنح الذي لا يرتبط بالواقع، ومن هنا صارح يوسف عليه السلام الشعب بالشدائد التي تنتظره، لكنها ليست المصارحة التي

[1] سورة يوسف دراسة تحليلية، ص: ٤١٨.
[2] المصدر نفسه، ص: ٢٤٠.
[3] فقه التمكين، ص: ٢٨١.

تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التي تدفع للعمل وتزيد الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة إن السبع التي تلي الرخاء ستكون مجدية لا تعطي بل تأخذ وتأكل فهي تقتضي حرصاً واحتياطاً[1] .

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾(يوسف، آية: ٤٨) لا زرع فيهن، يأكلن ما قدمتم لهن وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها، كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾(يوسف، آية: ٤٨) أي إلا قليلاً مما يحفظونه وتصونونه من التهامها، ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدية، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضي ويعقبها عام رخاء يغاث الناس فيه بالزرع والماء وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً وسمسم وخسهم فيعصرونه زيتاً، وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف عليه السلام، فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رغيد[2] .

ونلاحظ في الآيات القرآنية الكريمة التي تكلمت عن خطة يوسف عليه السلام عنصر الأمل والتفاؤل وهذا الأمر مهم في الخطة الناجحة.

ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(يوسف، آية: ٤٩) .

---

[1] سورة يوسف ـ دراسة تحليلية، ص: ٤٢٧.
[2] في ظلال القرآن (٤/ ١٩٩٤).

إن بعد الشدة التي أشار إليها يوسف انفراجاً ورخاء وستعود الأمور بإذن الله تعالى إلى سيرتها الأولى، ولكن بداية العودة تكون عاماً مباركاً غير معهود العطاء وفرة وكثرة وكأن الخير فيه سيفيض بغير جهد، فهو غانم ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي: يسقون الغيث، أو يغاثون ينجدون من الغوث، وكل ذلك متلازم "وَفِيهِ يَعْصِرُونَ"، إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ الناس إلى العصر للثمار إلا بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الأساسية وهي الأكل، ولابد من الأمل والتفاؤل في أي خطة، وإلا فإن كان لا أمل فما الداعي إلى العمل ولقد حرّك يوسف عليه السلام دوافع العمل عندهم بتحذيرهم من شدة سنوات القحط ثم حركها ثانية يفتح نافذة الأمل[١]، إن يوسف عليه السلام كان مظلوماً مضطهداً في سجن الملك وهو يملك من المعلومات والخطط مما يجعله في محل قوة عند المفاوضة إلا إنه لم يشترط لنفسه شيئاً، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلماً لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عليه السلام كان مستوعباً لفقه الخلاف حيث أن الملك وشعبه بعيدون عن منهج الله، منغمسون في مناهج الجاهلية، ومع هذا التقى معهم في الخير المحض والسعي نحو إنقاذ البلاد والعباد من محنة المجاعة والقحط، وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة الناس، ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض.

[١] سورة يوسف - دراسة تحليلية، ص: ٤٢٨.

لقد كان من ثمار تدبير يوسف عليه السلام وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء وفي هذا القصص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها وكان لهذا القصص أثره البالغ في بناء الدولة الإسلامية على أسس التخطيط والإدارة واستشراف المستقبل.

ب. من سيرة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم:

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مَعْلم بارز في جميع جوانب الحياة ونلحظ من سيرته العطرة جانب التخطيط وإحكام الإدارة ودقة التنظيم في كل مراحل دعواته: فإذا نظرنا ـ مثلاً ـ إلى الهجرة النبوية نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع لها خطة احتوت على هذه العناصر: تحديد الهدف، تنظيم الوسائل، رسم أسلوب التنفيذ، محاولة التنبؤ بالمستقبل، ولذلك نلاحظ الآتي:

- **ـتحديد الهدف:**

لقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم هدفه في الهجرة وهو مغادرته هو وأصحابه مكة إلى المدينة آمنين، ثم نشر دعوة الإسلام في بيئة جديدة وإقامة دولة تقوم برسالتها في الحياة.

إن تخطيط الرسول صلى الله عليه وسلم للهجرة النبوية المباركة دليل واضح على أن التخطيط ضروري لمزاولة أي نشاط بشري مهما يكن نوعه، يستوي في ذلك أن يكون القائم به فرداً أو جماعة وأن يستهدف شأناً من شؤون المسلم أو شؤون الحرب وقد اتضحت رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخطيط في بناء المسجد، ودستور المدينة، وحركة السرايا، وغزواته الميمونة واتصالاته بالقبائل والدول والزعماء والملوك ولقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم التخطيط في كل مراحل دعوته السرية والعلنية وقيام الدولة إيماناً منه بأن التخطيط أساس من الأسس في إنجاح أي عمل من الأعمال، ولابد منه للبلوغ إلى المقصود وأنه ركيزة أساسية يقوم عليها هذا الدين ولذلك فإن الإسلام قد دعانا إلى الأخذ به، وجعله نظاماً لحياة المسلمين لأنه ضرورة لابد منها[1]، وهذا ينسجم مع الفهم الصحيح لمعنى التوكل على الله والإيمان بالقدر.

[1] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٣٦٠.

إن الدولة المدنية الإسلامية، تتصدى لتحقيق أشرف وأعظم إنجاز في دنيانا وهو التمكين لدين الله في الأرض ورفع الظلم وإقامة العدل، والانتصار للمبادئ الإنسانية، كالمساواة والحرية والكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان ......الخ.

لقد قامت في المدينة دولة توفرت لها كل مقومات الدولة وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو مؤسس هذه الدولة والحاكم فيها وهو الذي يرجع إليه في كل الشؤون، ولما اتسعت أمور الدولة، عيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم العمال الأكفاء، وكان يختار العمال أساس الكفاءة والصلاح والأمانة، ويبين للمسلمين خطورة الولاية وأنها أمانة وأن من لم يؤدِّ الواجب فيها ويأخذها بحقها كانت له يوم القيامة خزياً وندامةً وكان يحاسب العمال، كما حاسب ابن اللتبية وأنكر عليه قوله: «**هذا لكم وهذا أهدي لي**»[1] وبيَّن أن هدايا العمال غلول.

وكان يجري الرواتب على العمال، كما أجرى لعتاب بن أسيد أمير مكة درهماً كل يوم وبيَّن أن من حق العامل أن يتخذ بيتاً إن لم يكن له بيت، وزوجة إن لم تكن له زوجة ودابة إن لم تكن له دابة، فقال: «**من ولي لنا ولاية ولم يكن له بيت فليتخذ بيتاً أو لم تكن له زوجة فليتخذ زوجة أو لم تكن له دابة فليتخذ دابة**»[2] .

[1] أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، الحديث رقم: ٦٦٣٦.
[2] معالم السنن للخطابي (٤/ ٢٠١) رواه أحمد وأبو داوود.

وكان يوصي العمال كما أوصى أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل بالتيسير والتبشير، فقال: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه كثيراً، حتى قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً قط أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان له عرفاء كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

وكان زيد بن ثابت يترجم للنبي صلى الله عليه وسلم، قال زيد بن ثابت: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود قال: «**إني والله ما آمن يهود على كتاب**»، قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم[2]، وكان هناك شعراء ينافحون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الدعوة منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك وكان هناك خطباء منهم ثابت بن قيس، وكان هناك قادة للجيوش وكان المسجد مركز الحياة السياسية والاجتماعية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستخلف على المدينة إذا غاب عنها لغزوة أو غيرها، وكان صلى الله عليه وسلم يعرف أصحابه معرفة دقيقة ويعرف ما يتميز به، الواحد منهم من المزايا، فكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأقرأ في ذلك حديث أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أرحم أمتي بأمتي أبو**

---

[1] أخرجه البخارى ومسلم، الرقابة الإدارية، محمد الأمين، ص: ٨٠.
[2] الرقابة الإدارية، محمد الأمين الموريتاني، ص: ٨٠.

بكر وأشدهم في دين الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ بن كعب، ولكل قوم أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يعيّن الأكفاء مهما تأخر إسلامهم كما عيَّن خالد بن الوليد بعد إسلامه، ولم يكن يعين من لا قدرة له على إدارة الأمور مهما كانت سابقته وفضله ولذلك قال لأبي ذر: «**يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم**»[2] ، وكان لا يولي من سأل الإمارة ولا من حرص عليها ، ونصح عبد الرحمن بن سمرة، قال له: «**لا تسأل الإمارة**»[3] ، وقام النبي صلى الله عليه وسلم بعملية إحصاء ، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس**»، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل، فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف[4] .

قال ابن حجر: وفي الحديث مشروعية كتابة دواوين الجيش وقد يتعين ذلك عند الاحتياج إلى تمييز من يصلح للمقاتلة ممن لا يصلح[5] .

---

[1] سنن الترمذي، الحديث رقم: ٣٧٩٣، ٣٧٩٤.
[2] رواه مسلم، الرقابة الإدارية، ص: ٨٢.
[3] الرقابة الإدارية، ص: ٨٢ رواه مسلم.
[4] البخاري، الرقابة الإدارية، ص: ٨٢.
[5] الرقابة الإدارية، ص: ٨٣.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعيِّن الوالي فيقوم بكل المهمات القضائية والتنفيذية، ولم يكن هناك خوف من تسلط الوالي واستغلاله لسلطاته، وكان الولاة يؤمُّون الناس في الصلوات ويجبون الزكاة، فيأخذونها من الأغنياء ويوزعونها على الفقراء وكانت الموارد المالية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم تقتصر على الزكاة والغنائم، والفيء والجزية، وكانت تصرف في المصارف التي حددها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيت مال، بل كان يقسم الفيء من يومه.

وقد بلغ كتَّاب الوحي تسعة وعشرين كاتباً[1].

ومن التوجيهات الإدارية المستنبطة من سنة النبي صلى الله عليه وسلم:

ـ أن التكليف بقدر الطاقة، والأحاديث في ذلك معروفة مثل حديث الصحيحين: «**وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»، وحديث: «**خذوا من العمل ما تُطيقون**»، رواه البخاري، وقول الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة، آية: ٢٨٦).

ـ أن يكون الخطاب على قدر الفهم كما قال عبد الله بن مسعود: ما أنت بمحدث قوماً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

ـ اختيار الظرف المناسب للتوجيه.

[1] السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم العمري (٢/ ٥٩٨).

ـ تقديم الأهم على المهم.

ـ التيسير والتبشير فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**يسِّروا ولا تعسروا وبشِّروا ولا تنفروا**»[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً[2].

ـ التقويم الذاتي فالمرء مسؤول عن رقابة نفسه وتقويم تصرفاته «**فالكّيِس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع هواها وتمنى على الله الأماني**»[3].

وقد دلَّت السنة النبوية على أن هناك خصالاً يعتبر توفرها أساساً لصلاحية المرشح للولاية:

- ـ توفر الكفاءة الإدارية.
- ـ الالتزام بحدود الشرع واجتناب ما يخالف الدين.
- ـ التوفر على عمله والانقطاع له بما في ذلك منع الاحتجاب.
- ـ التمتع بالثقة والرضا من المرؤوسين والرعية، قال صلى الله عليه وسلم: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم**»[1].

---

[1] البخاري، ك العلم، الرقابة الإدارية، ص: ٨٤.
[2] البخاري، الرقابة الإدارية، ص: ٨٤.
[3] الحاكم في المستدرك (١/ ١٢٥) صحيح على شرط البخاري.

- ـ التحلي بنقاء الذمة وطهارة اليد، والتنزه عن استغلال المنصب في الابتزاز، سواء بالرشوة أو باستغلال النفوذ للكسب والإثراء[1].

أما التقدم في السن فليس شرطاً، فقد عيَّن صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد وكان في حدود العشرين، وعيَّن عتاب بن أسيد أميراً على مكة، وكان في حدود العشرين، وعيَّن علياً رضي الله عنه قاضيا في اليمن وكان دون الثلاثين، وعيَّن عثمان بن أبي العاص على الطائف بعد إسلام ثقيف وكان أحدثهم سناً، لأنه كان حريصاً على التفقه في الدين[2].

٧ـ الاقتصاد:

أدّت هجرة المسلمين إلى المدينة، إلى زيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الدولة الناشئة، وشرع القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم يحل هذه الأزمة بطرق عديدة، وأساليب متنوعة، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفة التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب أكبر عدد ممكن من فقراء المهاجرين، واهتمَّ بدراسة الأوضاع الاقتصادية في المدينة، فرأى: أن القوة الاقتصادية بيد اليهود، وأنهم يملكون السوق التجارية في المدينة وأموالها ويتحكمون في الأسعار والسِّلع ويحتكرونها، ويستغلون

---

[1] الرقابة الإدارية، ص: ٨٤.
[2] المصدر نفسه، ص: ٨٥.

حاجة الناس، فكان لابدَّ من بناء سوق للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثروة والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام وأخلاقه الرفيعة في عالم التجارة، فحدَّد صلى الله عليه وسلم مكاناً للسوق في غرب المسجد النبوي، وخطه برجله وقال: «**هذا سوقكم، فلا ينتقضنَّ، ولا يضربَّن عليه خراج**»[1].

وقد قامت السُّوق في عهده صلى الله عليه وسلم رحبة واسعة وقد حظي السوق باهتمام النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ورعايته، فتعهده بالإشراف، والمراقبة، ووضع له ضوابط، وسنَّ له آداباً، وطهّره من كثير من بيوع الجاهلية؛ المشتملة على الغبن، والغرر[2]، والغشِّ والخداع كما عُني صلى الله بحرّيته، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشراء، بين الجميع على السَّواء[3].

وقد أرسى صلى الله عليه وسلم آداباً كثيرة، وحرمات عديدة لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولكي يصبح قدوة لأسواق الأمّة على مر الدهور وكرّ العصور، وتوالي الأزمان، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملة من الآداب التي كان يأمر بها أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السوق وإشرافه عليه، ومتابعة سير المعاملات فيه، فقد كان صلى الله

---

[1] سنن ابن ماجه، الحديث رقم: ٢٢٣٣.

[2] أي: بيع ما يجهله المتبايعان.

[3] أحكام السوق في الإسلام، أحمد درويش، ص: ٣٥، ٣٦.

عليه وسلم لا يرى منكراً إلا غيره، وأزاله، ولا معروفاً إلا أقرّه، ورغَّب في المواظبة عليه والالتزام به، مستمداً كل ذلك من توجيهات وتعليمات ربه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم، آية: ٣-٤) .

ومن هذه الآداب:

- يُسَنُّ في حق الداخل إلى السوق أن يذكر الله - تعالى - ابتداءً ويحمده، ويثني عليه، وذلك لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «**من دخل السوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير؛ كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتاً في الجنة**»[1] .

- يكره لمن يدخل السوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج فقد ورد في صفته صلى الله عليه وسلم: أنه؛ ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخّاب[2] في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو، ويغفر[3] ، فالصَّخب مذموم بذاته، فكيف إذا كان في الأسواق التي هي مجمع الناس من كلِ جنس ؟

- ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار، والأوساخ؛ لكي لا يُؤذى المسلمون في حركة سيرهم، ولا بالرّوائح الكريهة، وقد حثَّ صلى الله عليه وسلم على النظافة، ونهى عن عدمها، وخاصة في طرقات الناس، وأسواقهم،

---

[1] سنن الترمذي، الحديث رقم: ٣٤٢٨.
[2] السَّخب: ويقال: الصَّخب: رفع الصّوت بالخصام.
[3] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢١٢٥.

وذلك لما فيها من الضَّرر قال صلى الله عليه وسلم: «**اتقوا اللعَّانين**»، قالوا: وما اللَّعَّانان يا رسول الله؟ قال: «**الذي يتخلىَّ في طريق الناس، أو في ظلهم**»[1].

ـ الاحتراز في حمله السَّلاح لمن دخل السُّوق، ومعه سلاح، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «**إذا مرّ أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا ومعه نبل**[2]**، فليمسك على نصالها**»[3]، أو قال: «**فليقبض بكفِّه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء**»[4]، ويقاس عليه الأسلحة، مع ما فيها من خطر محقق عند أدنى ملامسة لها[5].

ـ الأمر بالوفاء بالعقود، والعهود، وسائر الالتزامات والتحذير من نقضها، أو الغدر فيها، قال تعالى:﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل، آية: ٩١).

ـ السهولة واليسر والمسامحة في البيع والشراء، ونحوهما من صنوف التجارة، قال صلى الله عليه وسلم: «**رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى**»[6].

ـ الصدق والبيان وعدم الكتمان من أهم الآداب التي يجب أن تسري بين الناس في معاملاتهم؛ فقد أثنى صلى الله عليه وسلم على التَّاجر الصادق في معاملته، الأمين في أخذه وعطائه، وبيَّن: أنه يحشر يوم القيامة مع النبيين، والصِّدِّيقين، والشهداء،

---

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٦٩.
[2] النَّبل: السهام العربية، ولا واحد لها من لفظها.
[3] النصل: حديدة السهم والرمح والسيف ما ليس له مقبض.
[4] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٧٠٧٥.
[5] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (١/ ٥٣٥).
[6] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٠٧٦.

وحسن أولئك رفيقا، قال صلى الله عليه وسلم: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء**»[١]، وفي لفظ: «**يوم القيامة**»[٢].

ـ وجوب الابتعاد عن الأيمان الكاذبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للربح**»[٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه يُنفق ثم يمحق**»[٤].

فالحالف يروِّج سلعته وينفقها، لكن هذا الرّواج وذلك الإنفاق موضع لنقصان البركة ومظنة له في المال، بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها، إما سرقاً أو حرقاً، أو غرقاً، أو غصباً، أو نهباً، أو عوارض ينفق فيها من أمراض وغيرها.

هذه بعض الآداب والتوجيهات النبوية، تتعلّق بآداب التعامل في السُّوق الإسلامي، ممّا كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين، وضعف أسواق اليهود؛ وبذلك استطاع المسلمون أن يسيطروا على الاقتصاد في المدينة، ويتحكّموا فيه، وهكذا قهروا اليهود في أدق اختصاصاتهم[٥].

ولقد تطوَّرت تلك التعاليم والآداب مع توسُّع الدولة، ونزول التشريعات، وأصبح للتجارة علم وفقه ومبادئ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه في الدين[٦].

---

[١] سنن الترمذي، الحديث رقم: ١٢٠٩.
[٢] سنن ابن ماجه، الحديث رقم: ٢١٣٩.
[٣] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٠٨٧.
[٤] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٦٠٧.
[٥] في ظلال السيرة النبوية لأبي فارس، ص: ٧٠.
[٦] أحكام السوق في الإسلام، ص: ٥٣.

إن للأسواق في الإسلام مكانة عالية ومنزلة سامية وذلك نظراً لأهمّيتها الماليّة والاقتصادية في حياة الناس؛ حيث أنها موضع التعامل والمبادلات فيما بينهم، وعن طريقه يحصل كل فرد على أموره المعيشية، وحاجته الضرورية ومستلزماته الخاصة والعامة، ولذلك حظي السوق الإسلامي بالتوجيهات[1] .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن آفة اقتصادية واجتماعية خطيرة، أثرت على دين الناس ودنياهم ألا وهي نقص الميزان، والمكيال، فقد كان هذا العمل يخالف ويناقض النهج الذي أنزله الله من عنده؛ ليتعامل الناس بمقتضاه، ذلك النهج هو العدل في كل شيء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى، آية: ١٧) .

والميزان: هو العدل[2]، والموازين والمكاييل آلات لإقامة العدل، ولذا أمر الله بإيفائها، ونهى عن نقصها .

ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام، آية: ١٥٢) .

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (الإسراء، آية: ٣٥) .

وتوعَّد الله المطففين بالويل، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُون * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (المطففين، آية: ١-٥) .

---

[1] السيرة النبوية للصَّلَّابي (١/ ٥٣١).
[2] زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٧٧).

فتعلم الصحابة رضي الله عنهم من قصة شعيب: أن نقص الميزان والمكيال تعطيل للمنهج الإلهي، ومخالفة للأوامر الربانية، وتعرض لسخط الجبار، وعذابه في الدنيا والآخرة. إن هذا العمل له ضرره على دنيا الناس، لأنه يجلب الشدة بدل الرخاء، وغلاء الأسعار بدل رخصها ويؤدي إلى إضرار بمعايش الناس، ولذلك حاربته الدولة الإسلامية بالمدينة[1] .

إن نقص الميزان والمكيال، كان من الأسباب التي أدّت إلى هلاك قوم شعيب، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود، آية: ٩٥) .

كانت قصة شعيب مع قومه من ضمن المنهج النبوي في تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ولذلك فهموا: أن الانحراف عن المنهج الرباني معناه الدمار والهلاك، وأن شمولية هذا الدين تدخل في شؤون حياتهم كافة.

إن المنهج الرباني، عالج المشكلة الاقتصادية عن طريق القصص القرآني، لكي يتعظ الناس، ويعتبروا بمن مضى من الأقوام، ولم يترك الجانب التشريعي التعبدي الذي له أثر في البناء التنظيمي التربوي، فقد كان المولى ـ عز وجلّ ـ يرعى هذه الأمة وينقل خطاها، لكي تكون مؤهّلة لحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، ولا فرق في وسط هذهِ الدولة بين الأمور الصَّغيرة، والأمور الكبيرة، لأنها كلها تعمل لرفع بنائها ووقوفها شامخة أمام الأعاصير التي تحتمل مواجهتها، ومن هذه الشعائر التعبديّة التي فرضت في

[1] أسباب هلاك الأمم السابقة، سعيد محمد، ص: ٤٤٦.

السَّنتين الأوليين من الهجرة: الزكاة؛ وزكاة الفطر، والصيام، ونلاحظ سنة التدرج في بناء المجتمع المسلم ومراعاته لواقع الناس، والانتقال بهم نحو الأفضل دون اعتساف، أو تعجيل، بل كلُّ شيء في وقته[1] .

أ ـ تشريع فريضة الصِّيام:

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى الصيام وجعله ركنا من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، آية: ١٨٣) .

وامتدح الله سبحانه شهر الصِّيام، واختصه من بين سائر الشهور لإنزال القرآن العظيم، فقال ـ عز وجل ـ : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة، آية: ١٨٥) .

[1] درسات في عصر النبوة للشجاع، ص: ١٦٦ ـ ١٦٨.

وقد وضحت الآية الكريمة الأولى الثّمرة العظمى التي يحظى بها الصّائمون المخلصون، ألا وهي بلوغ درجة التقوى " لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " فالصيام بالنسبة للأمة المسلمة مدرسة فريدة، ودورة تدريبية على طهارة النفوس لكي تتخلع من آفاتها ، وتتحلى بالفضائل، وترتقي في مدارج التقوى، والصَّلاح[1] .

ولأهمّية الصِّيام في تربية المجتمع المسلم، فقد رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم في أيام الصيام، وحثَّ على صيامها ، ورغَّب في الأجر والمثوبة من الله تعالى، وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحة أبوابها طيلة السنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلَّما أحسَّ بقسوة في قلبه، وحاجة لترويض نفسه ورغبة في المزيد من الأجر، والفضل عند الله سبحانه وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من صام يوماً في سبيل الله؛ بَعّدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً**»[2] .

ب. تشريع زكاة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه شرَّع الله. سبحانه وتعالى. زكاة الفطر وهي على حر أو عبد، ذكر أو أنثى، صغير أو كبير من المسلمين. والحكمة من فرضية هذه الزكاة، وإلزام المسلمين بها ظاهرة وجلية، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : فرض

[1] السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٠٦).
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم:٢٨٤٠.

رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرّفث، وطعمة للمساكين، من أدّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصَّلاة فهي صدقة من الصدقات.

ففي هذا الحديث النص على أن الحكمة مركبة من أمرين[1]:

- ـ يتعلق بالصَّوم في شهر رمضان، فإن النفوس مجبولة على الخطأ، والتقصير، والوقوع في لغو القول؛ الذي لا فائدة فيه، أو فيه ضرر من الكلام الباطل، ونحو ذلك، ممّا لا يسلم الإنسان منه غالباً، فجاءت هذه في ختام الشهر تطهيراً للصّائم ممّا خالط صومه من ذلك.

- ـ إغناء المحتاج في يوم العيد، الذي يعقب الفطر من رمضان، فهذا يوم يسعد فيه المجتمع المسلم كله، فينبغي أن يعمَّ هذا السرور على الجميع، فشرعت هذه الزكاة؛ لكفِّ هؤلاء عن ذُلِّ السُّؤال، واستجداء الناس، لذلك كانت خاصَّة بالفقراء، والمساكين، لا تعطى لغيرهم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم: "طعمة للمساكين"؛ ولذلك نرى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعلها شيئاً كثيراً يعجز كثير من الناس عنه، بل جعل الواجب شيئاً قليلاً،

[1] منهج الإسلام في تركيبة النفس (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

مما يسهل على الناس، ولا يشقُّ عليهم من غالب قوت البلد، حتى يتمكن من أدائها كثير من المسلمين؛ فيحصل الغناء بذلك لهؤلاء المحتاجين، فما أعظم هذا الدين[1]، ولهذه الزكاة أحكام وتفصيلات تطلب من كتب الفقه[2].

ج. صلاة العيد:

وفي هذه السنة صلَّى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العيد، فكانت أوّل صلاة صلاَّها، وخرج بالناس إلى المصلَّى يهلّلون الله ويكبرونه ويعظمونه؛ شكراً على ما أفاء عليهم من النعم المتتالية.

إن العيد موسم من مواسم الخير، والتعاطف، والتحابب، وكان من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه إذا صلى العيد، ذكَّر، وأنذر، ورغَّب، ورهَّب، فيتسابق في مضمار البذل والعطاء الرّجال والنساء، والصغار، والكبار[3].

د. تشريع الزكاة:

وفي السنة الثانية للهجرة شرَّع الله الزكاة؛ التي هي ركن من أركان الإسلام وكان ذلك بعد شهر رمضان؛ لأن تشريع الزكاة العامة كان بعد زكاة الفطر، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً، يدلُّ على هذا ما رواه الأئمة: أحمد، وابن خزيمة،

---

[1] المال في القرآن الكريم، سليمان الحصين، ص: ٣٣٤.
[2] السيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ١٠٩).
[3] المصدر السابق (٢/ ١١٠).

والنسائي، وابن ماجه، والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت الزكاة، فلم يأمرنا، ولم ينهنا ونحن فعله[1].

قال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح[2]، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أن مشروعية الزكاة إنما كانت بالمدينة في السنة الثانية.

فالزكاة في العهد المكي كانت مطلقة من القيود والحدود وكانت موكولة إلى إيمان الأفراد، وأريحيتهم وشعورهم بواجب الأخوة نحو إخوانهم من المؤمنين، فقد يكفي في ذلك القليل من المال، وقد تقتضي الحاجة بذل الكثير، أو الأكثر[3].

فكانت الآيات المكيَّة تهتمُّ بجانب التربية، والتوجيه، وتحث على رعاية الفقراء والمساكين، بأساليب متنوعة، منها: أن طعام المساكين من لوازم الإيمان، ففي سورة المدثر - وهي من أوائل ما نزل من القرآن - يعرض القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الآخرة، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين، في جناتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة، وقد أطبقت عليهم النيران، فيسألونها عمّا

[1] صحيح سنن النسائي للألباني، رقم: ٢٥٠٦.
[2] فتح الباري (٣/ ٢٠٧).
[3] فقه الزكاة، د. يوسف القرضاوي (١/ ٧٧).

أحلَّ بهم هذا العذاب، فكان من أسبابه وموجباته: إهمال حق المسكين، وتركه لأنياب الجوع والعُري تنهشه، وهم عنه معرضون[1] .

ـ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المدثر، آية: ٣٨ـ٤٦)

ولم تقف عناية القرآن المكي عند الدعوة إلى الرحمة بالمسكين والترغيب في إطعامه، ورعايته، والترهيب من إهماله، والقسوة عليه، بل تجاوز ذلك، فجعل في عنق كل مؤمن حقًّا للمساكين، أن يحضَّ غيره على إطعامه، ورعايته، وجعل ترك هذا الحضِّ قرين الكفر بالله العظيم، وموجباً لسُخطه ـ سبحانه ـ وعذابه في الآخرة.

ـ قال تعالى في شأن أصحاب "الشمال": ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة، آية: ٣٠ ـ ٣٢) .

---

[1] المصدر السابق نفسه (١/ ٧٠).

وهذه الآيات المزلزلة للقلوب، المنذرة بالعذاب، هي التي جعلت مثل أبي الدرداء رضي الله عنه يقول لامرأته: يا أمَّ الدرداء، إن لله سلسلة ولم تزل تغلي بها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تُلقى في أعناق الناس، وقد نجّانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحُضِّي على طعام المسكين يا أمَّ الدَّرداء[1] .

أما القرآن المدني، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعة لها أرض، وكيان وسلطان، فلهذا اتخذت التكاليف الإسلامية صورة جديدة ملائمة لهذا الطور: صورة التجديد والتخصيص، بعد الإطلاق والتعميم، صورة قوانين إلزامية، بعد أن كانت وصايا توجيهية فحسب، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوة والسُّلطان، مع اعتمادها على الضمير والإيمان، وظهر هذا الاتجاه المدني في الزكاة فحدَّد الشارع الأموال التي تجب فيها وشروط وجوبها، والمقادير الواجبة، والجهات التي تُصرف لها، وفيها، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها[2]، وأكَّد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، فريضة الزكاة، وبيَّن مكانتها في دين الله وأنها أحد الأركان الأساسية لهذا الدِّين، ورغب في أدائها، ورهَّب من منعها بأحاديث شتّى وأساليب متنوعة.

وأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه: أن أركان الإسلام خمسة، بدأها بالشهادتين، وثنَّاها بالصلاة، وثلثها بالزكاة، فالزكاة في السُّنة ـ كما في القرآن ـ ثالثة دعائم الإسلام: التي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها[3]، وعندما طبَّق المسلمون هذا

[1] فقه الزكاة (١/ ٧٠).
[2] المصدر نفسه (١/ ٧٨).
[3] المصدر نفسه (١/ ٨٩).

الرُّكن كما أمر الله تعالى، وكما شرع رسوله صلى الله عليه وسلم، تحققت أهداف عظيمة في المجتمع، وبرزت آثارها في حياة الفرد، والمجتمع[1] .

- **.فمن آثار الزكاة على الفرد:**

ـ الوقاية من الشُحِّ:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، آية: ٩) .

ـ تنمية المال وزيادته:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ، آية: ٣٩) .

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم، آية: ٧) .

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة، آية: ٢٧٦) .

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (١/ ٥٤١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ما من يوم يصبح فيه العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط مُمسكاً تلفاً**»[1]، وهكذا يتم تطهير نفس المسلم آفة الشح، والبخل، ويسارع إلى الإنفاق، موقناً بفضل الله ووعده الذي لا يتخلف بالرِّزق الواسع[2].

-حصول الأمن في الدُّنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة، آية: ٢٧٤).

فهم في أمن وسعادة، وراحة البال، لأنهم أدّوا ما أمرهم الله تعالى به، وانتهوا عمّا نهاهم الله عنه.

- **-ومن آثار الزكاة على المجتمع:**

حصول المحبة بين الأغنياء والفقراء، وشيوع الأمن والطمأنينة في أوسطه، وشعور الأفراد فيما بينهم: أنهم كالجسد الواحد قال صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى[1].

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ١٤٤٢.
[2] منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٤٩).

ومن الآثار أيضاً حفظ التوازن الاجتماعي[2] .

عندما كانت الزكاة تجمع من كل من تجب عليه، وتُنفق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام، كان المجتمع الإسلامي يعيش في رخاء ورغد، وتمتع بالطيبات، وتآلف، وتآخٍ، وتحابب، فقد روى الرُّواة: أنه في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب الناس، واغتنوا، حتى إنهم بحثوا عن مستحق للصَّدقة، فلم يجدوا، فما كان منهم إلا أن اشتروا بها عبيداً، وأعتقوهم لوجه الله، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدّاً لم تبلغه إلا أمم قليلة اليوم، وذلك بفضل تشريع الزكاة[3] .

التنمية الاقتصادية في الدولة المدنية الإسلامية:

تهتم الدولة بالإعداد المالي والقوة الاقتصادية وتجعلها في خدمة مواطنيها، وقيمها ومبادئها، وتعمل على تطوير ميدان الصناعة، والزراعة، والعقار، والاستيراد والتصدير والتجارة . . .الخ

وتحرص على تنمية الاقتصاد الإسلامي الذي سيكون له آثار على المجتمعات البشرية والتي من أهمها :

---

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٥٨٦.
[2] المال في القرآن الكريم، ص: ٢٤٠.
[3] السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١١٥).

أ - إنقاذ البشرية، من مساوئ الأنظمة الوضعية حتى أن علماء الغرب يقولون بذلك. يقول جاك أوستري: إن طريق الإنماء ليس محصوراً في المذهبين المعروفين، بل هناك مذهب اقتصادي ثالث راجح هو المذهب الإسلامي[1].

وبذلك يتحرر المسلمون من التبعية الاقتصادية ويبرز للعالم هذا النظام ومن هنا تأتي أهمية طرح النظام الاقتصادي في الإسلام وبيان الأحكام الشرعية لمعالجة جميع مشاكل الحياة.

ب- استغلال الموارد البشرية والمادية استغلالاً اقتصادياً يؤدي إلى الرفاهية للمواطنين مما يساعدهم على قيام الصناعات الثقيلة والانتعاش التجاري ووسائل القوة المادية والمعنوية التي تحقق للدولة وشعبها القوة والمنعة كل ذلك وفق برامج تنمية متكاملة ولا تبقى الدولة مجرد سوق مالي وسلعي للشرق أو الغرب.

ج- وجود الاقتصاد الإسلامي في الدولة المدنية الإسلامية يؤدي إلى الوحدة السياسية بين شعوب الإسلام، حيث إن الاقتصاد يراعي أحكام الشريعة كما أن وحدة الاقتصاد تؤدي إلى وحدة السياسة، وهذا ما تسعى إليه دول غير إسلامية مثل دول السوق الأوروبية المشتركة.

---

[1] الإسلام والتنمية الاقتصادية، جاك أوستري، ص: ١٠٠، ترجمة نبيل الطويل.

د ـ تحقيق القوة الاقتصادية والسياسية يؤدي إلى قوة الدولة المدنية الإسلامية والقيام برسالتها في الحياة وتساهم في ارتقاء شعبها وأمتها وجعلها خير أمة، وأقوى قوة فكرية وحضارية ومادية في العالم.

هـ ـ إذا بنى الفكر ـ وبخاصة الفكر الاقتصادي الإسلامي على أساس سليم من العقيدة والأسس الصحيحة، فإن الطريق إلى الاكتشافات والمخترعات الحديثة سيكون مفتوحاً، وستوظف المفاهيم إلى واقع حي عملي في معترك الحياة، وبذلك نستعلي بقوة الحق، وسلامة الفكر على الأفكار الدخيلة على الأمة الإسلامية.

إن العقيدة الإسلامية ما جاءت إلا لهداية البشر إلى ما فيه السعادة في الدارين[١]، والتي من ضمنها الجانب المادي الاقتصادي.

ولقد اهتم الإسلام بالموارد المالية وبيَّن طرق الكسب المشروع، كالبيوع والميراث والوصايا والهبات وغيرها، وأوضح طرق الكسب غير المشروع، كالربا والغرر والغش والاحتكار وغيرها وكانت موارد الدولة الإسلامية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده من الزكاة والغنائم والفيء، والخراج والتجارة. إن الدولة المدنية الإسلامية التي تسعى تقوية جوانبها الاقتصادية والمالية وتوظيفها في دعوة الله تعالى قد أخذت بسبب مهم من أسباب القوة والصمود ألا وهو:

- **ـالاكتفاء الذاتي:**

[١] النظام الاقتصادي في الإسلام لمحمود الخطيب، ص: ٧٥.

إن الدولة المدنية الإسلامية تعمل على الاكتفاء الذاتي لمواطنيها بمعنى أنها يجب أن يكون لديها من الخبرات والوسائل والأدوات ما يجعلها قادرة على إنتاج ما يفي بحاجتها المادية والمعنوية وسد ثغراتها المدنية والعسكرية، عن طريق ما يسميه، الفقهاء: فروض الكفاية، وهي تشمل كل علم أو عمل أو صناعة أو مهارة يقوم بها أمر الناس في دينهم أو دنياهم، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم، ولا يتحكم فيهم سواهم من الأمم الأخرى، وبغير هذا الاستغناء والاكتفاء، لن يتحقق لهم العزة التي كتب الله لهم في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون، آية: ٨) .

وبغيره كي يتحقق لهم الاستقلال والسيادة الحقيقية وهو ما ذكره القرآن ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء، آية: ١٤١) .

ولن يتحقق لهم مكان الأستاذية والشهادة على الأمم وهو المذكور في قوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة، آية: ١٤٣) .

فلا عزة لشعب يكون سلاحه من صنع غيره، يبيعها منه ما يشاء، متى شاء، بالشروط التي يشاء، ويكف يده عنها متى شاء وكيف شاء .

ولا سيادة حقيقية لشعب يعتمد على خبراء أجانب عنه، في أخص أموره، وأدق شؤونه وأخطر أسراره ولا استقلال لشعب لا يملك زراعة قوته في أرضه، ولا يجد الدواء لمرضاه، ولا يقدر على النهوض بصناعة ثقيلة، إلا باستيراد الآلة والخبرة من غيره .

الأهداف الاقتصادية في الدولة المدنية الإسلامية:

من أهداف الدولة الدولة الحديثة المسلمة أن تسلك بشعبها طريق الأكتفاء ، والتحرر من التبعية وتتمسك وتعمل على الوصول للأمور التي تعين على الأكتفاء والدولة الحديثة، تأسس اقتصادها بحيث يكون قادراً على الاستفادة والتعاون مع الاقتصاد العالمي ويكون اقتصادها متنوع وتنافسي وكفيل بأن يلبي احتياجات المواطنين الآنية والمستقبلية وتأمين فرص أفضل للجميع ومستوى عيش مرتفع .

- والدولة يقتصر دورها على الأمور التالية: المراقبة والتحفيز والتنظيم وتكفل حماية الكسب المشروع والقضاء على الفساد والغش والتلاعب والاحتكار .

- بناء اقتصاد معرفي يقوم على البحث، والتطوير والابتكار والتميز في ريادة الأعمال وتعليم رفيع المستوى هادف لتنمية الاقتصاد وتطوير المجتمع وبنية تحتية مادية ومعلوماتية متطورة .

ـ التوسع في الصناعات والخدمات ذات الميزة التنافسية المستمدة من الصناعات البترولية، أو غيرها على حساب ما يتوفر في الدولة.

ـ الاستغلال المسؤول، والأمثل للنفط "للدول البترولية" والغاز وخلق توازن بين الاحتياطي والإنتاج، وبين التوزيع الاقتصادي، ودرجة الاستنزاف.

ـ تطوير بنية تحتية كافية، وقوية قادرة على دعم النمو الاقتصادي المتوقع.

ـ تطوير قوة عمل تتميز بالمهارة الفائقة والإنتاجية العالية.

ـ تمكين الأسواق المالية من تمويل المشاريع والقطاعات الاقتصادية وبناء المؤسسات القادرة على تقديم الخدمات للمواطنين بكفاءة وتخضع لمعايير الشفافية والمساءلة والمحاسبة.

ـ التأكيد على ضرورة إنشاء أجهزة متخصصة للإحصاءات الرقمية للسكان، تتولى مهمة الرصد الدقيق للمواليد وإنشاء خرائط لكفالة المدن والمناطق الحضرية والذاتية على حد سواء والإحصاء الدقيق للسكان والمنشآت والمرافق وذلك بهدف استخدام تلك المعلومات في وضع خطط التنمية للدولة على نحو متوازن وعادل ويضمن توزيعاً منصفاً للثروات في البلاد.

أ.ضرورة التخطيط:

لابد من التخطيط القائم على الإحصاء الدقيق، والأرقام الحقيقية، والمعرفة اللازمة بالحاجات المطلوبة ومراتبها ومدى أهميتها، والإمكانات الموجودة، ومدى القدرة على تنميتها والوسائل الميسورة لتلبية الحاجات، والتطلع إلى الطموحات.

ب.تهيئة الطاقات البشرية وحسن توزيعها:

ويكون ذلك بتطوير الكفاءات البشرية المتنوعة في كل مجال تحتاج إليه، وأن تطور نظامها الإداري والمالي بحيث تنمي هذه الطاقات، وتحسن تجنيدها وتوزيعها على شتى الاختصاصات بالعدل، اهتداء بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة، آية: ١٢٢) ووضع كل إنسان في المكان المناسب له، والحذر من إسناد الأمر لغير أهله: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[١].

ومن ثم فالدولة المدنية الإسلامية تحرص على الثروة البشرية وتحافظ عليها وتعمل على تنميتها: جسمياً وعقلياً وروحياً وعملياً ومهنياً.

ج.حسن استغلال الموارد المتاحة:

---

[١] مشكاة المصابيح، رقم: ٥٤٣٩.

فالدولة المدنية الإسلامية لا تهدر شيئاً وتحافظ على الموارد المتاحة، وتعتبرها أمانة يجب أن ترعى ونعمة يجب أن يشكر الله عليها باستخدامها أحسن استخدام وأَمْثَله.

ويحسن بنا هنا إلى أن نشير إلى قوله تعالى في الوصية بمال اليتيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الإسراء، آية: ٣٤).

وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم بهذه الصيغة نفسها، فلم يكتفِ القرآن منا أن نقرب مال اليتيم بطريقة حسنة وحسب، بل بالتي هي أحسن، فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم والمحافظة عليه: إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، كان الواجب علينا أن نستخدم التي هي أحسن وأجود بل حرام علينا ألا نستخدم إلا التي هي أحسن، كما هو مفهوم التعبير بالنهي وأسلوب القصر.

ومال الشعب في مجموعه أشبه بمال اليتيم، والمؤسسات التي ترعاه أشبه بولي اليتيم ولهذا يجب أن نحافظ عليه وننميه بالتي هي أحسن.

د ـ التنسيق بين فروع الإنتاج:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا تبايعتم بالعينة[1]، ورضيتم بالزرع، وتبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم**»[2] .

ففي هذا الحديث إشارة إلى أن الاكتفاء بالزراعة وحدها وما يتبعها من الإخلاد إلى الحياة الخاصة المعبِّر عنها باتباع أذناب البقر، وترك الجهاد في سبيل الله، وما يطلبه من إعداد القوة، يُعرض الأمة لخطر الذل والاستعمار وهذا بالضرورة يحتاج إلى نوع من الصناعات لابد أن يتوافر في الأمة، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولقد أنزل الله في كتابه سورة الحديد تنبيهاً منه على أهمية هذا المعدن الخطير قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد، آية: ٢٥) ففي قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية وبهذا تكتمل في سلمها وحربها .

هـ. تشغيل الثروة النقدية:

بحيث تخرج النقود من قمقم "الكنز" إلى ساحة الحركة والعمل، فإن النقود لم تخلق لتحبس وتكتنز وإنما خلقت لتداول، وتنتقل من يد إلى يد: ثمناً لبيع أو أجراً لعمل، أو عين ينتفع بها، أو رأس مال لشركة أو مضاربة فهي وسيلة لأغراض شتى وليست غرضاً لذاتها .

---

[1] العينة: أن يبيع السلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه في الحال بأقل.
[2] صحيح الجامع الصغير، ص: ٤٣٣.

هذه بعض الخطوط العريضة للوصول إلى الاكتفاء الذاتي وتحرير الأمة من العبودية الاقتصادية لغيرها والاقتراب بها نحو تمكين دينها ، كما ننبه على أهمية توزيع الزكاة ورعاية أموال الأوقاف ووضعها في محلها الصحيح فيها من الثروات الهائلة فلابد من تحرير الأوقاف، فإنها تصل إلى المليارات في بلدان الشعوب الإسلامية ولم تستثمر كما ينبغي لكي ترتقي الشعوب وتقوى دولها .

٨ـ الإعلام:

أرشد القرآن الكريم الأمة إلى الأخذ بأسلوب الإعلام في دعوة الخلق ونهج نهجاً متميزاً في إيصال الحقائق إلى الناس، فمثلاً نرى القرآن الكريم جعل الأحداث مدخلاً إلى قلوب الناس وعقولهم، لإرشادهم وتوجيههم لما فيه السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

فنجده ينزل في كثير من الأحيان إثر حادثة أو سؤال مراعياً في ذلك الوقت المناسب وما نزل منه ابتداء فأسبابه قائمة في الواقع وإن لم يكن لحادثة معينة وقد سأل اليهود الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الظاهرة الغريبة، التي ما عهدوها من قبل في الكتب السماوية السابقة والتي كانت تنزل جملة واحدة.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قالت اليهود: يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، فنزل قوله تعالى. رداً على سؤالهم[1]: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان، آية: ٣٢-٣٣) .

إن نزول القرآن الكريم منجماً حسب الأحداث والوقائع كانت له أهداف إعلامية عظيمة لا يمكن تحقيقها في مدة قصيرة من الزمن إلا بهذا الأسلوب المعجز، ومن أهم هذه الأهداف الإعلامية:

أ- مساعدة الرسول صلى الله عليه وسلم على حل المشاكل الاجتماعية المتجددة، فمن ذلك أن عبد الله بن رواحة تزوج من أمة سوداء، بعد أن أعتقها إثر ضربه لها، وهي أمة مؤمنة فطعن عليه ناس من المسلمين، فقالوا: تزوج أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم[2]، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة، آية: ٢٢١) .

فكان العرف السائد في الجاهلية وحتى ظهور الإسلام أن التفاضل بين الناس بالأنساب والأحساب فقط، وكان هذا الحدث وما حصل فيه من استغراب وقيل وقال، قد أتاح الفرصة لإعلام الناس بمقاييس الإسلام الحقيقية في التفاضل بين الناس وهو

[1] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٤٢).
[2] تفسير الطبري (٢/ ٢٢٣).

تقوى الله عز وجل ـ والإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا المقياس فيه رفع من شأن المؤمن وإعلام بشرفه على الكافر، ولو كان هذا المؤمن عبداً أو أمة، وكما لا يخفى فإن فيه تصغيراً لشأن الكافر وإعلاماً بتفاهته ولو كان أشرف الناس في حسبه ونسبه، ونزول هذه الآيات عقب هذا الحديث هيأ النفوس وأثار انتباهها إعلام لكلا الطرفين بذلك[1] .

ب ـ **مساعدة الرسول صلى الله عليه وسلم** في الإجابة على الأسئلة الموجهة إليه من قبل المؤمنين أو الكافرين، فعندما بعث المشركون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن أمره فقالت اليهود: سلوه عن أشياء ثلاث، فإذا لم يجب عليها أو أجاب عنها جميعاً فهو ليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن الثالث فهو نبي وهذه الأمور الثلاثة هي:

ـ فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان من أمرهم ؟

ـ رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره ؟

ـ وعن الروح ؟

فسأله القرشيون عن هذه الأشياء، فوعدهم بالإجابة عليها في اليوم التالي ولم يقل: إن شاء الله، قال مجاهد: إن الوحي تأخر عنه اثنتي عشرة ليلة[2]، وقيل غير ذلك حتى كثر القيل والقال بين الناس وقال قائل قريش: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا

[1] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، محمد الصلابي، ص: ١٧.
[2] تفسير البغوي بهامش الخازن (٤/ ١٨١).

يخبرنا بشيء، واشتد الحزن على الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب ذلك حتى تهيأت نفوس الناس وتوترت أعصابهم والتفت أنظارهم لنتيجة هذا الحدث العظيم الذي يعتبر من أهم الأدلة والبراهين على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه مرسل من عند الله. نزل الوحي من الله يقول بشأن الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الكهف، آية: ٩) .

ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ (الكهف، آية: ٨٣) ونزل في الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء، آية: ٨٥) .

فأجاب عن اثنين من الأسئلة ولم يجب عن واحد الأمر الذي جعل القرشيين وغيرهم يوقنون بصدق دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه مرسل وأنه صادق أمين كما عهدوه وهكذا كان القرآن الكريم يجيب على كل سؤال يوحيه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان هذا السؤال من المؤمنين أو الكافرين أو كان لغرض التثبت والتأكد أو للاسترشاد والمعرفة[١]، ولقد تعددت الأغراض الإعلامية من نزول القرآن منجماً، فبالإضافة إلى ما ذكرنا ثمة أغراض أُخر منها: رفع معنوية الرسول صلى الله عليه وسلم من وقت لآخر بتبشيره بالنصر على الأعداء وحمايته، وفضح أعداء هذا الدين من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وتنبيه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من وقت لآخر عن أخطائهم، من ذلك ما وقع للرسول صلى الله عليه وسلم مع

---

١ الأسلوب الإعلامي للقرآن الكريم، ص: ١٨.

أسرى المشركين يوم بدر[1]، ولقد أرشد القرآن الكريم إلى الدستور الإعلامي في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر).

حيث استنبط متخصصو الإعلام من هذه السورة الدستور الإعلامي المكون من:

- العلم والإيمان.

- العمل الصالح.

- تبليغ الرسالة.

واستنبطوا قواعد الأسلوب الإعلامي في القرآن من قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل، آية: ١٢٥ ـ ١٢٧).

فهذه الآيات وضعت قواعداً وأسساً واضحة للأسلوب الإعلامي، القولي منه والعملي التي لابد للمسلمين أن يلتزموا بها عند قيامهم بتبليغ هذه الرسالة إلى الناس، إذا أرادوا تحقيق أهدافهم وغاياتهم[2]، ومن أهم هذه القواعد:

[1] المصدر نفسه، ص: ١٨ ـ ٢١.

[2] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: ١٨ ـ ٢١.

ـ الحكمة:

هي حسن اختيار الأسلوب الإعلامي المناسب للمخاطبين وتنويعه حسب الظروف والزمان والتدرج في إيصال الرسالة الإعلامية حتى لا يشق على المخاطبين استيعابها .

ـ الموعظة الحسنة:

هي التوجيهات التي يقدمها صاحب الرسالة في الناس عن طريق الأوامر والنواهي المقرونة بالترغيب والترهيب بقصد نصحهم وإرشادهم معتمداً على إيقاظ شعورهم ومحاولة إشارة انفعالاتهم نحو ما يدعوله بعد اطمئنانهم له نفسياً واقترابهم منه[١] .

ـ الجدال بالتي هي أحسن:

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى باطل يجادل باللين واللطف بلا تحامل عليه ولا تقبيح له حتى يطمئن إلى صاحب الرسالة ويشعر أن هدفه هو الوصول إلى الحقيقة لا غير .

ـ الجهاد:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ فلابدّ من الدفاع عن هذه العقيدة وعن حريتها وحرية القائمين على تبليغها : لكي لا تهون في نفوس الناس فالدعوة المهينة لا يعتنقها أحد[٢] .

---

[١] مذكرات في الدعوة الإسلامية، عبد الغفار عزيز، ص: ٥.
[٢] في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٠٢).

ـالقدوة الحسنة:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾ (النحل، آية: ١٢٦) فالعفو عند المقدرة في بعض الأحيان يكون أعمق أثراً وأكثر فائدة من الانتقام، والضرب بيد من حديد على يد الظالم يصبح حتمياً، لأن فيه دفع الضرر وإعلاماً لمن خلفهم ولكل من سولت له نفسه الإضرار بهذه الدعوة وأهلها أن هذا هو المصير الذي ينتظره، والجدير بالذكر أن هاتين القاعدتين أعني "الجهاد والقدوة الحسنة" يمثلان الأسلوب الإعلامي العملي في الإسلام[١]، وبعد أن أرشدنا القرآن الكريم إلى القواعد الأساسية للأسلوب الإعلامي الناجح الذي تنتهجه في نشر هذه الدعوة، أشار إشارة واضحة إلى ما سيلاقيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أساليب إعلامية مضادة شيطانية للقضاء على هذه الرسالة والنيل منها، فحثهم على الصبر في هذا الصراع الإعلامي المرير بين الحق والباطل وأن العاقبة ستكون له وللمؤمنين والخزي والفشل لأعداء هذا الدين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل، آية: ١٢٧-١٢٨).

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد انتهج هذا الدستور مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فأول ما نزل من القرآن الكريم هو إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بحقيقة "قاعدة التصور الإيماني العريض"[٢].

---

[١] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: ٣٥.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٥.

ـ قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق، آية: ١ ـ ٥) . فالله هو الذي خلق وهو الذي علمّ فمنه البدء والنشأة ومنه التعليم والمعرفة، والإنسان يتعلم ما يتعلم ويعلمّ ما يعلم، فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علمّ[1] .

وكانت هذه هي البداية مع الرسول صلى الله عليه وسلم فأول ما نزل عليه من القرآن الكريم كان الهدف منه إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بقاعدة التصور الإيماني والإيمان بها ، فلما علم هذه القاعدة وآمن بها أمره الله تعالى: بالعبادات الفاضلة والقاهرة عليه صلى الله عليه وسلم٢ ، ومن أهمها قراءة القرآن وصلاة الليل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل، آية: ١ ـ ٤) .

ولمّا علم الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة التصور الإيماني وعمل بمقتضاها صار عنده استعداد ذاتي لتصدير هذه الرسالة إلى الناس، فعندها أمره الله تعالى؛ بإعلان هذه الدعوة والصدع بها[3] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر، آية: ١ ـ ٣) .

كما أن القرآن الكريم غني بالأساليب الإعلامية سواء كانت قولية أو عملية، ففي القولية مثلاً: أسلوب الهدم والبناء ، والتقابل، والتبشير بغد أفضل، والجدل، والتهديد ، وتشويه الصورة، ومن الأساليب الإعلامية العملية: القدوة الحسنة، والعفو عند

---

[1] في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٩).
[2] تفسير السعدي (٧/ ٥٠٨).
[3] الأسلوب الإعلامي في القرآن، ص: ٣٦ إلى ٦٠.

المقدرة والثبات على الحق، ولقد مارس الرسول صلى الله عليه وسلم المنهج القرآني الإعلامي وقام ببعض الأعمال العظيمة التي حققت أهدافا إعلامية رفيعة وساهمت في انتشار هذا الدين والتمكين له في قلوب العباد وفي البلاد فمثلاً:

- **-الهجرة:**

اضطهد المكيون الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير في التخلص منه. كما مرّ معنا -قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال، آية: ٣٠) .

فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة، آية: ٤٠) .

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق متوجهاً إلى المدينة تنفيذاً لأمر الله تعالى له ولم يكن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خوفاً ولا هرباً من المشركين، بل تعليماً للأمة ضرورة أخذ الحيطة في الأزمات وليقف على تحركات قريش ويعلم مقاصدهم ولينكشف ما اعتزموا عليه .

وكان هذا العمل من الرسول صلى الله عليه وسلم من أبلغ الأساليب الإعلامية في الإسلام وكانت له آثار إعلامية في داخل مكة وخارجها ، فأهل مكة شعروا بأن هؤلاء لم يتركوا أهلهم ووطنهم وأموالهم إلا من أجل قوة إيمانهم بصدق ما هم عليه من حق،

كما أن هذه الهجرة أوجدت فراغاً كبيراً في مكة ولفت هذا الفراغ المكيين للتغيرات التي حدثت في مجتمعهم ومن أهمها ظهور هذا الدين.

ومن هنا كانت الهجرة أسلوباً إعلامياً فريداً قلّ أن يكون له مثيل في التاريخ[1].

- **بناء المسجد:**

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة، آية: ١٠٨).

سواء كانت هذه الآية نزلت في قباء أو المسجد النبوي الشريف فإن الملاحظ أن أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة هو بناء مسجد، ولم يكن الهدف الوحيد من هذا المسجد هو الصلاة بل كان مركزاً إسلامياً عاماً يجتمع فيه المسلمون من جميع القبائل ليتعلموا في أمور[2] دينهم.

وفي بناء المسجد إعلام لجميع المسلمين الموجودين في المدينة وغيرها أن هذا الدين دين الله وأنه يقضي على العصبيات مهما كانت وعلى أي أساس وجدت، وأن مقياس التفاضل فيه إنما هو بتقوى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، آية:١٣). فلو أقام المسجد في بيت من بيوت إحدى القبيلتين الموجودتين في المدينة لوجدت القبيلة

---

[1] فقه النصر والتمكين للصلّابي، ص: ٣٠٠.
[2] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: ٦٢.

الأخرى في نفسها شيئاً من ذلك واعتبرته تفضيلاً لها ، فكان هذا العمل من الرسول صلى الله عليه وسلم فيه من الحكمة ما لا يخفى.

والحقيقة أنه ما من مكان في الأرض يستطيع تحقيق ما يحققه المسجد من توحيد في الكلمة والجهود والقضاء على العصبيات إذا وجد من يحسن الاستفادة منه من الناحية الإعلامية[1] .

- .بيعة الرضوان:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح، آية: ١٨) .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة من المدينة قاصدين بيت الله الحرام للزيارة وكان هذا بعد غزوة الأحزاب بعام، فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشاً تستعد لقتالهم، فبعث إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه يقترح عليهم عقد صلح بين الفريقين، وسرت شائعة بأن عثمان قد قتل[2]، فلجأ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أسلوب إعلامي يشعر القرشيين بقوة المسلمين وأنهم على استعداد لقتالهم والانتصار عليهم، فجمع أصحابه ودعاهم إلى المبايعة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين وألا يفروا حتى يموتوا فلما علمت قريش بهذه

---

[1] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: ٦٢.
[2] المصدر نفسه، ص: ١٦١.

البيعة وأن المسلمين عازمون على الدخول في الحرب معهم دخل الرعب في قلوبهم واضطروا إلى المفاوضات السلمية التي كانت الهدف الأساسي للرسول صلى الله عليه وسلم من استخدام هذا الأسلوب وكانت قريش ترفض هذه المفاوضات فعقد معهم "هدنة الحديبية" التي ذكر الله تعالى ـ أنها فتح وامتن بها على رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح، آية: ١) .

- **ـالبعثات النبوية:**

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان، آية: ١) .

في هذه الآية الغاية التي من أجلها أنزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وهي إنذار العالمين وتخويفهم من بأسه ونقمته وبيان رضا الله من سخطه وفي هذا دلالة واضحة على أن هذه الرسالة عالمية: وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ومن نهج إلى نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده؛ ليكون للعالمين نذيراً[١] .

وإذا كانت هذه الدعوة عالمية فلا بد أن يكون إعلامها كذلك، فالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون مكلفون بتبليغ هذه الرسالة إلى جميع الناس بشتى الأساليب الإعلامية .

[١] في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٤٨).

ولذا فإننا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم عند أول فرصة وجدها بعد صلح الحديبية قام بإرسال البعوث الدينية إلى القبائل العربية المجاورة وإلى الأمم خارج الجزيرة العربية للتبشير بهذه الرسالة تنفيذاً لأمر الله تعالى بتعميم هذه الرسالة.

ولقد حقق هذا النوع من الأساليب عدّة أهداف، من أهمها:

- إشعار العرب والعجم وغيرهم: أن الإسلام ليس خاصاً بالعرب وحدهم ولكنه عام لجميع الناس.

- قبول هذه الدعوة والترحيب بها من قبل بعض الأمراء والملوك الموجهة إليهم، كما فعل المقوقس والنجاشي وإن كان البعض رفضها وأساء الرد على صاحبها كما فعل كسرى.

وهذا النوع من الأساليب يستخدم في عصرنا هذا التوثيق الروابط السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول عن طريق السفارات والمبعوثين الدبلوماسيين[١].

ومن خلال هذه المعالم القرآنية والممارسة النبوية الشريفة نتيقن أن الاهتمام بالإعلام وتوظيفه في خدمة أهداف الدولة الإسلامية من الوسائل المهمة واللازمة في حركة الحياة.

إن للإعلام أهميته الخطيرة في العصر الحديث، وقد نال اهتماماً بالغاً من كل الدول حتى أنشئت له كليات خاصة وهي "كليات الإعلام" وأنشئت له وزارات خاصة وهي وزارات الإعلام التي تشرف على سائر وسائل الإعلام في الدولة ويعين وزير لها من

---

[١] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: ٦٥.

أكفاء الوزراء وأرشدهم ولاء لنظام الحكم القائم في الدولة، وذلك لخطره الكبير، وأهميته في هذا العصر الذي انتشرت فيه وتقدمت العلوم الحديثة والمخترعات المتعددة والنظريات المختلفة . فالإعلام تأثيره على الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والمجتمع الدولي كله، ويتضح أهمية الإعلام في الآتي:

ـ تزويد الناس بالمعلومات والحقائق وغيرها من ضروب المعرفة، وآخر الأحداث والأخبار، لتشبع رغبتهم الملحة للمعرفة، ويقوّموا الأمور التي حولهم في المجتمع تقويماً عادلاً ويفهموا طبيعة البيئة التي يعيشون فيها ويتمكنوا من التكيف معها والتجاوب مع أفرادها .

ـ نشر الوعي والحقائق الثابتة وتثقيف العقول وتنوير الأذهان، ومحاربة الخرافات والأساطير والبدع الضارة حتى يتغير أسلوب الحياة وتتغير الأفكار إلى الأفضل والأحسن وذلك بعرض الجوانب الإيجابية من الحياة عرضاً إعلامياً مناسباً، وعرض المعلومات والأفكار الحديثة والعصرية التي تؤدي إلى نهضة الأمة وزيادة وعيها وثقافتها .

ـ دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وإحداث التغيير فيها للأفضل وذلك بتخطيط إعلامي سليم يتم به نقل التقنية الحديثة إلى أقصى مدى من البث والدعاية ويلازم هذا الإعلام ويواكب خطوات التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وشرح حقائقه وأهدافه.

ـ المحافظة على شخصية المجتمع بكل معتقداته وآدابه وتراثه وتاريخه وتعميق كل هذا بوسائل الإعلام المختلفة حتى يظل المجتمع متماسكاً بشخصيته المعروفة باستمرار .

ـ تحقيق الترابط التام بين الحاكم والمحكوم بحيث تنسجم وتتوافق القاعدة العريضة من المجتمع مع القمة مما يدفع المجتمع إلى التقدم السريع والعمل البناء .

ـ قلب الحكومات لإيجاد الاضطرابات: فقد يقوم الإعلام بذلك نتيجة للصراع الفكري أو الصراع الاجتماعي أو الصراع السياسي فتذاع أخبار وحقائق تثير الناس مما يخلق الفوضى في المجتمع، ويكون من نتيجة ذلك تغيير الوزارات أو قلب الحكومات أو تقرير مصائر الدول أو إيجاد الحقد والكراهية نحو طبقة معينة أو مجتمع معين[١] .

---

[١] فقه النصر والتمكين، ص: ٢٩٤.

٩ ـ البناء التربوي والعلمي:

كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في العهد المدني مقدمات سورة البقرة، التي تحدثت عن صفات أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النفاق، ثم إشارة لأهل الكتاب ـ اليهود والنَّصارى ـ وكان التركيز على بيان حقيقة اليهود، لأنهم الذين تصدَّوا للدعوة الإسلامية من أول يوم دخلت فيه المدينة، وتتضمن سورة البقرة جانباً طويلاً منها لشرح صفة اليهود، وطباعهم[١]، والملاحظ: أن سورة البقرة ـ وهي من أوائل ما نزل في العهد المدني ـ كانت توجِّه الدعوة للناس أجمعين أن يدخلوا في دين الله، وأن يتوجهوا له بالعبادة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، آية: ٢١ ـ ٢٢).

وكانت الآيات القرآنية في العهد المدنيّ تحذِّر المسلمين من الاتّصاف بصفات المنافقين، وتوضِّح خطورة المنافقين على المجتمع النَّاشىء والدولة الجديدة، ولم تظهر حركة النفاق ضدَّ المجتمع، والدولة المسلمة إلا في العهد المدنيّ؛ لأن المسلمين في مكة لم يكونوا من القوَّة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم، فتتملقهم، وتتزلَّف إليهم في الظاهر، وتتآمر عليهم، وتكيد لهم، وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عام، والآيات تتضمن أوصاف، وأخبار،

---

[١] في ظلال القرآن (١/ ٢٧).

ومواقف المنافقين، والحملات عليهم كثيرة جداً، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها، وخاصَّة الطويلة والمتوسطة وهذا يعني: أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريباً، وإن كانت أخذت تضعف بعد نصفه الأوَّل[1].

واستمر القرآن المدنيُّ يتحدث عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والترغيب في الجنة والترهيب من النار، ويشرِّع الأحكام لتربية الأمَّة، ودعم مقومات الدولة وكانت مسيرة الأمة العلمية تتطور مع تطور مراحل الدّعوة، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم، والذين يتعلمون، ورويت أحاديث عن تقدير الرّسول صلى الله عليه وسلم للعلم، وتضمنت كتب الحديث أبواباً عن العلم.

لقد أيقنت الأمة: أن العلم من أهم مقومات نهضة الشعوب وبناء الدول ونجاح الحضارات وتربية الإنسان، وأنه من المستحيل أن يُمكِّن الله تعالى لشعب جاهل متخلف عن ركاب العلم، وإن الناظر للقرآن الكريم ليتراءى له في وضوح: أنه زاخر بالآيات التي ترفع من شان العلم، وتحث على طلبه وتحصيله، فقد جعل الله القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر[2]، الذي هو الجهل، والضَّلال، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر، آية: ٩).

---

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (١/ ٥٢٠).
[2] التمكين للأمة الإسلامية، ص: ٦٢.

وإن الشيء الوحيد؛ الذي أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطلب منه الزِّيادة هو العلم. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه، آية: ١١٤) كما أن أوّل خاصّية ميّز الله تعالى بها آدم عليه السلام هي. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة، آية: ٣١).

واستمر النبي صلى الله عليه وسلم في منهجه التربويّ يعلِّم أصحابه، ويذكرهم بالله ـ عز وجل ـ ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويوضح لهم دقائق الشريعة وأحكامها، وكانت توجيهه صلى الله عليه وسلم لأصحابه أحياناً فردياً، ومرّة جماعياً، وترك لنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثروة هائلة في وسائله التربوية في التعليم، وإلقاء الدروس، فقد راعى صلى الله عليه وسلم الوسائل التربويّة؛ التي تعين على الحفظ، وحسن التلقِّي، وتؤدِّي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فمن هذه الوسائل والمبادئ العظيمة النافعة[1]، في العهد المكي، والمدنيِّ:

أ ـ أهم هذه الوسائل والمبادئ التربوية:

ـ تكرار الحديث وإعادته:

[1] مناهج وآداب الصحابة، د. عبد الرحمن البر، ص: ٦٠.

فذلك أسهل في حفظه، وأعون على فهمه، وأدعى لاستيعابه ووعي معانيه، ولذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تكرار الحديث في غالب أحيانه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم: أَنَّه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً؛ حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم، فسلَّم عليهم؛ سلَّم عليهم ثلاثاً[1] .

ـ التأني في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان صلى الله عليه وسلم يتأَّنى ولا يستعجل في كلامه، بل يفصل بين كلمة وأخرى، حتَّى يسهل الحفظ ولا يقع التحريف والتَّغيير عند النَّقل، وبلغ من حرص النبيَّ صلى الله عليه وسلم على ذلك: أَنّه كان يسهل على السامع أن يعُدّ كلماته صلى الله عليه وسلم لو شاء[2] ، فقد روى عروة ابن الزبير ـ رحمه الله ـ أن عائشة رضي الله عنها قالت: ألا يُعجِبُك أبو فلان "أبو هريرة"؟ جاء، فجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه يُسمِعُني ذلك، وكنت أُسبح فقام قبل أن أقضي سُبحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم[3] .

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٩٥.
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٥٦٧.
[3] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٥٦٨.

ـ الاعتدال، وعدم الإملال:

كان صلى الله عليه وسلم يقتصد في تعليمه، في مقدارما يلقبه، وفي نوعه، وفي زمانه، حتى لا يملُّ الصحابة وحتى ينشطوا لحفظه ويسهل عليهم عقله، وفهمه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا[1] بالموعظة في الأيام، وكراهية السآمة علينا[2].

ـ ضرب الأمثال:

للمثل أثر بالغ في إيصال المعنى إلى العقل، والقلب، ذلك: أنه يقدّم المعنوي في صورة حسِّية، فيربطه بالواقع، ويقرّبه إلى الذهن؛ فضلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغة تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصة عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت، آية: ٤٣).

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر، آية: ٢١).

---

[1] يتخولنا: يتعهدنا.

[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٨.

إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سار النبي صلى الله عليه وسلم، فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل[1].

وقد أُلفت كتب متعددة عن الأمثال في الحديث النبوي.

[1] مناهج وآداب الصحابة، ص: ٦٥.

ـ طرح المسائل:

إن طرح السؤال من الوسائل التربوية المهمّة في ربط التواصل القوي بين السائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النَشاط الذهني الكامل؛ ولذلك استخدم النبي صلى الله عليه وسلم السؤال في صور متعددة لتعليم الصحابة؛ ممّا كان كبير الأثر في حسن فهمهم، وتمام حفظهم، فأحياناً يوجِّه النبي صلى الله عليه وسلم السؤال لمجرد الإثارة والتشويق، ولفت الانتباه، ويكون السؤال عندئذ بصيغة التنبيه "ألا" غالبا ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات** ؟» قالوا : بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد ،وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**»[1] .

وأحياناً يسألهم النبي صلى الله عليه وسلم عمَّا يعلم: أنهم لا علم لهم به، وأنهم سيكون علمه إلى الله ورسوله، وإنما يقصد إثارة انتباههم للموضوع ولفت أنظارهم إليه[2] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أتدرون ما المفلس** ؟» قالوا : المفلس فينا ما لا درهم له، ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة**

---

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٥١.
[2] مناهج وآداب الصحابة،، ص: ٦٧.

ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1] .

وأحياناً يسأل: فيحسن أحد الصحابة الإجابة، فيثني عليه، ويمدحه تشجيعاً له، وتحفيزاً لغيره، كما فعل مع أبيّ بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا أبا المنذر أتدري أيُّ أية من كتاب الله معك أعظم**؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر؛ أتدري أي أية من كتاب الله معك أعظم**؟» قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة، آية: ٢٥٥) . قال فضرب في صدري، وقال: «**والله؛ ليَهْنِك العلم**[2]**، أبا المنذر**»[3] .

فهذا الاستحسان والتشجيع يبعث المتعلم على الشعور بالارتياح، والثقة بالنفس ويدعوه إلى طلب وحفظ المزيد من العلم وتحصيله[4] .

-إلقاء المعاني العربية المثيرة للاهتمام، والدّاعية إلى الاستفسار، والسُّؤال:

ومن ألطف ذلك وأجمله، ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بالسوق، داخلاً من بعض العالية، والناس كَنَفَته[1] ، فمر بجدي أسكّ[2] ميت فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحبُّ: أن هذا له بدرهم**؟» . فقالوا:

---

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٥٨١.
[2] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٨١٠ ليكن العلم هنيئاً لك.
[3] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٨١٠.
[4] مناهج وآداب الصحابة، ص: ٦٩.

ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟. قال: «**أتحبون أنه لكم**؟». قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه، لأنه أسكُّ، فكيف وهو ميت؟. فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[٣].

ـ استخدام الوسائل التوضيحية:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يستخدم ما يسمى اليوم بالوسائل التوضيحية؛ لتقرير وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السامعين، وشغل كلِّ حواسهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه، ممّا يساعد على تمام وعيه، وحسن حفظه بكل ملابساته، ومن هذه الوسائل:

- **ـ التعبير بحركة اليد:** كتشبيكه صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، وهو يبيِّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشدُّ بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه»[٤].

- **ـ التعبير بالرَّسم:** فكان صلى الله عليه وسلم يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحية، تسترعي نظر الصحابة، ثم يأخذ في شرح مفردات ذلك التخطيط، وبيان المقصود منه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله

[١] كنفته: يعني: عن جانبه، والكنف الناحية والجانب.
[٢] جدي أسك: صغير الأذنين.
[٣]أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٧٣٤٤.
[٤] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٤٤٦.

صلى الله عليه وسلم خطاً بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، ثم خط خطوطا عن يمينه، وعن شماله، ثم قال: «**وهذه سُبل**» ـ قال يزيد ـ متفرقة ـ «على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام، آية: ١٥٣)[١] .

- **ـ التعبير برفع وإظهار الشّيء** موضع الحديث، كما فعل صلى الله عليه وسلم عند الحديث عن حُكم لبس الحرير والذهب، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم أخذ حريراً، فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً، فجعله في شماله، ثم قال: «**إن هذين حرام على ذكور أمتي**»[٢]، وزاد في رواية: «**حلٌ لإناثهم**» فجمع النبيُّ صلى الله عليه وسلم بين القول، وبين رفع الذّهب والحرير، وإظهارهما، حتى يجمع لهم السَّماع والمشاهدة، فيكون ذلك أوضح، وأعون على الحفظ .

- **ـ التعليم العملي بفعل الشيء** أمام الناس، كما فعل عندما صعد صلى الله عليه وسلم المنبر، فصلّى بحيث يراه الناس أجمعون، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله قام على المنبر، فاستقبل القبلة، وكبّر وقام الناس خلفه، فقرأ وركع، وركع الناس خلفه، ثمّ رفع رأسه، ثم رجع القهقرى[٣]، فسجد على الأرض، ثم عاد إلى

---

[١] مسند أحمد (١/ ٤٣٥).
[٢] سنن أبي داوود، الحديث رقم: ٤٠٥٧.
[٣] القهقرى: المشي إلى الخلف.

المنبر، ثم قرأ، ثم ركع، ثم رفع رأسه، ثم رجع، القهقرى، حتى سجد بالأرض، فلمّا فرغ؛ أقبل على الناس فقال: «**أيها الناس؛ إنما صنعت هذا لتأتّموا بي ولتعلّموا صلاتي**»[1] .

ـ استعمال العبارة اللطيفة والرّقيقة:

إن استعمال لطيف الخطاب، ورقيق العبارات يؤلف القلوب ويستميلها إلى الحق، ويدفع المستمعين إلى الوعي والحفظ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارة لطيفة رقيقة، وبخاصّة إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يُستحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة؛ إذ قدّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين، يُعلِّمهم، شفقة بهم، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط، فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه**»[2] .

لقد راعى المعلّم الأوّل صلى الله عليه وسلم جملة من المبادئ التربوية الكريمة، كانت غاية في السمو الخلقي والكمال العقلي، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصحابة، جعلت التوجيه يستقرُّ في قلوبهم، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معانٍ تربوية كريمة وهذه بعض المبادئ الرفيعة التي استعملها النبي صلى الله عليه وسلم .

ـ تشجيع المحسن والثناء عليه:

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٧٧.
[2] سنن أبو داوود، الحديث رقم: ٨.

ليزداد نشاطاً وإقبالاً على العلم والعمل، مثلما فعل مع أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ حين أثنى على قراءته وحُسن صوته بالقرآن الكريم، فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أُوتيت مزماراً من مزامير آل داوود**»[1].

ـ الإشفاق على المخطئ وعدم تعنيفه:

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقدِّر ظروف الناس، ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم ويتلطَّف في تصحيح أخطائهم، ويترفق في تعليمهم الصَّواب، ولا شك أن ذلك يملأ قلب المنصوح حبًّا للرسالة، وصحابها وحرصاً على حفظ الواقعة والتوجيه وتبليغها، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التصرف والتوجيه الرّقيق مهيَّأة لحفظ الواقعة بملابساتها كافة[2]، ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمُك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واُثكل أمياه[3]، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصُمتونني، لكنِّي سكتت، فلما صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبأبي هو وأمّي ما رأيت معلَّما

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٥٠٤٨.
[2] مناهج وآداب الصحابة في التعليم والتعلم، ص: ٧٤.
[3] و: حرف للندبة والحسرة والثكل فقدان المرأة ولدها.

قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني[1]، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصَّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن**»[2].

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى هذا الرّفق البالغ في التعليم وانظر أثر هذا الرّفق في نفس معاوية بن الحكم السُّلمي رضي الله عنه، وتأثره بحسن تعليمه صلى الله عليه وسلم.

ـ عدم التَّصريح، والاكتفاء بالتَّعريض فيما يذمُّ:

لِما في ذلك من مراعاة شعور المخطئ، والتأكيد على عموم التوجيه، ومن ذلك ما حدث مع عبد الله بن اللُّتبيّة رضي الله عنه حين استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني سُليم، فلما جاء حاسبه صلى الله عليه وسلم، فقال: هذا مالكم، وهذه هدية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فهلاَّ جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتُك؛ إن كنت صادقاً؟**» ثم خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال: «**أمّا بعد، فإني استعمل الرّجل منكم على العمل ممّا ولاّني الله، فيأتي، فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً**

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٥٣٧، ما كهرني: ما نهرني.
[2] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٥٣٧.

بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفنَّ أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار، أو شاه تيعر»[1]، ثم رفع يديه، حتى رُئِيَ بياض إبطيه يقول: «**اللهم هل بلغت**» بصر عيني وسمع أذني[2].

ـ الغضب والتعنيف؛ متى كان لذلك دواعٍ مهمة:

وذلك كأن يحدث خطأ شرعي من أشخاص لهم حيثية خاصة، أو تجاوز الخطأ حدود الفردية والجزئية وأخذ يمثل بداية فتنة، أو انحراف عن المنهج، على أن هذا الغضب يكون غضباً توجيهياً، من غير إسفاف، ولا إسراف؛ بل على قدر الحاجة، ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر، ومعه نسخة من التَّوراة؛ ليقرأها عليه صلى الله عليه وسلم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغيّر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ثكلتك الثَّواكل! ما ترى بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفس محمد بيده؛ لو بدا لكم موسى، فاتبعتموه، وتركتموني؛ لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيّاً،**

[1] الرُّغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليهما.
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٩٧٩.

وأدرك نبوّتي لاتّبعني»[1] . ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم من تطويل بعض أصحابه الصّلاة، وهم أئمة بعد أن كان صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك؛ لما فيه تعسير ومشقة، ولما يؤدّي إليه من فتنة لبعض الضعفاء والمعذورين، وذوي الأشغال، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال رجل: يا رسول الله لا أكاد أُدرك الصّلاة ممّا يطول بنا فلان؛ فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال: «**أيها الناس، إنكم مُنفِّرون، فمن صلى بالناس فليُخفِّف فإن فيهم المريض، والضعيف، وذا الحاجة**»[2] .

ومن ذلك غضبه من اختصام الصَّحابة وتجادلهم في القدر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «**بهذا أمرتم ؟ أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض ؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم**»[3] .

ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم حين يخالف الصحابة أمره ويصرُّون على المغالاة في الدين والتشديد على أنفسهم، ظنًا منهم أن ذلك أفضل ممَّا أمروا به، وأقرب إلى الله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

---

[1] مسند أحمد (٣/ ٣٣٨).
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٩٠.
[3] سنن ابن ماجه، الحديث رقم: ٨٥.

أمرهم، أمرهم من الأعمال ما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله؛ إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر فيغضب حتى يعرف في وجهه الغضب، ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»[1] .

ولم يكن غضب النبيِّ صلى الله عليه وسلم في تلك المواقف إلا عملاً توجيهياً ، وتعليمياً ؛ تحريضاً للصحابة على التيقظ وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء، فالواعظ من شأنه أن يكون في صورة الغضبان، لأنَّ مقامه يقتضي تكلف الانزعاج، لأنه في صورة المنذر، وكذا المعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم ونحوه، لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازماً في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين[2] .

ـ انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معانٍ مناسبة:

كان صلى الله عليه وسلم تحدث أمامه أحداث معينة، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنى معين يريد تعليمه للصحابة، ومشاكلته لتوجيه مناسب يريد بثّه لأصحابه، وعندئذ يكون هذا المعنى وذلك التوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبيٌ[3]، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها[4]

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٠.
[2] فتح الباري (١/ ١٨٧).
[3] سبي: أسرى.
[4] تتهيأ لأن تحلب.

تسقى[1]، إذا وجدت صبياً من السَّبي، أخذته فألعقته ببطنها، وأرضعته، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أتُرون**[2]**، هذه طارحة ولدها في النار**؟» قلنا: لا؛ وهي تقدر على ألا تطرحه[3]، فقال: «**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[4].

فانتهز صلى الله عليه وسلم المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه والمشهود فيها حنان الأم الفاقدة رضيعها إذ وجدته، وضرب بها المشاكلة والمشابهة برحمة الله تعالى، ليعرف الناس رحمة رب الناس بعباده[5].

ب. من أخلاق الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم للنبي صلى الله عليه وسلم:

حرص الصحابة رضي الله عنهم على الالتزام بآداب ومبادئ مهمة، كان لها أعظم الأثر في حسن الحفظ، وتمام الضبط، وقدرتهم على تبليغ دعوة الله للناس، ومن هذه الآداب والأخلاق:

- **.الإنصات التام، وحسن الاستماع:**

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلَّ في نفوس الصحابة،وأعظم من أن يلغوا إذا تحدَّث، أو ينشغلوا عنه إذا تكلَّم، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته، وإنَّما كانوا يلقون إليه أسماعهم، ويشهدون عقولهم، وقلوبهم، ويحفزون ذاكرتهم، فعن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الحديث عن سيرته صلى الله عليه وسلم في جلسائه، قال: . . وإذا تكلمَّ؛ أطرق جلساؤه كأنما على

[1] تسقي: تبتغي ولداً ترضعه لأن ثديها قد امتلأ.
[2] أترون: أتظنون.
[3] أي: لا تطرحه مادامت تقدر على حفظه معها ووقايته.
[4] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٥٩٩٩.
[5] الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم، عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٦٠.

رؤوسهم الطَّير، فإذا سكت، تكلَّموا[١]، قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ: وأصله: أن الغراب يقع على رأس البعير فيلقط منه القُراد، فلا يتحرَّك البعير؛ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القراد في رأس البعير فيؤلمه، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير[٢].

وأيًا ما كان أصل المثل، فهو يدل على السُّكون التام والإنصات الكامل، هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيماً له، وإجلالاً لحديثه[٣].

---

[١] الشمائل للترمذي رقم: ٣٥٢.
[٢] الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص: ٣٠.
[٣] مناهج وآداب الصحابة، ص: ٧٧.

- **.ترك التنازع وعدم مقاطعة المتحدث حتى يفرغ:**

وهذا من تمام الأدب، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين وإقبال بعضهم على بعض والمعين على سهولة الفهم، والتعلم، ففي حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه السابق في سيرته صلى الله عليه وسلم في جلسائه، قال: لا يتنازعون عنه الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتىَّ يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم . أي: أنّ من بدأ منهم الحديث والكلام، سكتوا حتى يفرغ أوّلاً من حديثه ولم يقاطعوه، أو ينازعوه، وبذلك يبقى المجلس على وقاره، وهيبته، ولا تختلط فيه الأصوات، ولا يحصل أدنى تشويش[1] .

- **.مراجعته صلى الله عليه وسلم فيما أشكل عليهم حتى يتبيَّن لهم:**

فمع كمال هيبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشدَّة تعظيمهم له، لم يكونوا يتردّدون في مراجعته صلى الله عليه وسلم لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمه، حتى يسهل حفظه بعد ذلك، ولا شك أن هذه المراجعة تعين على تمام الفهم، وحضور الوعي؛ فمن ذلك حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال النبيُ صلى الله عليه وسلم: «**إنِّي لأرجو ألا يدخل النار أحد إن شاء الله ـ ممّن شهد بدراً، والحديبية**»، قالت: قلت يا رسول الله أليس قد قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم، آية: ٧١) قال: «**ألم تسمعيه يقول**»: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم، آية: ٧٢)[2] .

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص: ٨٧.
[2] البخاري في الأدب المفرد رقم: ٩٧٠.

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنهم، الذي رحل جابر إليه فيه قال أنيس: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**يحشر الله العباد**» ـ أو قال: «**الناس عراة غُرلا[1] بهما**» . قال: قلنا : ما بهما ؟ قال: «**ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وعنده مظلمة، حتى أُقصه[2] منه حتى السَّلطمة**»، قال: قلنا : كيف ذا ، وإنما نأتي الله غُرلاً بُهما ؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**» قال: وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر، آية: ١٧) [3] .

وهكذا استفهم الصحابة عمّا خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثر كبير في الفهم، والوعي، والحفظ[4] .

- **ـ مذاكرة الحديث:**

كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا سمعوا شيئاً من النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وحملوا عنه علماً، جلسوا فتذاكروه فيما بينهم، وتراجعوه على ألسنتهم، تأكيداً لحفظه، وتقوية لاستيعابه، وضبطه، والعمل به، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

---

[1] غُرلا: جمع أغرل، وهو الأقلف، الغُرلة: القلفة.
[2] أقصّه: أمكنه من أخذ القصاص ممّن ظلمه.
[3] البخاري في الأدب، الحديث رقم: ٩٧٠.
[4] مناهج وآداب الصحابة، ص: ٨٠.

كنَّا نكون عند النبي صلى الله عليه وسلم فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا، تذاكرناه فيما بيننا، حتى نحفظه[1]، وقد بقي مبدأ المذاكرة قائماً بين الصحابة حتى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة ـ رحمه الله ـ قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا، تذاكروا العلم وقرؤوا سوره[2].

- **ـ السؤال بقصد العلم، والعمل:**

كانت أسئلة الصحابة بقصد العلم، والعمل، لا للعبث واللعب فكانت أسئلتهم مشفوعة بهذا القصد، لما علموا من كراهة النبي صلى الله عليه وسلم للمسائل العبثية التي لا تحتاج إليها، ولما سمعوا من تحذيره صلى الله عليه وسلم من كثرة السؤال، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل، وعابها[3].

قال النووي: المُراد: كراهة المسائل التي لا تحتاج إليها، لاسيما ما كان فيه هتك ستر مسلم، أو إشاعة فاحشة، أو شناعة على مسلم، أو مسلمة، قال العلماء: أمّا إذا كانت المسائل ممّا يحتاج إليه من أمور الدين، وقد وقع، فلا كراهة فيها[4].

- **ـ ترك التنطع وعدم السؤال عن المتشابه:**

---

[1] أخرجه الخطيب في الجامع (١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤).
[2] أخرجه الخطيب (٢/ ٨٦) رقم ١٢٢٩.
[3] أخرجه أبو خيثمه بإسناد صحيح، كتاب العلم، الحديث رقم: ٧٧.
[4] شرح النووي على مسلم (٣/ ٧٤١).

فقد التزموا ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الأدب، فلم يتكلّفوا السؤال عمّا سكت عنه الشارع، حتى لا يؤدّي السؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشرع، أو تحريم ما لم يحرِّمه فيكون السُّؤال قد أفضى إلى التضييق على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ﴾ (المائدة، آية: ١٠١ـ ١٠٢) .

وحذَّر الرَّسول صلى الله عليه وسلم من مثل ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن أعظم المسلمين جُرْما من سأل عن شيء لم يحرم فحُرِّم من أجل مسألته**»[١] .

- **ـ اغتنام خلوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومراعاة وقت سؤاله:**

كان الصحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب، للسُّؤال ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون في السؤال إثقالٌ، أو إرهاق أو نحو ذلك، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى الفجر، انحرفنا إليه، فمنا من يسأله عن القرآن ومنا من يسأله عن الفرائض، ومنا من يسأله عن الرُّؤيا[٢] .

- **ـ مراعاة أحواله وعدم الإلحاح عليه بالسؤال:**

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٧٢٨٩، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٣٥٨.
[٢] مجمع الزوائد (١/ ١٥٩).

وبخاصة؛ بعد أن نُهُوا عن السُّؤال؛ ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله صلى الله عليه وسلم، ويتحيَّنون،وينتظرون مجيء العقلاء منهم، ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يسمعون، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نُهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرّجل من أهل البادية العاقل، فيسأله: ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم: أن الله أرسلك قال: «**صدق**»[1] .

وهكذا استمر البناء التربوي في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليّة الواضحة منسجماً مع غرس فريضة التعلم والتعليم بين أفراد المجتمع المسلم، فكانت تلك التوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم، والأمة المسلمة والدولة المسلمة التي أسَّسها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا جزء من كل وغيض من فيض وتذكير وتنبيه لأهمية استمرار البناء التربوي والعلمي في الشعوب حتى بعد قيام الدولة وطبيعة الإسلام، يستفيد من كل جديد نافع وينسجم من تطور حركة الحياة في كل نواحيها .

التعليم في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٩٢.

على الدولة الحديثة أن تتبنى خطة أستراتيجية وطنية شاملة لجميع الجهات ذات الصلة بالعملية التعليمية والتربوية، والعمل على تنفيذها من خلال منهج علمي متكامل، للنهضة العلمية في جميع مراحل التعليم والتدريب، وتعزيز الجودة والكفاءة، والمساواة من خلال مؤسسات تتمتع بالاستقلالية، تتميز بالتنوع والاختيار وتخضع للمساءلة .

ـ وأن يعمم التعليم الأساسي وإعطاء أولوية للمناطق والفئات المحرومة .

ـ وأن يطور التعليم العام ليلبي حاجات الفرد والمجتمع في كافة المجالات .

ـ تنمية الاتجاهات العلمية لدى الأطفال مثل الإبداع وروح النقد والموضوعية وإكسابهم قدرات ومهارات تلائم نموهم الفكري والجسدي وتتصل ببيئتهم المباشرة .

ـ إعادة التوازن للمناطق النائية والمحرومة والبعيدة عن المدن الرئيسية وذلك من خلال تدعيمها ببناء المدارس والجامعات بها ، وإمدادها بالكوادر البشرية المدربة والمؤهلة للنهوض تعليمياً بأبنائها .

ـ تبني سياسة واضحة تكفل الاهتمام بالعنصر البشري في العملية التعليمية في الدولة من حيث حسن اختيار وتدريب وتأهيل المعلمين وأساتذة الجامعات، والعاملين في الحقل التعليمي، ورعايتهم صحياً ومادياً ، وذلك سعياً وراء خلق جيل جديد من القيادات التعليمية تؤمن بالحرية والعدل والمساواة .

ـ دمج تقنية المعلومات والاتصالات في العمليات التعليمية والإدارية والتطويرية .

ـ التواصل وزيادة الوعي بفوائد التعليم والتعليم التقني والتدريب المهني .

ـ قاعدة بيانات شاملة للتعليم، والتدريب، وأدلة التقييم والمؤثرات التوجيهية .

ـ دعم الطلبة لبذل أقصى طاقتهم، وإمكانياتهم، وتحسين مهاراتهم في اللغات، والعلوم والرياضيات في جميع مراحل التعليم .

ـ تطوير وتجويد التعليم بالمدارس الخاصة، ووضع نظام للاعتماد الوطني في الدولة .

ـ توفير خيارات تعليمية ملائمة للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة .

ـ تعزيز المشاركة المجتمعية وزيادة مساهمة كافة قطاعات المجتمع في التعليم العام .

ـ توفير بدائل متنوعة من برامج التعليم الأساسي للكبار .

ـ إعداد المواطنين للعمل في الاقتصاد المعرفي .

ـ إطار تنظيمي مطور للمواءمة بين التعليم التقني، والتدريب المهني من قطاع التعليم والتدريب واحتياجات سوق العمل .

ـ زيادة الإنفاق على التعليم والبحث العلمي .

ـ تعديل جدول أجور كافة العاملين بقطاعي التعليم العام والمالي، مع منح ميزات إضافية للعاملين منهم بالمناطق النائية، وزيادة الاعتماد على الكوادر الوطنية للعمل في حقل التعليم .

ـ تكفل الدولة مجانية التعليم في جميع مراحله، وإلزاميته حتى المرحلة الإعدادية على الأقل .

ـ دعم ورعاية المراكز العلمية والبحثية المتخصصة، وزيادة مخصصاتها من قبل الدولة، والحفاظ على استقلاليتها .

ـ وضع آلية ومنهج يكفل التواصل بين المواطنين المقيمين في الخارج من العلماء والأكاديميين في شتى المجالات والاستفادة من خبراتهم، ونقل الناجح من تجارب الدول التي يعملون بها إلى داخل الوطن بغية الاستفادة مما يمكن تطبيقه منها .

ـ تبني نظام تعليمي يربح عقيدة التوحيد ومبادئ الحرية والعدالة والمساواة وينشر ثقافة قبول الآخر، ويدعو للحوار، ويؤمن بالعمل الجماعي، وروح الفريق، والمبادرة، والإيجابية، ويرعى القيم والأخلاق والتقاليد الصالحة والثوابت .

ـ متابعة كل ما يستجد في النظم التعليمية النافعة وتوفيرها بما يرقى إلى مستوى الأنظمة التعليمية العالمية المتميزة ويكفل الربط بين نتائج التعليم والاحتياجات الحالية والمستقبلية لسوق العمل .

ـ وضع منهج متكامل للنهوض بتعليم النساء في الشرائح العمرية المتقدمة الأمر الذي سيساهم لا محالة في إعداد أمهات متعلمات وواعيات يعملن على تحسين أوضاع الأسرة كعنصر مؤثر في التكوين الاجتماعي والاهتمام بمواكبة المرأة للتعليم والتربية مثل الرجل .

١٠ ـ القانون والسلطة القضائية:

كانت دولة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحكمها قوانين وتشريعات مستمده من كتاب الله وتعاليمه صلى الله عليه وسلم وطبيعة القانون الإسلامي أنه ليس هناك شعبة من شعب الحياة إلا للشريعة حكم تأخذ فيها بيدنا وتضمن لنا فيها الهداية والتوجيه وتواكب التغير والرقي والنماء إلى أبد الدهر وتلبي القوانين المستمدة من الشريعة الحاجات والمطالب المدنية المتصاعدة في كل عصر وفي كل مصر .

ومن القوانين ما هي قطعية لا يقبل التغيير منها :

ـ الأحكام الصريحة القطعية الواردة في القرآن والحديث الثابتة كحرمة الخمر ، والربا ، والميسر وحدود السرقة والزنا والقذف وأنصبة الوراثة من تركة الميت .

ـ القواعد العامة الواردة في القرآن والأحاديث الثابتة كحرمة كل مسكر ، وحرمة كل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراضٍ منهما ، وقوامية الرجال على النساء .

ـ الأحكام المقررة في القرآن والسنة لنجد بها حريتنا في الأعمال ولا نتجاوزها ، كحد أربع نساء لتعدد الزوجات، وحد ثلاث مرات للطلاق، وحد ثلث المال للوصية .

فهذا الجزء القطعي غير القابل للتغيير هي من أجزاء قانون الإسلام، وهو الذي يعين في حقيقة الأمر حدود مدنية الإسلام وصورتها الممتازة المخصوصة ومن المحال أن يشار إلى مدينة الإسلام وصورتها الممتازة المخصوصة ومن المحال أن يشار إلى

مدنية في الدنيا تستطيع البقاء والمحافظة على ذاتيتها ومقوماتها واستقلالها بدون أن يكون فيها عنصر لا يقبل التزحزح والتغيير وكل مدنية ليس فيها عنصر كهذا وكل شيء فيها قابل للنسخ والتغيير والتعديل، فما هي بمدنية مستقلة أصلاً وإنما هي مادة مذابة يمكن في كل وقت أن تفرغ في كل قالب وتشكل بشكله[1] .

ولي دراسة مستقبيلة بإذن الله تعالى موسعة عن دولة القانون في الإسلام وفق مشروع فكري نهضوي، يتحدث عن الدستور والمواطنة، والمساواة والحريات، وحقوق الإنسان . . .الخ

إن غاية التشريع الإسلامي هي إسعاد الناس وإصلاحهم وتيسير أمرهم في رفع الحرج عنهم .

ـ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء، آية: ٢٦ ـ ٢٨) .

إذن فإصلاح دنيا الناس أساس وتطبيق أحكام الحدود والقصاص وغيره والإجراءات الوقائية إنما هو محافظة على ذلك الإصلاح، حتى لا يعكر صفوه بفتنة محارب عدواني أو شهواني زانٍ، أو لص سارق، وملحد مارق. إن من أهداف التشريعات والقوانين إنزال منهج الإسلام في دنيا الناس والذي يدور حول مصالح ثلاث:

---

[1] نظرية الإسلام وهديه، أبو الأعلى المودودي، ص: ١٤٨.

- .درء المفاسد المعروف عند أهل الأصول بالضروريات.

- .جلب المصالح المعروف عندهم بالحاجيات.

- .الجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات.

المعروف عند الأصوليين بالتحسينات والتتميمات[1]، وبإقامة التشريعات الربانية والقوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية تتحقق هذه المصالح وبالتالي تصلح أحوال الدنيا وتستقيم على منهج الله، ومن ثم يكون ذلك صلاحاً لآخرة الناس أيضاً.

وعلى وجه الإجمال يمكننا تتبع مقاصد الشريعة في الحكم الإسلامي بإلقاء نظرة على تشريعاته الهادفة وقوانينه النافعة لتحقيق تلك الغايات السامية.

أ.درء المفاسد:

وهو المعبر عنه بالضروريات، والمراد به درؤها عن ستة أشياء:

- **.الدين:**

جاءت أحكام الشرع حاسمة في درء أي مفسدة قد تلحق بالدين، فكان أن شرّع الإسلام الجهاد ليدفع الفتنة وإعلاء كلمة الله، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ﴾ (البقرة، آية: ١٩٣).

[1] الموافقات للشاطبي (٢/ ٨ ـ ١٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ (الأنفال، آية: ٣٩) .

فالأولى في قتال من بدأ المسلمين بالظلم، والثانية استغرقت كل فتنة وكل كفر من كافر، فالقتال فيها محاربة للكفر الذي يعتبر أكبر تهديد للدين[١] .

وقد روى أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**» وقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه[٢]،

وهو قتال من أجل نشر الدعوة للدين وقال صلى الله عليه وسلم: «**من بدّل دينه فاقتلوه**»[٣]، وهو من أجل حفظ الدين من عبث المرتدين.

- **.النفس:**

جاءت الشريعة بأحكام القصاص للمحافظة على النفس ودرء المفاسد الناشئة عن شيوع القتل، وسفك الدماء المحرمة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾(البقرة، آية: ١٧٨) .

---

[١] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي.
[٢] أخرجه مسلم، ك الإيمان، الحديث رقم: ٣٢.
[٣] أخرجه البخاري (الفتح ٦/ ١٣٧).

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، آية: ١٧٩) .

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ (الإسراء، آية: ٣٣) .

- **ـ العقل:**

وقد جاءت الأحكام الشرعية بالمحافظة على العقل الذي ميّز الله به الإنسان وكرمه، فحرمت الخمر التي تذهب بالعقل وتغيبه،

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة، آية: ٩٠ ـ ٩١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**»[١] .

وشرع إقامة الحد على السكران، وحرم المخدرات والمفترات التي تؤثر على سلامة العقل[٢] .

- **ـ النسب:**

جاءت الشريعة لدفع كل مفسدة تلحق بالأنساب فإلى جانب تحريم الزنا وإيجاد الحد على الزناة المعلوم من قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (الإسراء، آية: ٣٢) .

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٥٥٨٥.

[٢] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٦٧).

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور، آية: ٢) وإلى حد الرجم للمحصنين إلى جانب ذلك أوجبت الشريعة العدة على النساء عند مفارقة الأزواج بطلاق أو موت، لئلا يختلط ماء الرجل بماء رجل آخر في رحم المرأة، قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة، آية: ٢٨٨) .

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة، آية: ٢٣٤) .

وكذلك منعت الشريعة نكاح الحامل حتى تضع، حتى لا يسقى الرجل بما غيره، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق، آية: ٤) .

وهذه الأحكام كلها يؤول تنفيذها إلى القاضي المسلم في الدولة المسلمة إضافة إلى مسؤولية الناس عن تبعاتها في المجتمع المسلم.

- **.العرض:**

إن شريعة الإسلام كفلت كل وسائل حماية العرض، فنهت المسلم عن أن يتكلم في حق أخيه لأي ثمن يؤذيه، وأوجبت حد القذف ثمانين جلدة على من يقذف، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (النور، آية: ٤) .

وحرمت الشريعة الغيبة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ (الحجرات، آية: ١٢) .

ونهت عن اللمز والتنابز بالألقاب: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (الحجرات، آية: ١١) .

وحرمت اللعن والسب وعموم الأذى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب، آية: ٥٨) .

- **-المال:**

وجاءت الشريعة الإسلامية لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ (البقرة، آية: ١٨٨) .

وحرَّم السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة، آية: ٣٨) .

وكذلك حرم الإسلام الربا الذي يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (آل العمران، آية: ١٣٠) .

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب واختلاس والغلول وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال، وكل ذلك داخل في أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه وبتوفر الحماية لهذه العناصر الستة، يقصد المنهج التشريعي الإسلامي إلى إصلاح حياة الناس بدرء المفاسد عنها، وقد قدم الإسلام درء المفاسد على جلب المصالح رغم أن درءها هو في حد ذاته مصلحة كبرى؛ إذ بذلك يمنع الشر أولاً، ثم يستجلب الخير فهذا إصلاح بالسلب وذلك بالإيجاب وهو ما نعنيه من قولنا: إن الدعوة إلى الله من أهداف التمكين وذلك بإنزال منهج الإسلام الإصلاحي في دنيا الناس والذي بدوره حول مصالح ثلاث: درء المفاسد، وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق.

- **.جلب المصالح: المعروف بالحاجيات:**

إن جلب المصالح مجاله واسع رحيب، فالشريعة فتحت أبواب الحلال على مصاريعها في جميع مناحي المعيشة وجعلت هذا الحلال أسلوب الحياة، تحرسه الدولة وتزيل العقبات من طريقه، فكل نوع من التكسب والإنتاج والصناعة والفن والثقافة لا يدخل في محرم إنما هو من حقوق الناس، ليس لأحد أن يحرّمه عليهم أو يحرمهم منه قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة، آية: ١٩٨).

وقد جاء الشرع المطهر بإباحة المصالح المتبادلة بين الفرد المجتمع على الوجه المشروع؛ ليستجلب كل مصلحته من الآخر، كالبيوع والإجارات والمساقاة والمضاربة وما يجري مجرى ذلك.

- **.إحياء مكارم الأخلاق ومحاسن العادات بين الناس:**

إن الرسول صلى الله عليه وسلم الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام قال: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1]، إن الدولة الإسلامية من واجبها أن تهيئ جواً تنشأ فيه مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال من الطهر والعفاف والنقاء، تحرسه شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحميه شعيرة الحسبة، والدعوة إلى الله؛ لتكون أساساً للمعاملة بين الصغير والكبير، والغني والفقير، والولي والمولى والراعي، والرعية.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام قاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتعليم الأمة أمر دينها وترتب على ذلك فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد:

[1] مسند أحمد (٢/ ٣٨١).

ـ **إقامة الملة** والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هي العليا ، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾(الحج، آية: ٤٠) .

إن الإنسان لابد له من أمر ونهي ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر[١] .

ـ رفع العقوبات العامة:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى، آية: ٣٠) وقال أيضاً في الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران، آية: ١٦٥) .

فالكفر والمعاصي بأنواعها سبب للمصائب والمهالك قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ (هود، آية: ١١٦) .

وهذه إشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، أو يكون فيها من يستنكر ذلك، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد فهي أمم مهددة بالدمار والهلاك كما هي سنة الله تعالى ـ في خلقه، وبهذا تعلم أن دعاة الإصلاح المناهضون للطغيان والظلم والفساد هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا

[١] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخالد السبت، ص: ٧٢.

يبرز قيمة كفاح المكافحين للخير والصلاح الواقفين للظلم والفساد، إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم، ولدينهم فحسب، إنما هم يحاولون بهذا دون أممهم وغضب الله واستحقاق النكال والضياع[1] .

ـ **استنزال الرحمة** من الله تعالى، لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم، آية: ٧) والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من أنواع العبودية .

ـ **شدة ظهر المؤمن وتقويته** ورفع عزيمته وإرغام أنف المنافق؛ فإن المؤمن يقوى ويعتز حينما ينتشر الخير والصلاح ويُوحد الله لا يشرك به وتضمحل المنكرات على إثر ذلك بينما يخنس المنافق بذلك ويكون ذلك سبباً لغمه وضيق صدره وحسرته، لأنه لا يحب ظهور هذا الأمر ولا ذيوعه بين الخلق[2] .

قال الثوري: إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن وإذا نهيت عن المنكر رغمت ألف المنافق[3] .

ـ **تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة**، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران، آية: ١١٠)، قال عمر رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤدِّ شرط فيها[4] .

---

[1] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، ص: ٧٢.
[2] المصدر نفسه، ص: ٧٧.
[3] فقه النصر والتمكين، ص: ٤٨٩.
[4] المصدر نفسه، ص: ٤٨٩.

ـ **التجافي عن صفات المنافقين:** إن من اختص صفات المؤمنين القيام بهذا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ (التوبة، آية: ٧١)[١] .

- **.مرونة القوانين:**

مع التشريعات القطعية غير القابلة للتغيير والتعديل في ما يتعلق بحفظ الدين والنفوس، والأعراض والعقول والأموال وغير ذلك من الثوابت، فهناك بعد آخر في قانون الدولة يرحب بالتغير والرقي في كل حالات الزمان المتطورة وهو يشمل عدة أنواع .

ـ تعبير الأحكام أو تأويلها أو تفسيرها : هو المحاولة لفهم ألفاظ جاء بها حكم من أحكام الشريعة وتحديد معناها وغايتها وهو باب واسع جداً في الفقه الإسلامي فالذين لهم عقول ثاقبة وقلوب واعية وعيون نافذة إذا ما يتدبرون الكتاب والسنة، يجدون أمامهم مجالاً واسعاً للتغييرات المختلفة حتى في أحكامها القطعية الصريحة، فكل منهم يرجح ـ على حسب فهمه وبصيرته .

[١] فقه النصر والتمكين، ص: ٤٨٩.

تعبيراً من هذه التعبيرات على غيره محتاجاً بالدلائل والقرائن، وهذا الاختلاف في تعبير الأحكام ما زال له وجود بين أصحاب الفقه والعلم من الأمة منذ أول أمرها ولابدّ له أن يبقى مفتوحاً في المستقبل أيضاً .

ـ القياس: وهو تطبيق حكم ثبت من الشارع في قضية على قضية أخرى تماثلها ، أي بقياسها عليها .

ـ الاجتهاد: وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة، وتطبيقها في قضايا جديدة لا توجد لها النظائر والأشباه في الشريعة .

ـ الاستحسان: وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة في دائرة المباحث غير المحدودة على حسب الحاجات بحيث تتفق إلى أكبر درجة مع روح نظام الإسلام الشامل .

فهذه الأمور إذا تدبرتم ما فيها من الإمكانات، فهي دليل بأن القانون الإسلامي لا يضيق نطاقه في حين من الأحيان عن تلبية حاجات التمدن الإنساني المتزايدة المتجددة والوفاء بمطالب أحواله المتطورة[1] .

إن من اللازم لتفسير وتوضيح الأحكام أن يكون المرء متمكناً من لغة الشريعة وأسرارها محيطاً بالحالات التي فرضت فيها أحكامها متضلعاً من علم القرآن ومعرفة أسلوبه الخاص في البيان وأن تكون له نظرة واسعة في ذخائر الحديث، فمن اللازم للقياس أن يكون للمرء من الحس القانوني اللطيف ما يقدر معه عند قياس مسألة على أخرى أن يفهم وجوه المماثلة بينهما فهما تامان وإلا فإنه لا يكاد يسلم من الخطأ في تطبيق حكم إحداهما على الأخرى ومن اللازم للاجتهاد أن تكون للمرء بصيرة نافذة في

[1] نظرية الإسلام وهديه، ص: ١٥٠.

أحكام الشريعة وفهم جيد لشؤون الحياة من الوجهة الإسلامية الخالصة ومن اللازم للاستحسان أن يكون للمرء إلمام تام بطبيعة الإسلام وروح نظامه حتى لا يقترح في دائرة المباحات إلا بقوانين وضوابط تصلح بحق للانسجام في مجموعة هذا النظام وفوق كل هذه الكفاءات الفكرية والثقافية لابدّ لكل من يتولى هذا الأمر الجليل من شيء آخر في الحال بدونه أن ينال القانون الإسلامي شيئاً من الرقي والتقدم على الخطوط الصحيحة هو أن يكون على جانب عظيم من عزيمة اتباع الإسلام والمسؤولية أمام الله تبارك وتعالى؛ وليس هذا الأمر بالذي يصلح ليتولاه أناس غافلون عن الله والآخرة لا يطمحون بأبصارهم إلا إلى الأغراض والمنافع الدنيوية ممن قد تركوا عظمة وروعة الإسلام وأشربوا في قلوبهم حب حضارة غير حضارته، لا يمكن بحال أن يرزق الإسلام شيئاً من الرقي والتقدم على أيدي أمثال هؤلاء بل لا يكاد يرجى منهم إلا تشويه وجهه وتحريف كلماته[١] .

والطريق لإدخال الدولة الحديثة للمرجعية الإسلامية هو أن يعلن المجلس التأسيسي في تلك الدولة "أي البرلمان" .

ـ أن الشريعة الإسلامية مصدر جميع القوانين في الدولة .

ـ وأن كل قانون من قوانين تلك الدولة الجارية يلغى ويبطل إن كان معارضاً للشريعة الإسلامية، وأنه لا ينفذ في البلاد في المستقبل قانون يعارض الشريعة .

---

[١] المصدر نفسه.

ومن خطوات المهمة التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان مرجعية الدولة العليا أن زمام الدولة كان بأيدي يعرفون الإسلام ويريدون من أعماق قلوبهم ولذلك دخلوا في نواحي الحياة بكل ما يملكون من وسائل .

وإذا أردنا لحياتنا أن تسير على القوانين الربانية وتخضع لها لابد أن ينتقل زمام أمر هذه الدول بطريق الانتخابات البرلمانية والرئاسية إلى أيدى رجال يعرفون الإسلام ويؤمنون به ويتقربون إلى الله بذلك ويقيمون برسم نهج لإصلاح مختلف نواحي الحياة الاجتماعية إصلاحاً شاملاً ويستعينوا لهذا الغرض بكل ما للدولة من أسباب ووسائل فنغير نظام التعليم ونبذل قوى الإعلام والدعاية والنشر والخطابة والفضائيات في إصلاح الأفكار، وتطوير العقول، والأوضاع والمناهج الاجتماعية والمدنية كلها، وتطهير مصالح الحكومة ودوائر الشرطة والسجن والمحاكم والجيش ومؤسسات الدولة من الفساد والرشاوي والعمل على البناء الصحيح والسديد وفق فقه بناء الدول الحديثة الناجحة، بالمعايير الربانية ولا شك أن وسائل الدولة والجهاز الحكومي وإدارته إذ وقعت في أيدي أمينة ذات خبرة وكفاءة وقوة وأمانة قادرة على بناء دولة حديثة والارتقاء بالشعب مع منظومة من القوانين منظمة ومتزنة في عقدين من الزمان ولكي تنفذ القوانين المستمدة من القرآن والسنة في الناس يظهر دور القضاء في ذلك .

والسلطة القضائية عند علماء القانون هي: السلطة التي يعهد إليها بتفسير القانون وتطبيقه على الحوادث المعينة وأعضاؤها هم القضاة على اختلاف درجاتهم[1] .

---

[1] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، عطية عدلان، ص: ١٣٦.

ويراد بالسلطة القضائية في الإسلام: الجهة التي تملك إصدار الأحكام الشرعية وتبث في القضايا المتنازع فيها على ضوء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع علماء المسلمين والقياس الصحيح[1].

ولقد وجدت السلطة القضائية في الدولة الإسلامية في جميع عصورها ففي عصر النبوة كانت في يد النبي صلى الله عليه وسلم: وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول قاضٍ في الإسلام وكان قضاؤه ملزماً، فهو إذا قضى في حادثة كانت له صفتان: صفة المشرع . . فبيَّن القاعدة القانونية الواجب تطبيقها في الحادثة، ثم له أيضاً صفة القاضي التي يقضي بها في المنازعات ويقضي بها الخصومات[2].

ومن أمثلة قضاء رسول الله ما يلي:

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم، فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قل**»، قال: إن إبني كان عسيفاً[3] على هذا فزنى بامرأته وإني أخبرت أنَّ على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنَّما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا

---

[1] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٣٦.
[2] السياسة الدستورية للدولة الإسلامية للنجار، ص: ٤٤١.
[3] عسيفاً: أجير.

الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لأَقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردٌّ وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**»، فقال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجمت[1].

وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قضايا عديدة متعلقة بالنفوس والأعراض والأموال والعقول ووفق القوانين الربانية، وبيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بأنه يقضي بين الناس على حسب اجتهاده وما يظهر له بالحق، قال صلى الله عليه وسلم: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار**»[2]. ويستفاد من هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقضي بالاجتهاد فيما لم ينزل عليه فيه شيء[3]، وذلك بوصفه قاضياً يدل على هذا أنه ذكر ذلك في مقام إدلاء الخصوم بالحجج وقوله: «**تختصمون، فأقضي**»[4].

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمن قال: «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟**»، قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: «**فإن لم يكن في كتاب الله؟**»، قال: فبِسُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**فإن لم يكن في سنة رسول الله**

[1] متفق عليه أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٥٣٧.
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٧٤٨.
[3] السلطة التقديرية للقاضي، د. محمود بركات، ص: ٨٦.
[4] المصدر نفسه، ص: ٨٦.

صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله ؟»، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال:

«**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم**»[1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اخطأ فله أجر**»[2]، والحديث صريح في دعوة الحاكم إلى الاجتهاد وأن له أجراً حتى ولو أخطأ[3]، وليس معنى الخطأ هنا أنه أخطأ ما كلف ولكن أنه أخطأ النص فلم يصيبه بعدما بذل كبير مجهوده والاجتهاد لا يكون إلا من العالم أهل الاجتهاد[4] .

ومن تأمل القضايا التي حكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين له أنها كانت تسير على أسس ونظم قضائية غاية في العدالة والرشد والرقي منها:

ـ أن القضاء يكون بكتاب الله وبشريعة الله، وما وقع مخالفاً للشرع يرد .

ـ أن البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه .

ـ أن المدعي إذا لم يكن معه بينة ليس له على المدعي عليه إلا اليمين، أيًا كانت أخلاق المدعي عليه .

[1] سنن أبي داوود، الحديث رقم: ٣٥٩٢.
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٩١٩.
[3] السلطة التقديرية، ص: ٨٨.
[4] المصدر نفسه، ص: ٨٨.

ـ أن القاضي يحكم بما توافر لديه من أدلة مادية حتى ولو خالفت ما في ظنه أو علمه الخاص.

ـ أن القاضي لا يحكم إلا بعد استيفاء السماع من الخصمين.

ـ الحد إذا لم يبلغ القاضي أو الإمام جاز التعافي فيه وإسقاطه، أما إذا بلغ القاضي أو الإمام لم يجز إسقاطه ولا الشفاعة فيه.

وقد كان القضاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يمضي على أسس دستورية ونظم شرعية، جعلته أصلح قضاء عرفته البشرية[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتشفع في حد من حدود الله»، ثم قام فاختطب ثم قال: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[2].

كان نظام القضاء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحاً وافياً بالغرض، محققاً لحاجات الناس، صالحاً لأن يكون أساساً لنظام قضائي من الطراز الأول لأدق الأنظمة وأرقها[3].

---

[1] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٣٩.
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٢٤١ متفق عليه.
[3] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٤٣.

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقلت مسؤولية القضاء بعده إلى الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم، ولقد كانت السلطة القضائية والسلطة التنفيذية متحدتان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يباشر السلطتين، وكذلك ولاته في الأمصار، كعلي في اليمن وعتاب في مكة وكذلك كانت في عهد أبي بكر وصدراً من خلافة عمر؛ ثم لما اتسعت المسؤوليات في عهد عمر فصل القضاء عن السلطة التنفيذية، فكان عمر يرسل إلى المصر من الأمصار اثنين أحدهما والياً والآخر قاضياً[1].

وأصبح في عهده مبدأ فصل القضاء عن غيره من السلطات واضحاً في حياة الناس، ولم يكن استقلال ولاية القضاء مانعاً لعمر رضي الله عنه من أن يفصل في بعض القضايا، وربما ترك بعض ولاته يمارسون القضاء مع السلطة التنفيذية ويراسلهم في الشؤون القضائية[2]، ووضع الفاروق دستوراً قوياً في نظام القضاء والتقاضي، وقد اهتم كثير من أعلام الفقه الإسلامي شرح هذا الدستور والتعليق عليه، ونجد الدستور العمري في القضاء في رسالته لأبي موسى الأشعري وهذا نص الرسالة: بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في

---

[1] ....

[2] عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: ٢٧١.

حيفك[1] ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على المدعي، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، ومن ادعى حقًّا غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهي إليه، فإن بينه أعطيته بحقه وإن أعجزه ذلك أستحللت[2] عليه القضية فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، والمسلمون عدول[3] بعضهم على بعض إلى مجرباً عليه شهادة زور أو مجلوداً في حد أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان، ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم فيها قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال، ثم اعمد ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق، وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصوم فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر، ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس في نفسه شانه الله، فإن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام عيك ورحمة الله[4] .

قال ابن القيم: وهذا كتاب جليل، تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم[5] .

---

[1] حيفك: ظلمك.
[2] استحللت: سأله أن يجعله له.
[3] عدول: جمع عدل وهو المثل والنظير.
[4] إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٨٥).
[5] المصدر نفسه (٨٦/١).

وقد جمعت هذه الرسالة آداب القاضي وأصول المحاكمة، وقد شغلت العلماء بشرحها والتعليق عليها هذه القرون الطويلة ولا تزال موضع دهشة وإكبار لكل من يطلع عليها ، ولو لم يكن لعمر من الآثار غيرها لعُدَّ بها من كبار المفكرين والمشرعين، ولو كتبها رئيس دولة في هذه الأيام التي انتشرت فيها قوانين أصول المحاكمات، وصار البحث فيها مما هو مقرّر في المدارس لكانت كبيرة منه، فكيف وقد كتبها عمر منذ نحو أربعة عشر قرناً ، ولم ينقلها من كتاب ولا استمدها من أحد ، بل جاء بها من ذهنه ثمرة واحدة من آلاف الثمرات، للغرسة المباركة التي غرسها في قلبه محمد صلى الله عليه وسلم حين دخل عليه في دار الأرقم، فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[1] .

ويمكن للباحث من خلال رسائل عمر بن الخطاب رضي الله وحياته في زمن خلافته أن يستخرج ما يتعلق بالمؤسسة القضائية في الأرزاق والعزل، وأنواع القضاة وصفاتهم وما يجب عليهم ومصادر أحكامهم وخضوع الخليفة نفسه للقضاء وغير ذلك من المسائل المتعلقة بهذه المؤسسة[2] .

القضاء في الدوله الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

[1] أخبار عمر، علي طنطاوي، ص: ١٧٤.
[2] عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: ٢٧٣.

على الدولة الحديثة أن تطور المؤسسة القضائية، حتى يتحقق العدل ويرفع الظلم عن المواطنين وعليها أن تعمل نحو تأسيس بنية قضائية مستقلة تكون بمثابة صمام الأمان للمجتمع بكافة مؤسساته وأفراده، وضمانه جوهرية لاستقراره، وحفظ حقوق أفراده، وتشكل مع السلطتين التنفيذية والتشريعية دعامات وركائز النظام الشوري للدولة وقادرة على تحقيق العدالة الناجزة للكافة دون تمييز أو تفرقة، وذلك استرشاداً بالمعايير الدولية، وأحكام الشريعة الإسلامية وعليها أن تعمل على:

ـ إيجاد السبل التي تكفل حسن انتقاء المعينين في بداية السلم القضائي وذلك على أسس ومعايير مهنية وسلوكية صارمة، مع الالتزام بمعايير الشفافية، وتكافؤ الفرص.

ـ تمكين القضاء من القيام بدوره في الرقابة على أعمال السلطتين التشريعية والتنفيذية.

ـ عدم التدخل في أعمال القضاء من أي جهة كانت، والالتزام بالقضاء الطبيعي، ورفض كافة صنوف القضاء العسكري، أو الاستثنائي.

ـ وضع موازنة خاصة بمرفق القضاء تلحق بالموازنة العامة للدولة، بما يكفل استقلاليته مالياً وإدارياً عنها الأمر الذي سينعكس حتماً على استقلاله المهني.

ـ تحسين جدول مرتبات القضاة وسائر العاملين بمرفق العدالة، الأمر الذي يضمن كرامتهم، ويعينهم على أداء أعمالهم بجيذة ونزاهة وتجرد.

- ضرورة إلحاق أعضاء الهيئات القضائية الجدد فور تعيينهم بمراكز الدراسات القضائية المعتمدة سواء أكانت داخل القطر أو خارجها، لتأهيلهم علمياً وعملياً، ولا يقتصر الأمر في هذا الصدد على القضاة وأعضاء النيابة وإنما يتعداه إلى الخبراء وأعوان القضاة.

- إرساء مبدأ حصانة القاضي تفتيشاً، وتأديباً وعزلاً وترقية، ونقلاً، والعمل على أن تكون الجهة المنوطة بها التفتيش على أعمال القضاة غير تلك التي تتولى تأديبهم حتى لا تجمع تلك الأخيرة بين صفتي الخصم والحكم معاً مما يفت في عضد الحيدة والعدالة.

- جعل تبعية السجون لوزارة العدل أو لإشراف القضاء، لا للسلطة التنفيذية، بما يضمن عدم استخدام السياسة العقابية كوسيلة تنكيل وامتهان.

- ضرورة الاهتمام بالموظفين والمهنيين والمساعدين القانونيين وسائر العاملين في مجال القانون.

- رعاية حق القضاة في تشكيل الأندية، والروابط، والجمعيات التي تعبر عنهم وترعى مصالحهم.

- تدعيم سبل التعاون بين مؤسسة القضاء ومؤسسات المجتمع المدني.

- ضرورة التأكيد على دور المحكمة الدستورية العليا، وتفعيل دورها الرقابي على أعمال السلطتين التشريعية والتنفيذية، بما يكفل اتساق تلك الأعمال مع الدستور.

ـ القضاء على مشكلة بطء تنفيذ الأحكام وذلك من خلال تبني نظام قاضي التنفيذ ، وإيكال كل إشكاليات ومعوقات التنفيذ إليه، مع إعطائه الصلاحيات اللازمة لتذليل كافة العقبات التي تقف في سبيل ذلك .

ـ منح الهيئة القضائية سلطة واسعة في اختيار القضاة بناء على معايير موضوعية وعادلة ومتوازنة، وعلى أساس من الكفاءة والنزاهة والتأهيل، وبمعزل عن الأهواء السياسية، أو القبلية أو الجهوية أو غيرها .

ـ ضرورة أن يستلزم كل من يلج سبيل القضاء بتقديم إقرار بالذمة المالية له ولعائلته وذلك عند تعيينه ولدى تركه لعمله لأي سبب من الأسباب، وذلك دعماً لقواعد الشفافية والعدالة والمساءلة .

١١.السلطة التشريعية:

كانت السلطة التشريعية في عصر النبوة محصورة في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ما دام الأمر متعلقاً بالتشريع والأحكام ومسائل الحلال والحرام؛ لأنه كان يتلقى الوحي من الله تبارك وتعالى ويقوم بتبليغه والإعلام به وتطبيق أحكامه، ومع كون السلطة التشريعية، في عهده صلى الله عليه وسلم متمركزة من الناحيتين العضوية والموضوعية في يده وحده إلا أنه فيما لا يتصل بالتشريع وبالحل والحرمة كان يستشير فيه طوائف من أصحابه من ذوي الرأي[١] .

[١] الأحكام الشرعية للنوازل السياسة، ص: ١٣٠.

أ - وعندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم: انتقلت السلطة التشريعية بعد وفاته إلى المجتهدين من الصحابة، وسلطانهم في التشريع مرتبط بأمرين، الأول: فهم النص وبيان الحكم الذي يدل عليه، والثاني: قياس ما لا نص فيه على ما فيه نص بواسطة الاجتهاد وتخريج العلة وبذلك تخالف السلطة التشريعية في عهد الصحابة السلطة التشريعية التي تضع القوانين في الأمم الأخرى؛ إذ الثانية في منتهى الحرية في وضع القوانين أو تفسيرها أو إلغائها أو تعديلها[١] .

أما الأولى فهي مقيدة بالنصوص الشرعية وبالقواعد والمقاصد الشرعية، ودائرة في عملها تحت سيادة الشرع[٢]، ومع اختصاصهم بالتشريع كانوا يشيرون على الخليفة مثلما يشير عليه سائر الكبار من أهل الحل والعقد ، وذلك فيما لا يدخل في الحل والحرمة من أمور الرأي والحرب والمكيدة والمسائل المتعلقة بتدبير الشأن العام .

وقد كان الخليفة يشارك السلطة التشريعية في استخلاص الأحكام، لأنه كان من جملة المجتهدين، وكان أحياناً يعمل بما أداه إليه اجتهاده ما لم يحل بينه وبين العمل به ظهور رأي جماعة المجتهدين عليه، وإذا كان من حق الخليفة أن يجتهد برأيه فيما يعرض من مسائل، فإنه يجتهد بوصفه من المجتهدين لا بوصفه رئيساً للسلطة التنفيذية، كذلك القاضي الذي تتوفر فيه صفات الاجتهاد فهو إن حكم برأيه فإنما يجتهد بوصفه من المجتهدين لا بوصفه من أعضاء السلطة القضائية[٣] .

---

[١] السياسة الدستورية للدولة، إبراهيم النجار، ص: ٤٢٨.
[٢] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٣٠.
[٣] سنن الدارمي، الحديث رقم: ١٦١.

روى أبو عبيدة في كتاب القضاء عن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ؟، فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا أو بكذا فإن لم يجد سنة سنها النبي صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيه على شيء قضى به وكان عمر يفعل ذلك.

فرجع الخليفة إلى المجتهدين لسؤالهم عن علم علموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسألة المعروضة ثم لاستشارتهم فيما لم يرد فيه نص يعتبر رداً على السلطة المختصة، أما اجتهاده وقضاؤه بما ظهر من كتاب الله فلا يعد تجاوزاً للسلطة التشريعية ولا تعدِّيًا عليها؛ لأنه من المجتهدين، ولأن الحكم الشرعي إذا ظهر في الكتاب أو السنة فالسلطان له، وعلى الجميع - سواء السلطة التشريعية أو التنفيذية - أن يخضعوا لسلطانه، ولأن رجال السلطة التشريعية لن يسكتوا إذا خالف الخليفة - من وجهة نظرهم - دستور الأمة "الكتاب والسنة" ولذلك عندما رأى عمر رأيه في سواد العراق وأراد ألا يقسم الأرض المغنومة على المقاتلين، وأن يتركها فيئًا للمسلمين وقف الصحابة واعترضوا، وناقشه المجتهدون من الأمة، وراجعوه وراجعهم، وجادلوه وجادلهم حتى اقتنع سوادهم الأكبر برأيه فمضى فيه[1].

[1] تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان، ص: ١٤٠.

وقد كان من استشارة الخلفاء وأهل الفتيا بعضهم بعضاً ما يجعل من جماعتهم المحدودة شبه مجلس نيابي صغير ينقصه النظام، ولكن يعوضهم عنه ما كان منهم من تقليب المسائل على وجوهها وبحثها من جميع نواحيها[1] .

ب. وبعد عصر الصحابة جاء عصر التابعين لتظهر نواة المدارس الفقهية التي تعتبر مؤسسات تشريعية قائمة على أصلين: الأول: سيادة الشرع، الثاني: أن السلطان التشريعي في يد المجتهدين من الأمة، فظهرت مدرسة الرأي في العراق والتي وضع حجر الأساس لها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وفي مقابلها مدرسة الأثر التي وضع لبناتها الأولى علماء الصحابة في المدينة من أمثال عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت وعائشة وغيرهم، فإن عصر التابعين شهد شهرة واسعة لمجتهدين كبار كان على رأسهم الفقهاء السبعة في المدينة وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وهم الذين اعتدَّ مالك بإجماعهم[2] .

ثم ظهرت المذاهب الفقهية الكبرى التي شهدت طفرة عظيمة في الاجتهاد الفقهي القائم على أصول ودعائم علمية راقية، وكان أشهر هذه المذاهب هي المذاهب الفقهية الأربعة: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد بن حنبل، فكانت هذه المذاهب هي المؤسسات التشريعية العظمى التي تمثل السلطة التشريعية في العصور التي تلت عصر الخلفاء الراشدين.

---

[1] السياسية الدستورية للدولة الإسلامية، ص: ٤٣٠.
[22] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٣٤.

وظل باب الاجتهاد مفتوحاً وظلت هذه المذاهب هي المرجعية التشريعية للأمة الإسلامية حكاماً ومحكومين في جميع المجالات حتى جاء في عصور متأخرة علماء أغلقوا باب الاجتهاد فنتج عن ذلك أن استجدت مسائل ونوازل في حياة الأمة لم يف تراث هذه المذاهب بمعالجتها : فكان من ذلك الحرج قصور التشريع الإسلامي عن مسايرة الزمن وتحقيق مصالح الناس، والتجاء بعض الحكومات الإسلامية إلى العمل بقوانين أمم غير إسلامية[1]، ووقعت الأمة الإسلامية بمجموعها في براثن الاستعمار في القرنين الماضيين وجاء الاستعمار الغربي بفكره العلماني ونظرية السيادة الغربية، وغزا الأمة بقوانين غير شرعية وصارت السلطة التشريعية فيها أبعد ما يكون عن الشريعة الإسلامية، وساعد على ذلك قابلية الأمة للاستعمار في تلك الفترة نتيجة الجهل والفقر والمرض والبعد عن روح الإسلام ومقاصده السامية وقفل باب الاجتهاد، الذي يسعى العلماء المجتهدون لتلبية حاجات الأمة في كل ما ينزل بها وهذا هو الذي دفع المصلحين من أمثال محمد بن علي السنوسي، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا وغيرهم إلى فتح الاجتهاد، ولقد تجاوب بهذه الصيحة الصادقة علماء وأساتذة جامعات وشيوخ كبار ونهضوا لهذا الواجب الكبير، فبدأت من جديد حركة الاجتهاد والتجديد، وصارت الشعوب الإسلامية مؤهلة للعودة إلى سيادة الشريعة عن طريق جعل السلطة التشريعية في يد المجتهدين من أبناء هذه الشعوب[2].

[1] السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف، ص: ٥١.
[2] انظر: الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، بتصرف، ص: ١٣٥.

ج. ولقد أوجدت الأمة مؤسسات كبرى تقوم بالاجتهاد الجماعي الذي كان يقوم به المجتهدون من الصحابة ولكن بآليات معاصرة وقد تمثلت هذه المؤسسات في المجامع الفقهية الكبرى مثل: مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، ومجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة ومجمع رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة وغيرها من المجامع التي جاءت بعدها وحذت حذوها إلى جانب مشاريع الاجتهاد الجماعي الأخرى كمشاريع الموسوعات الفقهية الكبرى مثل مشروع الموسوعة الفقهية الكويتية، كما ناقش العلماء المعاصرون إمكانية تجزئة الاجتهاد بمعنى أن يوجد في كل فرع من فروع الشريعة متخصصون وخبراء يملكون أدوات الاجتهاد فيه وإن لم يستكملوا آلات الاجتهاد المطلق؛ وذلك لتوسيع دائرة الاجتهاد وتيسير أمره وهذا الجهد المبارك يعتبر أرضاً خصبة لنمو واختيار السلطة التشريعية التي يتمثل فيها بصدق سيادة الشرع وسلطان الأمة.

د. أما عن كيفية الاختيار وطريقة التكوين فهي من الآليات التي تختلف من عنصر لآخر، فنحن إذا نظرنا إلى السلطة التشريعية في عصر الخلفاء الراشدين ومن تلاهم، نجد أنهم لم يكتسبوا هذه السلطة بتعيين الخليفة ولا بانتخاب الأمة لهم، وإنما اكتسبوها بمميزاتهم الشخصية التي امتازوا بها، فجاء التكوين بطريقة فطرية تلقائية بسيطة كبساطة الحياة آنذاك[١].

وأما في الواقع المعاصر فيمكن عند قيام دولة إسلامية أن تشكل السلطة التشريعية من المجتهدين في العلم الشرعي وذلك باتباع آليات معاصرة لا يتنافى العمل بها مع القواعد والأصول الشرعية[٢].

---

١ الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٣٦.
٢ المصدر نفسه، ص: ١٣٦.

هـ ـ السلطة التشريعية في التعريف الدستوري والمفهوم الإسلامي:

ـ **السلطة التشريعية في التعريف الدستوري** هي: السلطة المختصة بعمل القوانين وتقوم مع ذلك بالإشراف على أعمال السلطة التنفيذية[١] .

فهي السلطة المسؤولة ـ إلى جانب مراقبتها للحكومة ـ عن وضع القوانين الملزمة التي لا يسع أحد تجاوزها[٢] .

وأما السلطة التشريعية في المفهوم الإسلامي فهي: السلطة المؤلفة من صفوة علماء الشريعة المجتهدين والمكلفة باستخلاص الأحكام الشرعية من مصادرها؛ والتعريف بها ووضعها لدى الدولة موضع التنفيذ والمنوط بها الإشراف على السلطات الأخرى فيما يتعلق بتنفيذ الشريعة وتطبيق أحكامها، والمعهود إليها مع بقية أهل الشورى ومع سائر أهل الحل والعقد بالرقابة على الحكومة والمحاسبة لها[٣] .

ومن هذا التعريف يتضح الآتي:

ـ أن السلطة التشريعية في الإسلام وفي الدولة الإسلامية لا تخرج عن دائرة علماء الشريعة المجتهدين وهم علماء الشريعة الذين استجمعوا شروط الاجتهاد .

---

١ السياسة الدستورية للدولة الإسلامية، ص: ٣٩٨.
٢ الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٢٧.
٣ المصدر نفسه، ص: ١٢٨.

ـ هذه السلطة هي المكلفة شرعاً والمختصة دستورياً ، بالقيام بعملية التشريع وعملها التشريعي: لا يعدو أمرين: أما بالنسبة إلى ما فيه نص فعملهم تفهم النص وبيان الحكم الذي يدل عليه، وأما بالنسبة إلى ما لا نص فيه فعملهم قياسه على ما فيه نص واستنباط حكمه بواسطة الاجتهاد[1] ، مراعين القواعد والمقاصد الشرعية .

فالسلطة التشريعية عندما تقوم بالتشريع فإنها لا تنشئ الأحكام إنشاءً ولا تبدؤها ابتداءً وإنما تستمدها وتستخلصها وتستخرجها من كتاب الله وسنة رسوله، لا من غيرهما وبذلك وضع النظام الإسلامي حداً فاصلاً بين أمرين لا يصح أن يلتبسا ، وهما السيادة والسلطان، فالسيادة لله، والسلطان للأمة، السيادة لشرع الله، والسلطان للمجتهدين من الأمة الذين يقومون باستنباط الأحكام والإعلام بها والإلزام بتطبيقها وهذا هو سلطانهم الذي لا يتعدى على سيادة الشريعة .

ـ أن عمل السلطة التشريعية لا يقف عند حد التشريع وإنما يتعداه إلى الإشراف والمباشرة لضمان الالتزام بهذا التشريع من قبل السلطتين التنفيذية والقضائية، وبخاصة السلطة التنفيذية، كما أنها تشترك مع سائر أهل الشورى وأهل الحل والعقد في القيام بدور الرقابة على باقي السلطات والمحاسبة للحكومة، وإبداء المشورة للحاكم ومعاونيه في كل مشكل يعرض للأمة من الأمور العامة .

---

[1] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٢٩.

ـ أن صفوة علماء الشريعة المجتهدين الذين يمثلون السلطة التشريعية جزء من أهل الحل والعقد؛ لأن أهل الحل والعقد في الأمة ليسوا منحصرين في علماء الشريعة المجتهدين فضلاً عن أن ينحصروا في صفوتهم المختارة للتشريع وإنما تتسع دائرتهم لتشمل غيرهم من العلماء والقضاة والأمراء والخبراء والصلحاء والوجهاء العدول الذين يحملون همَّ هذا الدين ويتحملون مسؤولية هذه الأمة ويعتبرون هم كبار الأمة وقادتها وأولو الأمر فيها[1] .

١٢.السلطة التنفيذية:

تعتبر السلطة التنفيذية أكبر مؤسسات السلطة الحاكمة في الأمة الإسلامية وهي في الحقيقة تتكون من مؤسستين غير منفصلتين الأولى: مؤسسة الخلافة، والثانية: الجهاز الإداري، والثانية منهما منضوية تحت لواء الأولى وداخلة تحت سلطانها، بل ومنبثقة عنها، والسلطة التنفيذية يراد بها في الدولة الإسلامية الموظفون المنوط بهم تنفيذ أوامر الشرع الإسلامي، وفي مقدمة هؤلاء: رئيس الدولة، سواء سمي خليفة أم إماماً أم أمير المؤمنين أم سلطاناً أم ملكاً أم سمي بأي اسم آخر مثل ما أطلق عليه بعد ذلك

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٣٠.

ومن أعضاء السلطة التنفيذية: الوزراء، والولاة على الأقاليم وقواد الجيوش، والعمال والمحتسبون ورجال الشرطة وسائر الموظفين في الدولة الإسلامية[1] .

إن تولية الخليفة أو رئيس الدولة في النظام الإسلامي هو أن تقوم الأمة بالاختيار والبيعة لمن ترضاه وتراه الأفضل والأنسب لقيادتها وتولى أمرها وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته تختار من تشاء كما حدث في اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وللأئمة شروط وصفات وحقوق وواجبات، تطلب من مظانها في كتب الفروع[2]، وسيأتي الحديث مفصلاً في كتاب مستقل عن السلطة التنفيذية بإذن الله تعالى .

[1] الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: ١٤٥.
[2] المصدر نفسه، ص: ١٥١.

١٣.المفاوضات السياسية:

في يوم الاثنين الأوّل من ذي القعدة سنة "٦ هـ"[١]، خرج الرّسول صلى الله عليه وسلم من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكة؛ لأداء العمرة[٢].

وانتشر خبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قبائل العرب، وكان انتشار الخبر له أثر في الرأي العام وخصوصاً بعدما أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لا يريد حرباً، وإنما يريد أن يعتمر، ويعظم شعائر الله. وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى، وقد كان هدف النبي صلى الله عليه وسلم معلناً: ألا وهو زيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة، فتجرَّد هو وأصحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلَّد الهدي، وأشعره[٣].

وقد كان صلى الله عليه وسلم على جانب كبير من الحيطة والحذر، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له[٤]، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافية مكوّنة من عشرين رجلاً، وكان هدفه صلى الله عليه وسلم من ذلك الاستعداد للطوارىء التي يمكن أن يفاجأ بها ـ وأيضاً ـ فقد كانت مهمة هذه الطليعة استكشاف خبر العدو[٥].

---

[١] المجمع النووي (٧/ ٧٨).
[٢] نضرة النعيم (١/ ٣٣٤).
[٣] أشعره: إشعار البدن أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها.
[٤] مرويات غزوة الحديبية للحكمي، ص: ٥٨، ٥٩.
[٥] صلح الحديبية، محمد باشميل، ص: ٣٠٩.

ولّما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عسفان لقيه بشير بن سفيان الخزاعي فقال: يا رسول الله؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك، ومعها العوذ المطَافِيل[1]، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون[2]، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله، أو تنفرد هذه السَّالفة**»[3].

أ ـ السفارة بين الرّسول صلى الله عليه وسلم وقريش:

بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في وسعه لإفهام قريش: أنه لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرَّف على قوة المسلمين، ومدى عزمهم على القتال، إذا ألجئوا إليه، وطمعاً في صدِّ المسلمين عن البيت بالطرق السلميَّة من جهة ثالثة[4].

- **ـ ركب من خزاعة بقيادة بُديل بن ورقاء:**

---

[1] خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم وهو على الاستعارة.
[2] وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء.
[3] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/ ٢٨١).
[4] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله، ص: ٤٨٥.

جاء بُديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة[1] نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة، وبيَّنوا: أن قريشاً تعتزم ضدَّ المسلمين عن دخول مكة فأوضح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم سبب مجيئه وذكر لهم الضَّرر الذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنة إلى وقت معلوم حتى يتَّضح لهم الأمر، وإن أبوا؛ فلا مناص من الحرب، ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش، وقالوا: لهم: يا معشر قريش؛ إنكم تعجَلون على محمد، وإن محمداً لم يأت القتال، وإنّما جاء زائراً هذا البيت، فاتّهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك، فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك العرب[2].

وقد ظهرت براعة النبيِّ صلى الله عليه وسلم السياسية في عرضه على مشركي مكة الهدنة، والصلح، لأن في ذلك فوائد كثيرة، منها:

ـ بالهدنة يضمن حياد قريش، ويعزلها عن أيِّ صراع يحدث في الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود؛ ذلك العدوُّ اللئيم الغادر، الذي يتربص بالمسلمين الدّوائر.

ـ حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يبقى باب الاتِّصال مفتوحاً بينه، وبين قريش، ليسمع منهم، ويسمعوا منه بواسطة الرسل، والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

---

[1] أي: خاصته وأصحاب سرّه.
[2] السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٠).

ـ حرصه صلى الله عليه وسلم على أن تدرك خزاعة بقيادة بديل، والركب الذي معه: أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبني هاشم قبل الإسلام فقد بقي، ولم يُلغ، وتأكد في صلح الحديبية .

ـ إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء معظماً للبيت، والمشركون يردُّونه وهو يصرُّ على تعظيمه سيقف هؤلاء بجانبه، ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس .

ـ إن مشركي مكة لم يطمئنوا إلى كلام بديل الذي نقله إليهم، ذلك لأنهم يعلمون: أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشعرون بود خزاعة للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين[1] .

ـ ويؤخذ من جوانب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبُديل بن ورقاء حسن التلطف للوصول إلى الطاعات، وإن كانت غير واجبة ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاب المشركين لمّا طلبوا منه، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض والكراهية لهم لطفاً منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما يؤمِّل إلى البلوغ إلى الطاعة التي خرج من أجلها[2] .

ب ـ سفارة عروة بن مسعود الثقفي:

---

[1] صلح الحديبية لأبي فارس، ص: ٦٧.
[2] المصدر السابق نفسه، ص: ٦٨.

لم تقبل قريش ما نقله بُديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أنه جاء زائراً للبيت ولم يأت مقاتلاً، فاقترح عليهم عروة بن مسعود الثقفي أن يقابل الرّسول صلى الله عليه وسلم ويسمع منه ثم يأتيهم بالخبر اليقين[١] .

وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه، فقال: . . . . فقام عروة بن مسعود فقال: أي القوم، ألستم بالوالد ؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد ؟ قالوا: بلى ! قال: فهل تتهموني ؟ قالوا: لا ! قال: ألستم تعلمون أنّي استنفرت أهل عكاظ[٢]، فلما بلّحوا[٣] عليَّ جئتكم بأهلي، وولدي، ومن أطاعني؟ قالوا: بلى ! قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، قال: ائته فأتاه، فجعل يكلِّم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً[٤] من الناس خليقا أن يفرُّوا، ويَدَعُوك. فقال أبو بكر: امصُص بظر[٥] اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حرباً حتى يهزمهم معنوياً، فاستخدم عنصر الإشاعة ويظهر ذلك عندما لوّح بقوّة قريش العسكرية معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة، وذلك جدير بحدوث الفتنة

---

[١] صلح الحديبية لأبي فارس، ص: ٦٨.
[٢] عكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية.
[٣] بلحوا عليَّ: أي: امتنعوا.
[٤] أشواباً: أي: أخلاطاً من قبائل شتى.
[٥] البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده، عندما قال للنبي صلى الله عليه وسلم:

فإني والله لا أرى وجوهاً ، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك .

حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيَّات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية وحاول. أيضاً . أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين جنوده من أجل التأثير على معنوياتهم، وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرعب، وذلك بتخويف المسلمين من قوّة قريش التي لا تُقهر، وتصوير المعركة بأنها في غير صالحهم، لقد مارس عروة بن مسعود في مفاوضاته عناصر تحطمت أمام الإيمان العميق، والتكوين الدقيق، والصَّفِّ الإسلامي المرصوص[1] .

لقد فشل عروة في مفاوضاته، ورجع محذراً قريشاً من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال لهم: يا قوم! إنِّي قد وفدت على الملوك: على كسرى وهرقل، والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكاً قطُّ أطوع فيمن بين ظهرانيه من محمد وأصحابه والله ما يشدُّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر، فيُفعل، وما يتنعَّمُ، وما يضيق ألا وقعت في كفِّ رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضَّأ إلا ازدحموا عليه أيُّهم يظفر منه بشيء .

---

[1] السيرة النبوية للصَّلابي (٢/ ٢٨٧).

وقد حزرت القوم، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم إذا منعوا صاحبهم؛ والله لقد رأيت نسيات معه إن كنّ ليسلمنه أبداً على حال فروا رأيكم، وإيّاكم وإضجاع[1] الرأي، فمادُّوه يا قوم، اقبلوا ما عرض، فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تُنصروا عليه؛ رجل أتى هذا البيت معظماً له، معه الهدى، ينحره وينصرف، فقالت قريش: لا تكلمَّ بهذا يا أبا يعفور[2]، لو غيرك تكلم بهذا للُمناه، ولكن نردُّهُ عن البيت في عامنا هذا ويرجع قابل[3].

لقد انتقلت الحرب النَّفسَّية وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريش وفي نفوسهم، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقاً، حيث بيَّن لقريش وضع المسلمين في الحديبية، من طاعتهم لنبيهم الكريم وحبِّهم له وتفانيهم بالدفاع عنه وبما يتمتعون به من معنويات عالية جداً، واستعداد عسكري، ونفسي يفوق الوصف فكان ذلك بمثابة التحذير الفعلي لقريش بعدم التعجل والدخول في حرب مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ممَّا قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين، الأمر الذي أسقط في أيدي زعمائها، ولم تكن قريش تتوقَّعه أبداً في تقويمها للأمور.

لقد كان وقع كل كلمة قالها سيِّد ثقيف كالصَّاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان صلى الله عليه وسلم موفقاً من قبل الله تعالى، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود مما جعل الانشقاق يدب في معسكر قريش وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوّة الحق الصَّامدة، وكذلك فقد انهارت حُجَّة قريش في جمعها للعرب ضد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

---

[1] ....
[2] أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثقفي.
[3] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/ ٢٨٨).

لقد نجح النبي صلى الله عليه وسلم بحكمته وذكائه نجاحاً عظيماً باستخدام الأساليب الإعلامية والدبلوماسية المتعددة للحصول على الغاية المنشودة، وهي تفتيت جبهة قريش الدّاخلية، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم وإبعاد حلفائهم عنهم، وإن هذه النتيجة لتعد بحق نصراً ساحقاً حقَّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجبهات السياسيَّة، والإعلامية، والعسكرية[1] .

ج. سفارة الحُليس بن علقمة:

ثمَّ بعثوا الحُليس بن علقمة الكنانيّ سيِّد الأحابيش، فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن هذا من قوم يتألَّهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه وأمر برفع الصَّوت في التَّلبية، فلمَّا رأى الحُليسُ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده؛ رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك إعظاماً لما رأى[2]، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه، ولا مرعى، وقد أكل الهدى أوباره من طول الحبس عن مَحِلَّه، ورأى المسلمين؛ وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتَّلبية، وهم في زيِّ الإحرام وقد شعِثوا من طول المكوث على إحرامهم ولذلك استنكر تصرُّف قريش بشدَّة، وانصرف سيِّد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النبيَّ صلى الله عليه بشيءٍ، أو أن يفاوضه، كما كان مقرَّراً من قبل واعتبر عمل قريش عدوانياً ضد زوَّار بيت الله الحرام، ولا يجوز لأحد أن يؤيدها، أو أن يناصرها على ذلك[3] .

---

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/ ٢٨٩).
[2] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/ ٢٨٩).
[3] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/ ٢٨٩).

فرجع محتجاً على قريش التي أعلنت غضبها لصراحة الحُلْيس، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الذي يهدّد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش، والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنّما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد، وأصحابه، فاكفف عنَّا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[1].

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عالماً ومستوعباً لشخصية الحُليس، ونفسيَّته، ويظهر ذلك في قوله صى الله عليه وسلم: «**هذا من قوم يتألَّهون**» فالواضح من هذه المعلومة ! أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على معرفة تامة بهذا الرجل وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة موضوعية وذلك بما كان عنده من حبٍّ شديد من التعظيم للحرمات والمقدسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعرفة، وعلى هذا الأساس فقد قام صلى الله عليه وسلم بوضع خطة محكمة مناسبة تقضي بوضع الحقائق كاملة أمام هذا الرجل، وإظهار موقف المسلمين، أو على الأقلِّ وقوفه على الحياد في هذا الصِّراع.

وهكذا استطاع صلى الله عليه وسلم أن يؤثر على عروة بن مسعود، والحُليس بن علقمة ممَّا جعل الانشقاق يدب في صفوف مشركي مكة[2].

د. سفارة مِكرز بن حفص:

[1] المصدر نفسه (٢/ ٢٨٩).
[2] المصدر نفسه (٢/ ٢٩٠).

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مكرز بن حفص وقد روى البخاري ذلك فقال: . . . . . فقام رجل منهم، يقال له: مكرز بن حفص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**هذا مكرز وهو رجل فاجر**»، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو قال معمر: فأخبرني وأيوب عن عكرمة: أنَّه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**قد سهل لكم من أمركم**»[١] .

هـ. مفاوضة سهيل بن عمرو لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

لمَّا بلغ قريشاً أمر بيعة الرضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرّسول صلى الله عليه وسلم على القتال، أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم[٢]، ولمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيلاً قال: «**لقد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرجل**»[٣] .

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يُعرفون بالحنكة السياسية والدَّهاء، فهو خطيب ماهر ذو عقل راجح، ورزانة، وأصالة في الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصُّلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد استعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضمّنها معاهدة الصلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا التي كانت تشكل مثار الخلاف بينهما، هذا

---

[١] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/ ٢٩٠).
[٢] المصدر نفسه (٢/ ٢٩٩).
[٣] مغازي الواقدي (٢/ ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٥).

وقد اتَّفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث، والجدل، والأخذ والرد حول هذه البنود، وبعد المراجعات والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين: وعند الشروع في وضع الصِّيغة النّهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسمياً، حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقية، فعندما شرع النبيُّ صلى الله عليه وسلم في إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها؛ أمر الكاتب وهو الإمام عليُّ بن أبي طالب بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو قائلاً: لا أعرف الرّحمن! «**اكتب: باسمك اللهم**»، فضجَّ الصَّحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن ولكن النبي صلى الله عليه وسلم تمشياً مع سياسة الحكمة والمرونة، والحلم، قال للكاتب: «**اكتب باسمك اللهم**»[1] واستمر في إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب: «**هذا ما اصطلح عليه رسول الله**»، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشي على كلمة "رسول الله" قائلاً: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ اكتب اسمك، واسم أبيك[2].

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكمته وتسامحه وبُعد نظره حسم الخلاف، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة، فالتزم الصحابة الصَّمت والهدوء.

---

[1] المصدر نفسه (٢/ ٦١٠).
[2] مغازي الواقدي (٢/ ٦١٠).

إن النبي صلى الله عليه وسلم وافق المشركين على ترك كتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" وكتابة "باسمك اللهم" بدلاً عنها ، وكذا وافقهم على كتابة "محمد بن عبد الله" وترك كتابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا وافقهم على ردّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة، و«باسمك اللهم» فمعناها واحد، وكذا قوله «محمد بن عبد الله» هو أيضاً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس في ترك وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالرّسالة ما ينافيها، فلا ضرر ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحلّ من تعظيم آلهتهم، ونحو ذلك .

وأمّا شرط ردّ من جاء منهم، وعدم ردِ من ذهب إليهم، فقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم تعليل ذلك، والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: «**من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ، ومخرجاً** » .

وتّم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

ـ باسمك اللهم .

ـ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

ـ واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين .

ـ على أنه من قدم مكة من أصحاب محمدَ حاجاً، أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله؛ فهو آمن على دمه ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر، أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه، وماله.

ـ على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه؛ ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمد، لم يردُّوه عليه.

ـ وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال[1].

ـ وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد، وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش، وعهدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش، وعهدهم.

ـ وأنت ترجع عنَّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الرّاكب، السيوف في القُرُب، ولا تدخلها بغيرها.

ـ وعلى أن هذا الهدي وما جئتنا به، فلا تقدمه علينا.

ـ وشهد على الصُّلح رجال من المسلمين، ورجال من المشركين فمن المسلمين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وعلي بن أبي طالب كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين.

---

[1] أي يأمن بعضنا بعضاً على نفسه وماله فلا يتعرض لماله ولا لدمه.

ومن المشركين: مكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو[1] .

وتعد هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلامية وأنموذجاً فريداً من المعاهدات الدولية بما سبقها من مفاوضات، وما حوته من شروط، وما تمثل بها خلق النبيِّ صلى الله عليه وسلم في النزول عند رضا الطرف الآخر، وفي كيفية الصِّياغة والالتزام.

هذه المعاهدة سبقها مفاوضات من قبل المشركين والمسلمين، وفشل بعض المسلمين في الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاورات شتى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين "سهيل بن عمرو" ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ملأ المسلمين[2] عُقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز القوة، لا الضعف، وكان باستطاعتهم ألَّا يقبلوا شروطها التي اغتاظ منها كثير من الصحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وقد تمارى رسول قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مفاوضته، وكان فرداً بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى، ولم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل، "لأن السفراء لا تقتل" ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرضيه، ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام وهي حقن الدماء، وإحلال السَّلام، ورجاء أن يعقل

---

[1] المعاهدات في الشريعة الإسلامية، د.محمد الديك، ص: ٢٧٠، ٢٧١.
[2] السيرة النبوية للصَّلابي (٢/ ٣٠٢).

القوم الحق، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله[1]، وعندما نتأمل نصوص المعاهدة التي تمَّت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي:

ـ أن ديباجة المعاهدات الإسلامية كانت تبدأ باسم الله، أو باسمك اللهم، والقانون الدولي في صياغة المعاهدات يقول: تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتفق عليها طرفا التعاقد .

والذي يجب أن نلاحظه: أن المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله تعالى، الذي تبدأ باسمه سبحانه، حيث هو الرقيب والحسيب على ما في النوايا والقلوب، واسم الله مقدّس في كلِّ قلب يؤمن به، حتى أولئك الذين فسدت عقائدهم، فإنهم لا ينكرون الله، ولكنهم أفسدوا تصورهم لذات الله، وقد جرت أعراف بعض الذين يستهوون قلوب العامة بالشّعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله، باسم الشعب، أو باسم الأمة، باعتبار قدسية ما يبدؤون به كما يزعمون، ولكنَّ الذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده، ولذلك كانت البداية "باسمك اللهم" .

ـ ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد "الديباجة" كما يسميها القانون الدولي، وهذا ما عليه القانون الدولي العام من أنه يذكر بعد الديباجة أسماء الممثلين، أو الدول التي هي أطراف في عقد المعاهدة .

[1] المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، د.محمد الديك، ص: ٢٦٨، ٢٦٩.

ـ **بواعث المعاهدة:** فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصُّلح لأجل وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وهذا ما عليه القانون الدولي العام كذلك .

ـ الدخول في صلب المعاهدة وشروطها ، حيث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المعاهدة الشروط المتفق عليها بين الطرفين،وهذا ما عليه القانون الدولي العام .

ـ في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام "رئيس الدولة الإسلامية" بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم[١] .

ـ أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائز للمصلحة الرّاجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[٢] .

ـ أن صلح الحديبية سمّاه الله فتحاً ؛ لأن الفتح في اللغة هو فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله، والصلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطرف الآخر .

---

[١] زاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٣٠٦).
[٢] المصدر السابق (٣/ ٣٠٦).

ـ لقد كانت الصورة الظاهرة من شروط الحديبية فيها ضيم للمسلمين، وهي في باطنها عز، وفتح، ونصر، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء ستر دقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب[1] .

ـ إن المعاهدة قد تكون مفتوحة لمن يحب أن يدخل فيها من الأطراف، أو الدول الأخرى وهذا ما عليه القانون الدولي، حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحة لمن يحب الدخول فيها من الأطراف الأخرى فقد دخلت خزاعة وكنانة في الصلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والتي امتدت سنوات عديدة .

ـ إن المعاهدة لابد لها من توقيع الأطراف والإشهاد عليها وتوقيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإشهاد الصحابة إنما هو بمثابة التوقيع على المعاهدة، والتصديق عليها ، كما هو في القانون الدولي العام .

ـ إن المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً أو طرفاً يقرِّب بين وجهات النظر، كوساطة سيد الأحابيش "الحُليس بن علقمة" حليف قريش الأكبر، حيث طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين، وكان الحليس ذا عقل راجح وبصيرة نافذة، وكان سيدًا مطاعاً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفه ويعرف فيه التألُّه الشديد ، والتعظيم للحرم وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب، ولما يتمتع به من تقدير لدى النبي صلى الله عليه وسلم

[1] المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص: ٢٧٢.

تأثير على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه[1]، وهذا ما يقرُّه القانون الدولي؛ حيث إن المعاهدة قد تعقد بواسطة دولة أخرى ليست طرفاً في النزاع أو أحد المبعوثين الذين لا علاقة لهم، أو لدولتهم بالنِّزاع القائم بين طرفي التعاقد .

ـ إن المعاهدة تعدُّ نافذة المفعول بمجرَّد الاتفاق على المعاهدة وشروطها ، حتى لو لم تكتب، ولو لم يوقع عليها الطرفان، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي ردّه الرّسول صلى الله عليه وسلم بموجب قبوله عليه السلام بالبند الخامس من المعاهدة والذي يقول: على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، فمنذ أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم التزامه بهذا الشرط أجراه ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد ولم يوقع عليها الطرفان .

ـ إن المعاهدة تكتب من نسختين، ويأخذ كلُّ طرف نسخة طبق الأصل من المعاهدة، حيث إنه بعد أن تَّمت إجراءات الصُّلح النهائي في الحديبية؛ أخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية وانصرف الوفد القرشي راجعاً إلى مكة[2] .

- **.موقف أبي جندل والوفاء بالعهد :**

إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد والتقيُّد بما فرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم، والحديث لاحترام كلمة لم تكتب واحترام كلمة تكتب كذلك، وفي الجدِّ في عهوده، وجِّه للصراحة، والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد ، وذلك حينما

---

[1] صلح الحديبية، لباشميل، ص: ١٩٩ ـ ٢٠٠.
[2] المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص: ٢٧٣.

كان يفاوض "سهيل بن عمرو" في الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال، وقد فرّ من مشركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرّسول صلى الله عليه وسلم وكان هذا الابن ممَّن آمنوا بالإسلام وجاء مستفرحاً بالمسلمين، وقد انغلق من أيدي المشركين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذه بتلابيبه وقال: لقد لجَّت القضية بيني وبينك ـ أي ـ فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**صدقت**»، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فلم يغن عنه ذلك شيئاً وردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لأبي جندل: «**إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم**»، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصُّلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشره بقرب الفرج له، ولمن على شاكلته من المسلمين، وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «**يا أبا جندل اصبر، واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً**»[1] .

وفي هذه الكلمة النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس[2] .

---

[1] المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص: ٢٧٣.
[2] محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٢٧٥).

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرسول صلى الله والمسلمون نجاحاً عظيما في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل، وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه في تلابيبه، والدماء تنزف منه مما زاد في إيلامهم، حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة وهم ينظرون إلى أبيه المشرك، وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف، ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته وتحقق فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق، آية: ٢-٣) .

فلم تمرَّ أقلُّ من سنة حتى تمكن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من سجون مكة، وأصبحوا قوّة صار كفار مكة تخشونها بعد أن انضموا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام[١] .

- **-احترام المعارضة النزيهة:**

بعد الاتفاق على معاهدة الصّلح، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة وقوية لهذه الاتفاقية وخاصة في البندين اللذين يلتزم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بموجبهما بردِّ من جاءه من المسلمين لاجئاً، ولا تلتزم قريش بردِّ من جاءها من المسلمين مرتداً، والبند الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام، وقد كان أشدّ

---

[١] صلح الحديبية، باشميل، ص: ٣٢٢ إلى ٣٢٥.

الناس معارضة لهذه الاتفاقية وانتقاداً لها عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج. وقد ذكر المؤرخون: أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُعلناً معارضته لهذه الاتفاقية وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألستَ برسول الله؟ قال: «**بلى**!» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «**بلى**» قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «**بلى**» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «**إني رسول الله، ولست أعصيه**»[1]، وفي رواية: «**أنا عبد الله، ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُضيِّعني**»[2]، قلت: أوليس كنت تحدِّثنا ان سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أن نأتيه العام**؟» قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوِّف به. قال عمر: فأتيت أبا بكر، فقلت له: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، فقال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قلت: فعلام نُعطي الدَّنية في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ: الزم غرزه ـ أي: أمره فأني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله، ولن يضيعه[3].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثرة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة والصلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته، وإعلان معارضتهم، إلا أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بما أعطاه الله من صبر،

[1] من معين السيرة، صالح الشامي، ص: ٣٣٣.
[2] تاريخ الطبري (٢/ ٦٣٤).
[3] السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٦).

وحكمة، وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين، وأنه نصر لهم، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً، وقد تحقق ما أخبر به صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يتبيَّن: أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة، حيث قرَّر ذلك بقوله، وفعله، وهو -والله أعلم- إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السَّليمة التي تخدم المصلحة العامة[١].

وهذا الهدي النبوي الكريم بيّن: أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأنَّ للفرد في المجتمع المسلم الحرّية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرّأي نقداً لموقف حاكم من الحكّام، أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جوٍّ من الأمن والأمان دون إرهاب، أو تسلط يخنق حرية الكلمة، والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيَّب صاحبها في غياهب السجون[٢].

- **.نتائج صلح الحديبية:**

---

[١] السيرة النبوية (٢/ ٣٠٦) للصَّلاَّبي.
[٢] غزوة الحديبية لأبي فارس، ص: ١٣٤، ١٣٥.

لقد أيقن الصحابة الكرام أن الدّعوة قد دخلت في طور جديد ، وفتح جديد ، وآفاق أوسع، وامتداد أرحب، وأن من طبيعة هذا الدين أن ينمو وينتعش في أجواء السِّلم والأمن، أكثر منه في وقت الحرب ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية التي كان من أهمها :

ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدولة المسلمة فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحوديِّ حيث كانوا يرون: أنها الإمام والقدوة .

ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين، والمنافقين، وتيقَّن الكثير منهم بغلبة الإسلام وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك من مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم .

ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، ممَّا أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزُّهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلمّا كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك[1] .

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١).

وعقب عليه ابن هشام بقوله: والدليل على قول الزُّهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[1].

ـ أمن المسلمون جانب قريش، فجوَّلوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

ـ مفاوضات الصُّلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين، ويميلون إليه، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبُّون؛ رجع إلى أصحابه قال: لقد رأيت قد قلت، وأشعرت، فما أرى أن يصدُّوا عن البيت.

ـ مكَّن صلح الحديبية النبي صلى الله عليه وسلم من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العَربية.

ـ ساعد صلح الحديبية النبيَّ صلى الله عليه وسلم على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس، والرُّوم، والضبط يدعوهم إلى الإسلام.

[1] المصدر نفسه (٣/ ٣٥١، ٣٥٢).

ـ كان صلح الحديبية سبباً ومقدمة لفتح مكة، يقول: ابن القيم: كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رسوله، وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه سنة الله ـ سبحانه ـ في الأمور العظام التي يقضيها قدراً، وشرعا أن يوطَّى لها بين يديها مقدّمات، وتوطئات تؤذِن بها، وتدل عليها[1] .

١٤.العلاقات الخارجية:

فقد انساح هذا المدُّ إلى أطراف الجزيرة العربية، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية، فمنذ أن عقد الرّسول صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع قريش، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر، ووادي القرى، وتيماء وفدك، إلى سيادة الإسلام؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز، وكذلك خارج حدود الجزيرة العربيَّة، وقد عبَّر صلى الله عليه وسلم عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجُب أن تكون عليه وسائل الدّعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء، والشعوب اختار الرّسول صلى الله عليه وسلم أسلوباً جديداً من أساليب الدّعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرّسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/ ٣٤٨).

بعضهم الإسلام، وإظهار الودّ من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدّعوة الإسلامية، ودولتها في المدينة، وبذلك حققت هذه الرّسائل نتائج كثيرة، واستطاعت الدولة الإسلاميّة من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرّسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً، وعسكرياً واضحاً ومتميزاً وإليك أهم هذه الرسائل:

أ ـ فقد وردت رواية صحيحة، تضمنت نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم[١]، وذلك في مدة هدنة الحديبية وهو كما يلي: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرّوم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأرِيسِّيين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، آية: ٦٤)[٢].

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ودقَّق في الأمر كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصَّحيحين حين سأله عن أحوال النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال بعد ذلك لأبي سفيان: إن كان ما تقول حقاً، فسيملك

[١] نضرة النعيم (١/ ٣٤٤).
[٢] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٤٥٥٣.

موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم: أنه خارج ولم أكن أظنُّه منكم، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه؛ لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[1] .

ب. أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، مع عبد الله بن حذافة السهميِّ، "أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[2] ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلمَّا قرأه مزَّقه، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمزَّقوا كل ممزَّق[3] .

ونصُّ الرسالة كما أوردها الطبريُّ كالتالي: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهُدى وآمن بالله، ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا أسلم تسلم، فإن أبيت، فعليك إثمُ المجوس[4] .

ج. أمّا كتاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم غلى النجاشي ملك الحبشة فقد أرسله مع عمرو بن أمية الضمريِّ وقد جاء في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٤٥٥٣.
[2] شرح المواهب اللدنية (٣/ ٣٤١).
[3] دلائل النبوة البيهقي (٤/ ٣٨٧).
[4] تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥).

الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة في طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك، وجنودك إلى الله ـ عز وجلّ ـ وقد بلغت، ونصحت، فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى»[1] .

د ـ أما كتاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس حاكم مصر[2]، وكذلك ردُّ المقوقس إليه[3]، فلم يثبت من طرق صحيحة ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أن ذلك لا يعني الطعن بصحة النصوص من الناحية التاريخية، فربما تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون، غير أنها لا يمكن أن يحتج بها في السياسة الشرعية[4]، فلقد أورد محمد بن سعد في طبقاته[5]: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى المقوقس، جُريج بن مينا ملك الإسكندرية وعظيم القبط، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللخميِّ، وأنه قال خيراً، وقارب الأمر، غير أنه لم يسلم، وأهدى إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم عدّة هدايا كان بينها مارية القبطيّة وأنه لما ورد جواب المقوقس إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**ضنَّ الخبيث بمُلكه، ولا بقاء لملكه**»[6] .

[1] نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤٢١).
[2] نضرة النعيم (١/ ٣٤٦).
[3] السيرة النبوية (٢/ ٣٥٠) للصَّلاّبي.
[4] السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٩).
[5] الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).
[6] الطبقات الكبرى لابن سعد، حديث رقم: ٦١٤.

هـ. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغسَّاني صاحب دمشق[1]، حين عودته والمسلمين من الحديبية، وقد تضمَّن الرسالة قوله: «**سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن به، إنِّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يُبقي لك ملكك**»[2] .

و. وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سُلَيطَ بن عمرو العامريَّ بكتاب إلى هوذة بن عليٍّ الحنفي[3]، عند مقدمه من الحديبية وقد اشترط هوذة الحنفي على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يقبل ذلك[4] .

ز. وأرسل صلى الله عليه وسلم أبا العلاء الحضرمي[5]، بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبديِّ، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التاريخية: أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنَّهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم[6] دينار: أي: على كل بالغ دينار ونقل أبو عبيدة القاسم بن سلام نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه:

[1] تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٢).
[2] نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤٢٤).
[3] كان صاحب اليمامة، ومات بعد فتح مكة بقليل.
[4] نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤٢٥).
[5] صبح الأعشى للقلقشندي (٦/ ٣٦٨).
[6]نصب الراية (٤/ ٤٢٠).

«سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد فإن من صلَّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمَّة الله، وذمَّة الرّسول، فمن أحبَّ ذلك من المجوس، فإنه آمن، ومن أبى، فإن الجزية عليه»[1].

وفي ذي القعدة سنة (٨ هـ) بعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفر وعدد ابني الجُلُندي الأزدِيَّين بعمان[2].

وقد جاء فيه: **«من محمد النبي رسول الله لعباد الله الأزديَّين ملوك عمان، وأسد عمان، ومن كان منهم بالبحرين، إنهم إن آمنوا، وأقاموا الصَّلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا حق النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنهم آمنون وأن لهم ما أسلموا عليه، غير أنَّ بيت النار ثنيا لله ورسوله وأن عشور التمر صدقة، ونصف عشور الحبِّ وأن للمسلمين نصرهم، ونصحهم، وأن لهم على المسلمين مثل ذلك وأن لهم أرجاءهم يطحنون بها ما شاؤوا»**[3].

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من الناحية الحديثية[4].

ـ مواصفات رجل الدِّبلوماسية الإسلامية:

---

[1] الأموال لأبي عبيد، ص: ٣٠، رقم: ٥٠.
[2] صبح الأعشى (٦/ ٣٧٦).
[3] أبو عبيد في كتاب الأموال، ص: ٣٠، ٣١، رقم: ٥٢.
[4] نضرة النعيم (١/ ٣٤٨).

قام اللواء الرُّكن محمود شيت خطَّاب بجمع الرّسائل، وتحدَّث عن الرسل في كتابه الفريد "سفراء النبي صلى الله عليه وسلم" استنبط من خلالها شروط ومواصفات رجل الدّبلوماسية الإسلامية ومن أهم تلك الشروط والمواصفات:

ـ الإسلام والدعوة إليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف، آية: ١٠٨) . وإذا كان المسلمون كلهم دعاة إلى الله تعالى؛ فرُسُل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة[١] .

ـ الفصاحة والوضوح:

الفصاحة وجزالة اللفظ، والدِّقَّة في توصيل المعاني إلى السامعين شرط أساسي في الرّجل الذي يتصدى للمهمة الدبلوماسية، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ (طه، آية: ٢٩ ـ ٣١) .

[١] سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم، محمود شيت (٢/ ٢٥٨).

ـ وقد اختار الرّسول صلى الله عليه وسلم كلَّ سفرائه ومبعوثيه من العرب الذين تربّوا في الجزيرة العربية مع البدو أحياناً فقد كانوا أصحاب نقاوة، لم تتكدر باختلاط الأعجام بعد، فقد كانوا على قدر كبير من الفصاحة والوضوح.

ـ حسن الخلق:

أخلاق السفير النبوي هو أخلاق الإسلام التي بينها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم، وفصَّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنّته وأهمّها في السفير: الصدق، والتواضع[1].

ـ العلم:

لا يزيد هنا أن نبين منزلة العلم، لأن الكلام على هذه المسألة طويل، ولكننا نؤكد هنا: أن العلم بالشيء هو وسيلة نقل الفكرة والمبدأ، لذا عندما ننظر إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يحاور النجاشي، ثم يقرأ عليه سورة ﴿كهيعص﴾ نتيقَّن من دقة الاختيار النبوي، ونصاعة خطاب العالم ودقة اختياره للألفاظ والعبارات[2].

ـ الصَّبر:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف، آية: ٣٥).

---

[1] المصدر نفسه (٢/ ٢٧٨).
[2] الفقه السياسي للوثائق النبوية، خالد الفهداوي، ص: ١١٤.

والحقيقة: أن الصبر هو عدّة الدّاعية، وزاده المستمر، ولو تصفحت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الأجلاّء، لوجدتها حافلة بالصبر على الدعوة، وموقف الطائف شاهد على ذلك.

ـ الشجاعة:

وقد تحدّث التاريخ الإسلامي عن شجاعة السفراء، والذين أرسلهم الرّسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وأنهم كانوا لا يخافون لومة لائم.

ـ الحكمة:

وقد كان سفراء الرّسول صلى الله عليه وسلم يتصفون بالحكمة فهذا عمرو بن العاص كان مسدداً في أقواله، وأفعاله، قيل لعمرو: ما العاقل؟، قال: الإصابة بالظن: ومعرفة ما يكون بما قد كان، ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشَّرِّ، إنما العاقل الذي يعرف خير الشرَّين[1].

ـ سعة الحيلة:

---

[1] الفقه السياسي للوثائق النبوية (٢/ ٣٠١).

يجب أن يكون السَّفير مدركاً لأبعاد المناورة السياسيَّة، متأنياً كتوماً، وسعة الحيلة التي ترتكز أولا، وقبل كل شيء على الذكاء من أهم سمات السَّفير، وقد كان سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم يتصفون بالذكاء، والدهاء، وتوقع الأحداث، والحساب لكلِّ ما يمكن أن يحدث، وهذه مقومات سعة.

ـ المظهر:

تميَّز سفراء النبي صلى الله عليه وسلم بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة إلى جانب سماتهم العقليَّة والنفسيّة سالفة[1] الذكر، هذه أهم الصِّفات التي استخلصها اللواء الركن محمود شيت خطاب من خلال دراسته القيِّمة لسفراء النبيّ صلى الله عليه وسلم والتي ينبغي للسفير المسلم أن يتحلَّى بها.

وتكون للدولة الإسلامية مقياساً في اختيار من ترشحه لهذا المنصب الخطير.

- **ـ دروس، وعبر، وفوائد:**

في رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم للملوك فوارق دقيقة مؤسسة على حكمة الدعوة، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، و(الخلفيات) التي يمتازون بها، فلما كان هرقل، والمقوقس يدينان بألوهية المسيح كلياً، أو جزئياً، وكونه ابن الله، جاءت في الكتابين اللذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النبي صلى الله عليه وسلم صاحب هاتين الرسالتين، فيبتدئ الكتابان التسمية بقوله: محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم

[1] مقومات السفراء في الإسلام، حسن فتح الباب، ص: ٦٠.

وبقوله: من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط بخلاف ما جاء في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس وجاءت كذلك آية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، آية : ٦٤). في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز لأن الآية تخاطب أهل الكتاب، الذين دانوا بألوهيته المسيح، واتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح ابن مريم، وقد كان هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية، والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلاف يسير في الاعتقاد في المسيح: هل له طبيعة أو طبيعتان[١]؟

ولما كان كسرى أبرويز وقومه يعبدون الشمس والنار يدينون بوجود إلهين: أحدهما يمثل الخير، وهو: يزدان، والثاني يمثل الشر وهو: أمر إهرمن، وكانوا بعيدين عن مفهوم النُّبوة والتصور الصحيح للرسالة السماوية، جاءت في الكتاب الذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة[٢]: «**وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً**».

وقد كان تلقَّى الملوك لهذه الرسائل يختلف: فأمَّا هرقل، والنجاشي، والمقوقس، فتأدبوا، وتلطفوا في جوابهم، وأكرم النجاشيُّ، والمقوقس رُسُل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسل المقوقس هدايا، منها جاريتان كانت إحداهما مارية أمُّ إبراهيم ((ابن رسول الله))، وأمَّا كسرى أبرويز: فلما قُرئ عليه الكتاب مزَّقه، وقال: يكتب إليَّ هذا، وهو عبدي؟ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: مزَّق الله ملكه[٣].

---

[١] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي، ص: ٣٩.
[٢] السيرة النبوية، للندوي، ص: ٢٩٠.
[٣] تاريخ الطبري (٣ / ٩٠ - ٩١).

وأمر كسرى باذان ـ وهو حاكمه على اليمن ـ بإحضاره فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله سلط على كسرى ابنه شرويه، فقتله[١].

وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل دقة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ(شرويه)، وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة (٦٢٨م).

وقد تمزق بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على ((يزدجرد)) وهو آخر ملوك بني ساسان وهو الذي واجه الزّحف الإسلامي، الذي أدّى إلى انقراض الدولة الساسانية، التي داست، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً، وكان ذلك في سنة (٦٣٧م)، وهكذا تحققت هذه النبوة في ظرف ثماني سنين[٢].

ـ الوصف العام لرسائل الرسول صلى الله عليه وسلم:

<u>يلاحظ الباحث:</u> أن الوصف العام لكتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التالية:

- ـ نلاحظ أن جميع كتب الرسول صلى الله عليه وسلم التي أرسلها إلى الملوك والرُؤساء يفتتحها صلى الله عليه وسلم بالبسملة، والبسملة آية من كتاب الله ـ تبارك وتعالى وفي تصدير الكتاب بها أمور مهمة، كاستحباب بدء الكتب ((بسم الله الرحمن الرحيم)) اقتداء برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد واظب عليها في كتبه صلى الله عليه وسلم، كما أن فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين، وفيها جواز قراءة الكافر لآية، أو أكثر من القرآن الكريم، لأن هذا الكافر

---

[١] المصدر نفسه (٣ / ٩٠ ـ ٩١).
[٢] السيرة النبوية للندوي، ص: ٣٠٠.

الذي أرسلت إليه الرسالة وتضمنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة والنجاسة، فيقرأ الرسالة التي اشتملت على آيات من القرآن الكريم، وهو جنب.

- **ـ وتستنبط من رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء الآتي:**

ـ مشروعية إرسال سفراء المسلمين إلى زعماء الكفر، لأن كل كتاب كان يكتبه الرسول صلى الله عليه وسلم يكلّف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل.

ـ مشروعية الكتابة إلى الكفار في أمر الدِّين، والدنيا.

ـ ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المُرسِل، والمُرسَل إليه، وموضوع الكتاب، وهو واحد في جميع الكتب، ويتلخص في دعوتهم إلى الإسلام.

ـ عدم بدء الكافر بتحية الإسلام، وهي (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطرح السلام في كتبه على ملك من ملوك الكفر، بل كان يصدِّر كتبه بقوله: «**السلام على من اتبع الهدى**»، أي: آمن بالإسلام، ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحية الإسلام.

ـ اتخاذ الخاتم: فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختم رسائله بعد كتابتها بخاتمه، وقد كتب عليه ثلاث كلمات محمد رسول الله[١].

فعن أنس رضي الله عنه قال: لمَّا أراد النبيُّ أن يكتب إلى الرُّوم، قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمد رسول الله[٢].

ـ تقدير الرِّجال:

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٥، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٠٩٢.
[٢] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٩٣٨.

لمَّا أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه، حين رأى فيه الإداري الناجح، والحاكم المناسب مما يدلُّ على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقدر الكفاءات في الرجال، ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير بالذكر: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ولى ولده أي ولد باذان شهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه[١].

- **جواز أخذ الجزية من المجوس:** وهذا الحكم استخرج من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسله إلى المنذر بن ساوي يحدد فيه الموقف من اليهود والمجوس، إذ ورد فيه: «**من أقام على يهوديته أو مجوسيته، فعليه الجزية**»[٢].

وقد ذهب ابن القيم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كل إنسان يبذلها، سواء كان كتابياً أم غير كتابي، كعبدة الأوثان من العرب وغيرهم، فقد جاء في زاد المعاد: وقد قالت طائفة في الأمم كلها إذا بذلوا الجزية، قبلت منهم أهل الكتابين بالقرآن والمجوس بالسنة، ومن عداهم ملحق بهم، لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم، فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين، وإنما لم يأخذها صلى الله عليه وسلم من عبدة الأوثان من العرب، لأنهم أسلموا قبل نزول آية الجزية، فإنها نزلت بعد تبوك[٣].

- جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر - وهو كافر - مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هدية تشتمل على جاريتين وكسوة للرسول صلى الله عليه وسلم وبغلة يركبها، فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وإحدى الجاريتين ماريا القبطية[٤].

- من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

---

[١] غزوة الحديبية لأبي فارس، ص: ٢٣٩، ٢٤٠.
[٢] المصدر نفسه.
[٣] زاد المعاد (٥/ ٩١).
[٤] غزوة الحديبية لأبي فارس، ص: ٢٤٣.

أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم في سياسته الخارجية دراية فاقت التصور، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر صلى الله عليه وسلم قوة وشجاعة فائقتين فلو كان غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخشى عاقبة ذلك الأمر، لاسيما وأن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس، ولكن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله سبحانه وتعالى، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه، وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:

*ـ وطّد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه السياسة أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.

*ـ أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها وفرضت وجودها على الخريطة الدولية لذلك الزمان.

*ـ كشفت للرسول صلى الله عليه وسلم نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه وحكمهم على دعوته.

*ـ كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عملياً على عالمية الدعوة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، آية : ١٠٧).

وهكذا فإن رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تعد نقطة تحول في سياسة دولة الرسول الخارجية، فعظم شأنها وأصبحت لها مكانة دينية وسياسة بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذه السياسة مهدت لتوحيد الرسول صلى الله عليه وسلم لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[١].

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٣٥٨).

ـ من سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم "جعفر بن أبي طالب" رضي الله عنه:

عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار "النجاشي" أمنّا على ديننا وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جَلْدين[1].

وأن يُهدوا للنجاشي هدايا ممّا يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم[2]، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته[3] بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدما للنجاشي هداياه ثم سلاه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، وخير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردوهم إليهم فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قرّبا هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه، فقالا له: أيها الملك إنه قد صبأ إلى بلدك منه غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما

---

[1] الجلد: القوة والشدة.
[2] الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.
[3] جمع بطريق وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم.

عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردانهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هَيمُ[1] الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني[2].

ـ حوار بين جعفر والنجاشي:

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله واجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل، إذا جئتموني؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً في ذلك ما هو كائن فلما جاؤوه وقد دعا النجاشي أساقفته[3]، فنشروا مصاحفهم[4]، حوله سألهم، فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل

[1] والمعنى: لا والله.
[2] مسند أحمد (٥/ ٢٩٠) إسناده صحيح، الحديث رقم: ٢٢٤٩٨.
[3] أساقفته: جمع الأسقف وهو العالم والرئيس من علماء النصارى.
[4] أي: أناجيلهم وكانوا يسمونها مصاحف.

من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك[١].

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾ قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل[٢]، لحيته وبكت أساقفته، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والله، والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا يُكادون[٣]، قالت: فلما خرج كل من: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، من عند النجاشي قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم[٤]، قالت: فقال له عبد الله بن ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عمّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟، قالوا: نقول ـ والله ـ فيه ما قاله الله، ما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء[٥] البتول[٦].

---

[١] مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).
[٢] ابتلت بالدموع: يقال خضل وأخضل: إذا ندي.
[٣] ولا يكادون: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم.
[٤] استأصل به خضراءهم: أي بما أجتث به شجرة حياتهم.
[٥] العذراء: الجارية التي لا يمسها رجل وهي البكر.
[٦] البتول: المنقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم.

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: ماعدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت[1] بطارقته حوله حين قال ما قال: فقال: وإن نخرتم والله أذهبوا فأنتم شُيومُ بأرضي "والشيوم الآمنون" من سبّكم غرم، ثم من سبّكم غرم، فما أحبُّ أن لي دَبَراً ذهباً، وأني آذيت رجلاً منكم، والدَّبر بلسان الحبشة الجعل،ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله، ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ، فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[2].

وقد أسلم النجاشي، وصدق بنبوُّة النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات على الباطل وحرصهم على الضَّلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة ـ وإن صادمت العقل والنقل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج إليهم إلى المصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر عليه أربع تكبيرات[3]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي: **«مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلَّوا على أخيكم أصحمة[4]، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة تسع عند الأكثر، وقيل سنة ثمان قبل فتح مكة»**[5].

- **ـ دروس وعبر وفوائد:**

ـ كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددة، ولذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على اختيار نوعيات معينة لتحقيق هذه الأهداف، كشرح حقيقة الإسلام، وموقف قريش منه، وإقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين عى نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك

[1] فتناخرت: أي تكلمت وكأنه كلام مع غضب ونفور.
[2] مسند أحمد (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).
[3] الهجرة في القرآن الكريم، ص: ٣٠٩.
[4] أخرجه البخاري، الحديث رقم:٣٨٧٧.
[5] أسد الغابة (١ / ٩٩)، الإصابة (١ / ١٠٩).

سياسي، يشرح قضاياها وكسب الرأي العام إلى جوارها[1]، وفتح أرض جديدة للدعوة، فلذلك هاجر سادات الصحابة في بداية الأمر، ثم لحق بهم أكثر الصَّحْب وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[2].

ـ إن اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطة استراتيجية مهمة، تمثلت في معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بما حوله من الدول والممالك، فقد كان يعلم طيِّبها من خبيثها، وعادلها من ظلمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال القائد الناجح، الذي لا بد أن يكون ملماً بما يجري حوله، مطلعاً على أحوال وأوضاع الأمم والدول والحكومات[3].

ـ كان وعي القيادة النبوية على مستوى الأحداث، ولذلك وُضع جعفر بن أبي طالب على إمارة المسلمين في الهجرة، وتمَّ اختياره من قبل المسلمين المهاجرين، ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، وقد امتازت شخصية جعفر بعدة أمور، جعلته يتقدم لسد هذه الثغرة العظيمة، منها: أنَّ جعفر بن أبي طالب من ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد عاش معه في بيت واحد، فهو أخبر الناس بقائد الدعوة وسيد الأمة من بين كل المهاجرين إلى الحبشة.

وهذا الموقف بين يدي النجاشي يحتاج إلى بلاغة، وفصاحة، وبنو هاشم قمة قريش نسباً وفضلاً، وجعفر في الدّؤابة[4] من بني هاشم، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة واختار نبيه من هاشم، فهو أفصح الناس لساناً وأوسطهم نسباً، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا يجعل النجاشي أكثر اطمئناناً، وثقة بما يعرض عن ابن عمه[5].

---

[1] أضواء على الهجرة، توفيق محمد سبع، ص: ٤٢٧.
[2] التربية القيادية، منير الغضبان (١ / ٣٣٣).
[3] السيرة النبوية (١ / ٢٨٩).
[4] الدؤابة من كل شئ: أعلاه.
[5] التربية القيادية (١ / ٣٣٥).

خُلق جعفر المقتبس من مشكاة النبوة وجمال خلقه المنحدر من أصلاب بني هاشم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجعفر: «**أشبهت خلقي وخُلُقي**»[1]، فالسفير بين يدي النجاشي كان قدوة لسفراء المسلمين على مر الزمان، وكرَّ العصور، فقد اتصف بسمات السفراء المسلمين، كالإسلام وانتماء إليه، والفصاحة والعلم، وحسن الخلق، والصبر والشجاعة والحكمة، وسعة الحيلة، والمظهر الجذاب[2].

ـ كان رد جعفر على أسئلة النجاشي في غاية وقمة المهارة السياسية والإعلامية والدعوة والعقدية، فقد قام بالتالي:

ـ عدَّد عيوب الجاهلية وعرضها بصورة تنفر السامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركَّز على الصفات الذميمة التي لا تنتزع إلا بنبوة.

ـ عرض شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المجتمع الآسن[3] المليء بالرذائل، وكيف كان بعيداً عن النقائص كلها، ومعروفاً بنسبه وصدقه وأمانته وعفافه فهو المؤهل للرسالة.

ـ أبرز جعر محاسن الإسلام وأخلاقه، التي تتفق مع أخلاقيات دعوات الأنبياء، كنبذ عبادة الأوثان، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكون النجاشي وبطارقته موغلين في النصرانية فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

ـ فضح ما فعلته قريش بهم، لأنهم رفضوا عبادة الأوثان وآمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وتخلقه بخلقه.

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٦٩٩.
[2] سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، محمود شيت (٢ / ٢٥٢ ـ ٣١٧).
[3] الآسن: المتغير الفاسد.

ـ أحسن الثناء على النجاشي بما هو أهله بأنه لا يظلم عنده أحد، وأنه يقيم العدل في قومه.

ـ وأوضح أنهم اختاروه كهفاً من دون الناس، فراراً من ظلم هؤلاء الذين يريدون تعذيبهم، وبهذه الخطوات البينة الواضحة دحر بلاغة عمر وفصاحته واستأثر بلبِّ النجاشي وعقله، وكذلك استأثر بلبٍّ وعقل البطارقة والقسيسين الحاضرين.

وعندما طلب النجاشي شيئاً ممّا نَزل على محمد صلى الله عليه وسلم، جاء صدر سورة مريم في غاية الإحكام والروعة والتأثير، حتى بكى النجاشي وأساقفته وبلّلوا لحاهم ومصاحفهم بالدموع، واختيار جعفر لسورة مريم يظهر بوضوح حكمة وذكاء مندوب المهاجرين، فسورة مريم تتحدث عن مريم وعيسى عليهما السلام[١].

إن عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع، والزمن المناسب، والقلب المتفتح والشحنة العاطفية أدت إلى أن يربح الملك إلى جانبه[٢].

كان ردّه في قضية عيسى عليه السلام دليلاً على الحكمة والذكاء النادر، فقد ردّ بأنهم لا يُؤلهون عيسى ابن مريم، ولكنهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم عليها السلام، كما يخوض الكاذبون، بل عيسى ابن مريم كلمة الله وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطاهرة، وليس عند النجاشي زيادة عما قال جعفر، ولا مقدار هذا العود[٣]، هم لا يسجدون للنجاشي، فهم معاذ الله أن يعدلوا بالله شيئاً، ولا ينبغي السجود إلا لله، لكنهم لا يستخفون بالملك بل يوقرونه، ويسلمون عليه كما يسلمون على نبيهم ويحيونه بما يُحيّي أهل الجنة أنفسهم به في الجنة[٤].

انتهى الأمر بأن أعلن النجاشي صدق القوم، وأيقن بأن هؤلاء صدّيقون، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأتيه ناموس كناموس موسى، وأن

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (١ / ٢٩٢).
[٢] التربية القيادية (١/ ٣٣٧).
[٣] المصدر السابق (١/ ٣٤٢).
[٤] التربية القيادية (١/ ٣٤٢).

يتقرّب إلى الله بحماية أصحابه وأكّد لعمرو أنه لا يضيره تجارة قريش ولا مال قريش ولا جاهها، ولو قطعت علاقتها معه[1].

انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسياً ومعنوياً وإعلامياً أمام مقاومة المسلمين الموفقة وخطواتهم وأساليبهم الرصينة[2].

العلاقات الخارجية في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الإسلامية الحديثة أن تسترشد بالهدي النبوي الكريم في علاقاته الخارجية، وتطور رسالتها بما يلائم العصر والمتغيرات وتقوم سياستها على الالتزام بالثوابت والتوازن، والاستقلالية والفعالية والتأكيد على إيجابية وأهمية الرسالة الإنسانية النافعة على كافة الصعد الدولية والإقليمية، وتجعل المصلحة الوطنية للدولة واسطة العقد وحجر الزاوية في سياستها الخارجية وتؤمن بالحرب دفاعاً عن عقيدة الشعب وتراب الوطن وكرامته ومصلحة أبنائه وفي كل الأحوال فالحرب ليست هدفاً في حد ذاتها.

- وتؤمن بأهمية التعاون بين الدول والشعوب، وذلك في إطار الالتزام بأسس ومبادئ الشرعية الدولية.

- تلتزم بالعهود والمواثيق التي تبرمها الدولة مع الأفراد أو الدول أو المنظمات أو الجماعات.

- تتمسك بضرورة تسوية كافة المنازعات الدولية بالطرق السلمية وحظر باستخدام القوة للنيل من سلامة أراضي أية دولة أو استقلالها السياسي.

- تحترم سيادة الدولة الأخرى ومنع التدخل في شؤونها الداخلية وحقها في تقرير مصيرها.

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٢٩٣).
[2] المصدر نفسه (١/ ٢٩٣).

ـ تدعو إلى السلام الإقليمي والعالمي كهدف استراتيجي وتعتبر أن التعاون بين الدول في مختلف المجالات هو الأساس والنبراس لعالم أكثر استقراراً ورفاهية وتنمية.

ـ تدعم مسيرة العمل العربي والإسلامي المشترك سياسياً، واقتصادياً وأمنياً من أجل تعزيز العمل العربي والإسلامي والإنساني المشترك وتعظيم الروابط بين الدول والشعوب والدفاع عن حقوقها والتأكيد على نصرة القضايا العادلة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

ـ تلتزم بجميع قرارات جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والاتحاد الأفريقي، وتحترم كافة الالتزامات المنبثقة كافة الاتفاقيات والمعاهدات والبروتوكولات، وما في حكمها، والتي تكون الدولة طرفاً فيها.

ـ تطالب بوضع حد للانتهاكات الإسرائيلية وتحقيق التسوية السلمية في الشرق الأوسط بقيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس.

ـ تؤكد على ضرورة العمل على استعادة حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وتؤمن بحق الشعب الفلسطيني في مقاومة المحتل، وحقه في تقرير مصيره.

ـ تنخرط وتساهم وتدعم كافة الجهود الدولية التي تسعى لتحقيق الأمن والسلم الدوليين، وتتصدى مع المنظومة الدولية للفقر والجوع وانتشار أسلحة الدمار الشامل والأمراض الخطيرة وتدهور البيئة، وانتهاكات حقوق الإنسان.

ـ تؤكد على ضرورة إرساء قواعد شراكة جديدة بين الدول المتقدمة والدول النامية، تساهم في استقرار ونمو العلاقات الاقتصادية بين هذه الدول وتضع أسساً متوازنة وعادلة للتجارة الدولية، يتحمل فيها كل طرف مسؤولياته عبر دعم ومساعدة الهياكل الاقتصادية للدول النامية، والتزام الدول المتقدمة أيضاً بتعهداتها بتقديم المساعدات المالية والفنية إليها، والعمل على تخفيف أعباء الديون وإلغائها عن الدول الأكثر فقراً، هذا بالإضافة إلى إلغاء

القيود الجمركية على وصول السلع القادمة من هذه الدول، وتيسير حصولها على التكنولوجيا الكفيلة بتأهيلها للاندماج بشكل إيجابي في النظام الاقتصادي الدولي.

ـ ضمان استقرار سوق النفط بالقدر الذي يسمح بحفظ وتيرة التنمية الاقتصادية لجميع الدول.

ـ تدعو إلى التعاون مع كافة مؤسسات المجتمع المدني، ومن خلالها تساهم وتدعم جهودها في معالجة الكوارث والمحن العامة كالمجاعات والزلازل، وتسعى صوب نشر الشورى، وحماية حقوق الإنسان، وإرساء قيم الحوار وقبول الآخر على ركائز وأسس التكافؤ والاحترام المتبادل.

ـ تؤيد المشاركة الفعالة والمساهمة في تمويل ودعم جهود الأمم المتحدة في حفظ السلم والأمن الدوليين في شتى أصقاع المعمورة.

١٥ـ سياسة كسب الأعداء:

من فقه الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء الدولة القدرة في التعامل مع النفوس وكسب الأعداء فمثلاً:

أ ـ أبو سفيان بن حرب زعيم قريش:

جاء أبو سفيان الذي خرج يلتقط الأخبار عندما سمع بقدوم رسول الله لفتح مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصحبة عمه العباس رضي الله عنه فلم ينشغل النبي صلى الله عليه وسلم في محاسبة أبي سفيان ولم يسرف في مقاضاته وهو كالأسير داخل معسكر المسلمين، بل توجه ليحدثه عن هدفٍ سامٍ عاش النبي صلى الله عليه وسلم لأجله هو الدعوة إلى الله، فوجه كلامه لأبي سفيان: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا**

الله»، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: **«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»** قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله في النفس منها حتى الآن شيئاً، فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: **«نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»**[١].

لقد كان لتلك الطريقة المحمدية أثرها في أبي سفيان الذي تغير إلى الولاء الكامل للدعوة الجديدة وكانت له مواقف كبيرة في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة حنين، كما كان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملاً في امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان زعيم قريش، وبرهن له بأن المكانة التي كانت عند قومه لن تنتقص شيئاً في الإسلام، إن هو أخلص له وبذل في سبيله[٢]، وجعل صلى الله عليه وسلم لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويشيع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه[٣]، لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعاً، ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[٤].

ولقد دخلت قوات المسلمين مكة دون مقاومة تذكر إلا ما كان من جهة خالد بن الوليد الذي قابل عكرمة بن أبي جهل في نفر خافوا الانتقام فهزمهم خالد فهربوا خارج مكة، ثم عاد

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٣٩٩).
[٢] العدالة والمصالحة الوطنية للصلابي، ص: ٨٢.
[٣] دراسات في السيرة، د. عماد الدين خليل، ص: ٢٤٥.
[٤] البداية والنهاية لأبن كثير (٤/ ٢٩٠).

عكرمة ليأخذ أماناً وعفواً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلم ويشارك في الجهاد في فتوحات الشام ويقتل في اليرموك شهيداً.

ب ـ يوم بر ووفاء مع عثمان بن طلحة:

كان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة قبل أن يسلم فأراد علي رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السقاية، لكن النبي صلى الله عليه وسلم دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة، ورده إليه قائلاً: «**اليوم يوم بر ووفاء**»[١]، وكان صلى الله عليه وسلم قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: «**يا عثمان، لعلك ترى المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت**»، فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ وذُلّت، فقال: «**بل عَمَرت وعُزّت يومئذٍ**»، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال[٢]، ولقد أعطى له رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة قائلاً له: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء**[٣]**، خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم**»[٤]. وهكذا لم يشأ النبي صلى الله عليه وسلم أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل ولم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، لما في ذلك من الإثارة أولاً ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، هذا هو مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله صلى الله عليه وسلم البر والوفاء، حتى للذين غدروا ومكروا وتطاولوا.

ومهما تعاظمت الاختلافات بين أبناء الوطن الواحد، ومهما توالت الإساءات والمظالم، فالعفو والصفح والتغافر هو الأفضل للمتخاصمين، وللوطن وللأجيال القادمة وهذا بالطبع ما سطره لنا التاريخ في فتح مكة.

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٣
[٢] السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٠٧).
[٣] السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨٢).
[٤] السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٠٧).

إن الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم شرف لنا قبل أن يكون حلاً ناجحاً لمشاكلنا واختلافاتنا[1].

ج ـ إعلان العفو العام:

نال أهل مكة عفواً عاماً برغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم، وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، فقال: «**ما تظنون أني فاعل بكم**»، فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، آية : ٩٢)[2]: **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتال أو السبي، وأيضاً الأموال المنقولة، والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها[3].

إلى جانب ذلك الصفح الجميل، كان هناك الحزم الأصيل الذي لابد أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم ـ وإن وجدوا معلقين بأستار الكعبة ـ لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس[4] بعد الفتح، ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه[5].

وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدرة رفيعة في التعامل مع الخصوم فدخلت هند في الإسلام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وفضالة بن عمير وغيرهم كثير.

د ـ شاعر قريش عبد الله بن الزبعرى:

---

[1] العدالة والمصالحة الوطنية للصلابي، ص: ٨٧.
[2] البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١١٨).
[3] السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٠٨).
[4] السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).
[5] السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).

لما فتحت مكة فرّ عبد الله بن الزبعرى السهمي إلى نجران، فلحقته قوافي حسّان، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيره بالجبن والفرار فقال له:

لا تعد من رجلاً أحلك بغضُهُ

نجران في عيش أحدّ لئيم[1]

أي: فليبق الله لنا محمداً صلى الله عليه وسلم هذا الرجل العظيم الذي أحلك بغضه ديار نجران، وليُدم الله عليك ابن الزبعرى عيشاً مهيناً أشأم ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري ونجله، ويسأله الله أن يخلده في سوء العذاب وأليمه[2]، فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعرى وقام ولم يقعد وقلب أموره، ثم أراد الله به الخير، فعزم على الدخول في الإسلام، ثم توجه إلى مكة، وقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الإسلام يجب ما قبله**»[3]، ثم أدناه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه وآنسه، ثم خلع عليه حلة، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعرى رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعراً كبيراً حسناً يعتذر فيه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم[4].

قال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذّب عنه[5].

ومن القصائد الرائعة التي قالها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وندمه على محاربة الإسلام، وتأخره في الدخول فيه:

منع الرُّقاد بلابل وهموم

والليل معتلج[6] الرّواق[7] بهيم[8]

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (٢/ ٤٢٤).
[2] المصدر نفسه (٢/ ٤٢٤).
[3] المغازي (٢/ ٨٤٨).
[4] السيرة النبوية (٢/ ٤٢٤).
[5] البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨).
[6] معتلج: ملتطم.
[7] الرّواق: مقدم الليل.
[8] بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح.

مَمّ أتاني أن أحمد لامني

فيه فبت كأنني محموم

يا خير من حملت على أوصالها

عيرانه[1] سرح اليدين غشوم[2]

إني لمعتذر إليك من الذي

أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

أيام تأمرني بأغوى خطة

سهم وتأمرني بها مخزوم

وأمد أسباب الرّدى ويقودني

أمر الغواة وأمرهم مشؤوم

فاليوم آمن بالنبي محمد

قلبي مخطئُ هذه محروم

مضت العداوة وانقضت أسبابها

ودعت أواصر بيننا وحلوم

فاغفر فدى لك والديّ كلاهما

زللي فإنك راحم مرحوم

وعليك من عِلْم المليك علامة

نور أغر وخاتم مختوم

أعطاك بعد محبة برهانه

شرفاً وبرهان الإله عظيم

ولقد شهدت بأن دينك صادق

[1] عيرانه: راحلة.
[2] غشوم: شجاع لا يثنيه أمر عن عزمه.

حق وإنك في العباد جسيم

والله يشهد أن أحمد مصطفى

مستقبل في الصالحين كريم

قَرْمٌ علا بُنيانُهُ من هاشم

فرْعٌ تمكن في الذُّرا وأُرُوم[1]

وأسلم فيما بعد كعب بن زهير ونستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب، وعبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي، واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته[2].

هـ ـ تعامله مع هوازن ومالك بن عوف زعيمها:

جاء وفد هوازن بعد هزيمتهم في حنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالجعْرَانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صُرد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خلاتك، وحواضنك اللاّتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا لأبن أبي شمر أو النعمان بن المنذر[3]، ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثم أنشأ يقول:

امنن علينا رسول الله في كرم

فإنك المرءُ نرجوه وننتظر[4]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها

[1] البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، أروم: أصل.
[2] من معين السيرة، ص: ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣.
[3] البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).
[4] المصدر نفسه (٤/ ٣٥٢).

إذ فوْك يملؤه من محضها دَرَرُ

امنن على نسوة قد كنت ترضعها

وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السلام قديماً وحديثاً وخصوصاً وعموماً[1].

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوفد قال لهم: «**نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» فقالوا: يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ابناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أمَّا ما كان لي، ولبني عبد المطلب، فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم**». فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر، قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «**أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**». فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار، وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم، فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السَّلميُّ: أما أنا، وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول فيء نصيبه فردّوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم**»[2].

وفي رواية: فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المؤمنين فقال: «**إن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإني أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيّب ذلك فليفعل**»، فقال الناس: طيبنا يا رسول الله لهم. فقال لهم: «**إنا لا ندري من أذن منكم فيه ممن لم يأذن**

[1] البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).
[2] البيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

فأرجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمَركم». فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا[1].

وقد سُرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فوعدهم بردّ أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمئة من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاء مالك مسلماً فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة، ولقد تأثر مالك بن عوف، وجادت قريحته لمدح النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

في الناس كلهم بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى

ومتى تشاء يخبرك عما في غد

وإذا الكتيبة عرّدت[2] أنيابها

بالسمهري وضرب كل مُهنَّد

فكأنه ليث على أشباله

وسط الهباءة[3] خادر[4] في مرصد[5]

لقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود، وبهذه السياسة الحكيمة استطاع صلى الله عليه وسلم أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربة يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفاً في الطائف حتى ضيّق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان، فلا تستطيع تحركاً ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام، مثل عروة بن مسعود الثقفي، الذي سارع إلى اللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين، واعتمر من

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٤٣١٨، ورقم: ٤٣١٩.

[2] عرّدت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/ ٣١٣).

[3] الهباءة: غبار الحرب.

[4] الخادر: المقيم في عرينه.

[5] السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤).

الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه، وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذَّن في أعلى منزله، فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين حصار الطائف[١].

إن الإنسان ليعجب من فقه النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة النفوس، وفي سعيه الحثيث في بناء الدولة والتمكين لدين الله تعالى، لقد استطاع صلى الله عليه وسلم أن يزيل معالم الوثنية وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتب صلى الله عليه وسلم الأمور التنظيمية للأراضي التي أضيفت للدولة الإسلامية، فعيّن عتاب بن أسيد أميراً على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشداً وموجهاً ومعلماً ومربياً[٢]، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائداً ومجاهداً، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: وظائف الدولة والاهتمام بالمواطن

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤).
[٢] المصدر نفسه (٤/ ١٩٢).

الدولة من وظائفها حماية المواطن وتقديم الخدمات له، ومن أهمها:

١ـ السكن:

إن حاجة الإنسان إلى مسكن أمر من الأمور الأساسية في حياته وهو من نعم الله عز وجل على الإنسان.

ـ قال تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ (النحل، آية : ٨١).

أي أن الله سبحانه قد جعل البيوت أيًّا كان نوعها سكناً يفيء إليها الناس، ويشعرون فيه بالراحة ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، فتسكن نفوسهم وتطمئن، لذا فقد قررت الشريعة الإسلامية حق المسكن لكل أفراد الدولة، فمنحهم حرية بناء المساكن وتملكها والإيواء فيها والاحتماء بها، بل ألزم الدولة مسؤولية ضمان سكن لكل المحتاجين من أفرادها[١]، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«كلكم راع فمسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع عليهم وهو مسؤول عنهم»**[٢]، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«ما من أمير عشيرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل»**[٣].

ومن العدل تأمين حاجات كل ضعيف في المجتمع ومنها الحاجة إلى السكن، وإذا عجزت الدولة بمواردها المختلفة عن كفالة هذا الحق للمحتاجين من رعاياها، فإن المسؤولية تقع على عاتق الأغنياء في المجتمع فعليهم أن يقوموا بإيفاء حاجات الفقراء والمحتاجين من الطعام والشراب واللباس والمأوى الذي يقيهم حر الصيف وبرد الشتاء وعيون المارة[٤]، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من**

---

[١] الحريات من القرآن الكريم للصَّلاَّبي، ص: ١٢٨.
[٢] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٥٥٤.
[٣] مسند أحمد (٢ / ٤٣١).
[٤] احريات من القرآن الكريم، ص: ١٨٠.

لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»[1]، وللمساكن حرمات منها، عدم دخول المنزل إلا بإذن صاحبه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور ، آية : ٢٧ ـ ٢٨).

وقد أوجب الله بهذه الآية طلب الإذن قبل الدخول وعبَّر عنه بأنه الاستئناس الظاهر الذي هو ضد الاستيحاش، لأن الذي يقرع باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا، فهو كالمستوحش فإذا أذن له استأنس، ولما كان الاستئناس لازماً للإذن، أطلق اللازم وأريد ملزومه الذي هو الإذن[2].

وقد أوضح سبحانه أنه عليم بأفعال عباده ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ بمعنى أنه إذا غفل القانون لنقص في البينة أو الإثبات أو غفلت السلطة القائمة عن الموضوع، فإن عبودية الفرد لله وإحساسه بمعرفة الله لكل أفعاله صغيرة وكبيرة تجعله يتقي الله ويتذكر أن هناك قوة تراقبه أكبر من البينة القانونية والسلطة العامة، فلا يغفل بالتالي عن أوامر ربه ويتحرك تلقائياً لاحترام حرمة مساكن الناس[3].

وحرَّمت الشريعة التجسس على مساكن الناس ومن حق كل إنسان ألا يتجسس عليه أحد في عقر داره ولا ينظر إليه وهو داخل بيته خلسة، ومن هنا فقد حرم الإسلام التجسس على البيوت لما فيها من انتهاك العورات وكشف السوءات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تناحشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»**[4].

---

[1] سنن أبي داوود (٢ / ١٢٩) رقم: ١٦٦٣.
[2] أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٦ / ١١٣).
[3] مفاهيم الحق والحرية، د.عدي الكيلاني، ص: ٢١٦، ٢١٧.
[4] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٠٦٦.

ولقد بلغ من حرص الإسلام على حرمة المسكن أن أعطى صاحب المسكن حق الدفاع عن حرماته شرعياً، ولو أدى ذلك إلى فقأ عين المتلصص، فعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لو أن أمرءًا أطلع عليك بغير إذن فخذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح**»[1].

وعن أنس بن مالك أن رجلاً اطلع من بعض حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام إليه رسول الله بمشقص أو مشقاص وجعل يختله ليطعنه[2].

هذا والتجسس على الناس والنظر إلى عوراتهم والاستماع إلى أسرارهم يحرم سواء كان ذلك من أحد الناس تطفلاً، أو من المسؤولين، أم من جماعة من جماعات الناس خدمة لجهة من الجهات[3]، ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع عقوبة المخالف الذي كشفه بطريق التجسس، فقد روي أن عمر بن الخطاب كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل يتغني، فتسور عليه، فقال: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت في معصيته " حيث وجد عنده زق خمر" فقال: وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، وإن كنت عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاث:

ـ قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسست.

ـ وقال تعالى: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وقد تسورت عليّ.

ـ وقال تعالى: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ وقد دخلت عليّ بغير إذن، فقال عمر: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم والله لا أعود. فقال: اذهب فقد عفوت عنك[4].

إن الإسلام يشترط شرعية الوسيلة، كما يشترط نيل الغاية، وليقول لهم: إن الرجوع إلى الحق فضيلة لا تكاد تعادلها أي فضيلة أخرى[1].

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٩٠٢.
[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٦٩٠٠.
[3] حقوق الإنسان وحرياته الاساسية، ص: ١٣٠.
[4] الحريات من القرآن الكريم، ص: ١٨٣.

ـ **عدم الاستيلاء على منازل الغير**، أو هدمه جبراً، فإذا ملك الإنسان مسكناً، فإن ملكيته له تكون مصونة شرعياً، فلا يجوز لكائن من كان أن يعتدي على هذه الملكية بالاستيلاء، أو التعريض للتلف بالهدم وغيره، إلا إذا كان ذلك من قبل الحاكم واقتضته مصلحة عامة، كتوسعة طريق، أو بناء مرفق عام كمسجد أو مستشفى أو حديقة أو غيرها.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين أنا مظلوم ولا أستطيع أن أتكلم، فقال له: ويلك عليك الطلاق، فقال: نعم، فقال: تكلم ولا طلاق عليك، فقال: هذا وأشار إلى عامله وكان في القوم، فقال: هذا أخذ من حائطي أو داري، فقال له: اردد عليه، ثم قال: لولا أن أحدث في الإسلام عقوبة لم تكن لأمرت أن يغور أثر السجود من جبهتك وكان بين عينيه سجدة[٢].

ـ استخدام المسكن بالشكل المناسب:

لكل إنسان حسب إمكاناته الحق في اختيار مكان سكنه مراعياً عناصر اقتصادية وشخصية ووظيفية يعود له وحده أن يقدرها وله الحق أيضاً في استعمال مسكنه بالشكل الذي يراه مناسباً على أن يكون ذلك محكوماً بالقواعد والضوابط الشرعية التي تقتضي أنه لا ضرر ولا ضرار، فإذا كان مستأجراً عليه أن يراعي شروط العقد، وإذا كان مالكاً لطبقة في بناء فعليه أن يتقدم بالقانون الذي ينظم الملكية المشتركة، وعلى الإنسان في كل الأحوال ـ مالكاً أو مستأجراً ـ التقيد بالأنظمة المتعلقة بالصحة العامة والراحة العامة بحيث لا يقلق جيرانه، وإذا كان مرتفقاً فعليه ألا يتسبب في إيذاء أصحاب المساكن والأملاك وإلا فإنه يمنع من ممارسة حق الارتفاق إذا أدت ممارسته لهذا الحق إلى الإضرار بحقوق الآخرين في حفظ مساكنهم ودورهم[٣].

والإسلام بطبعه وروحه يلزم المسؤولين الحكام، والأمراء وقادة الدولة بحل أزمة الإسكان المنتشرة بين الشعوب، فالدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية من خلال وزارة الإسكان تعمل على تحقيق الأهداف الآتية:

ـ اعتبار التخطيط العمراني جزء من المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية العامة للدولة.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٨٤، الحرية الشخصية في مصر، ص: ٣٩٠.
[٢] الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٢١٦).
[٣] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص: ١٢٩.

ـ إعادة التخطيط العمراني للمدن في الدولة على أسس علمية تكفل الحفاظ على التراث والهوية والشخصية الإسلامية المميزة.

ـ تطوير التشريعات المتعلقة بالبناء والتشييد لتواكب النهضة العمرانية المأمولة.

ـ زيادة الإنفاق على قطاع التشييد والبناء وتعويض المناطق التي لم تنل نصيبها من الاهتمام بقطاعات الإسكان فيها، وذلك من خلال بناء التجمعات السكنية والمدن الجديدة.

ـ القضاء على العشوائية في البناء والتشييد والالتزام بمخطط عمراني شامل تلتزم به الدولة وتكفل التزام المواطنين به.

ـ دعم وتشجيع دور القطاع الخاص في التطوير العقاري والإسكان.

ـ مد رقعة البناء والتشييد والتعمير وبناء المدن إلى المناطق النائية والمحرومة على قدم المساواة وبذات الاهتمام بالمدن الرئيسية.

ـ توفير وحدات سكنية لائقة، وبأسعار ملائمة تدعمها الدولة.

ـ سن التشريعات القانونية المنظمة للعملية التطويرية العقارية من جميع جوانبها الإنشائية والرهن العقاري والملكية والتأمين العقاري، والتثمين والمسح وحسابات الضمان والنزاعات العقارية والتسويق والبيع على الخارطة وكل ما يتعلق بأمور التطوير العقاري.

ـ تأسيس وتطوير واستحداث المؤسسات المالية العقارية وتفعيل دورها في مجال التطوير العقاري.

٢ـ العمل:

الأصل في الإسلام أن يختار الإنسان ما يرغب فيه من العمل، كأن يكون نجاراً أو مزارعاً أو خياطاً أو معلماً أو طبيباً أو موظفاً في عمل من أعمال الدولة أو تاجراً أو غير ذلك، وهذا المبدأ ـ حرية اختيار العمل ـ أساسه من أن الناس يتفاوتون في القدرات، والمواهب، والخبرات والهوايات المختلفة في القيام بالأعمال واختيار الحرف، ولم يقيد الإسلام الإنسان إلا

بمشروعية العمل،وهذه القاعدة لم يستطع أي نظام أن يخالفها أو ينكرها، بل أن المساواة التامة بين الأفراد في الأعمال وعدم التفاوت لا تكاد توجد في أي مجتمع مهما كان الحال، وكذلك اختيار العمل يكون عاملاً هاماً في دفع الإنسان إلى بذل الطاقة الحقيقية مع إتقان العمل وإن أسوأ المجتمعات هي التي توكل الأعمال إلى من لا يحسنها وإلى من ليس له ميل إليها ولا موهبة له في إتقانها ويكون كل واحد من الناس موضوعاً في موضعه اللائق به، وقد ورد في الحديث: «**إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»، وإن أحسن المجتمعات وأقدرها على الإنتاج كثرة وإتقاناً هي تلك التي يوزع فيها الأفراد كل ما يناسب قدرته ومواهبه وميوله.

إن تنوع التخصصات وكثرة التفاوت من سمات المجتمعات الراقية، وكلما كان المجتمع أرقى كان التفاوت والتخصص أكثر، وذلك يؤدي إلى ما سمَّاه بعض علماء الاجتماع بالتضامن العضوي للمجتمع، فكل فرد يقدم من العمل والإنتاج ما يقدر عليه بحسب ما أوتي من قدرة ومواهب ويحاسب على هذا الأساس، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا النوع من التفاوت الذي تعود ثمرته على الإنسانية جمعاء[1].

ـ قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام ، آية : ١٦٥).

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم﴾ (المائدة ، آية : ٤٨).

لقد كان القرآن صريحاً في التعبير عن هذا القانون الاجتماعي وهو تفاوت الناس في مواهبهم وقدراتهم وبالتالي في أعمالهم ويتعرفون إليها، وهذا الاختلاف في المواهب والقدرات هو الذي يجعل كل إنسان يحتاج إلى غيره من الناس مهما كانت أعمالهم لأن حاجات الإنسان متنوعة ومتعددة ولا يستطيع إشباعها بمفرده، فمنها ما هو مادي، ومنها ما هو نفسي أو عقلي، ولذلك كل إنسان مسخر لقضاء حاجات الآخرين حتى ولو لم يشعر هو بذلك، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة[2].

[1] النظام السياسي والاقتصادي، يوسف العالم، ص: ٣١.
[2] النظام السياسي والاقتصادي، يوسف العالم، ص: ٣١.

ـ قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الزخرف ، آية : ٣٢).

أي: أن الله خلق الناس متفاوتين في القدرات، يقدم كل واحد منهم من الأعمال ما يحتاج إليه الآخر، وكذلك الآخر بالمقابل وكذلك الآخر بالمقابل، بمعنى أن كل واحد بالنسبة إلى الآخر مسخَّر على وجه التبادل والتعاون، فأهل الحرف مثلاً، كالخباز والنجار والحداد يُسخِّرون المعلم لتعليم أولادهم والمعلم يُسخرهم لما يحتاج إليه من خبز أو حدادة أو تجارة، وكذلك الطبيب والمهندس والمزارع والبنَّاء، والموظف، وسائر أصحاب الأعمال يسخر بعضهم بعضاً فيما يتقنونه ويحسنونه ويقدمون من أعمال وخدمات، بالمقابل والتبادل بها وبهذا المعنى فسر الآية كبار المفسرين كالزمخشري والرازي وابن كثير وغيرهم فقال الزمخشري: ليرتفق الناس بعضهم بعضاً[١].

وقال ابن كثير: قيل معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا المعنى: وقال الرازي: جعل تعالى ذكره بعضاً لبعض سبباً في المعاش في الدنيا[٢].

إن الاختلاف والتباين بين البشر سبب لتعاونهم وذلك ليكمل بعضهم بعضاً، وليتوزعوا الأعمال المختلفة المتنوعة التي يحتاج إليها المجتمع وليتبادلوها فيما بينهم فيحصل لهم النفع جميعاً[٣].

من هذا المفهوم للتفاوت في القدرات والمواهب نشأت فكرة اتفق عليها علماء المسلمين وأوضحوها وتناقلوها، وهي أن الصناعات وجميع الأعمال التي يحتاج إليها المجتمع هي فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، وإذا لم يقم بها أحد أثموا جميعاً، قال الغزالي في إحياء علوم الدين : أما فرض الكفاية فكل علم لا يستغنى عن قوام أمور الدنيا كالطلب والحساب وأصول الصناعات والسياسة، وقال ابن تيمية: قال غير واحد من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم.. أن هذه الصناعات كالفلاحة والنساجة والبناية فرض على

---

[١] الحريات من القرآن الكريم للصلابي، ص: ١٥٧.
[٢] النظام السياسي والاقتصادي، ص: ٣٢.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

الكفاية فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها[1]. إن التفكير الإسلامي الأصيل المستند إلى مصادره الأساسية الكتاب والسنة ينظر إلى الفرد في إطار المجتمع، ولم ينظر إليه منعزلاً في هذا المجال الاقتصادي، كما في غيره في المجالات، فالإسلام لا يعرف فرداً بدون جماعة ولا يعرف مجتمعاً بدون أفراد كما أنه لا يعرف مجتمعاً للرجال بدون النساء، ولا مجتمعاً للنساء بدون رجال ولا يعتبر مصلحة الدنيا بدون اعتبار مصلحة الدين لأن الدنيا مزرعة الآخرة.

إن التصور الإسلامي يعتبر أصحاب الأعمال على اختلاف أنواعها متساوين في القيمة الإنسانية والكرامة البشرية، ويتفاضلون بما يقدمون للمجتمع من منافع[2].

إن مسؤولية العمل تتقاسمها ثلاث أطراف وهي:

أ ـ العمال:

فأما العمال فقد أنزلتهم الشريعة منزلة رفيعة، وأولتهم عناية خاصة وتعاملت معهم على أساس ما يلي من القواعد:

ـ تكريم اليد العاملة والثناء على أهلها، كما في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»**[3].

ـ تقدير الجهود العمالية واعتبارها من محاسن الأفعال التي يحبها الله لما في الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صافح سعد بن معاذ رضي الله عنه، فإذا يداه قد أكتبتا[4]، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أضرب بالمُر[5] والمسحاة لأنفق على عيالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«كفان يحبهما الله»**[6].

ـ تفضيل العمل كيفما كان على مذلة السؤال، ولو كان جمع حزمة حطب وبيعها، أو اشتغالاً بأبسط الحرف، أو امتهان أي مهنة مهما قلت عائداتها، فهي أفضل من أن يبقى الإنسان عالة

---

[1] الحسبة لابن تيمية، النظام السياسي والاقتصادي، ص: ٣٢.
[2] الحريات من القرآن الكريم للصلابي، ص: ١٥٨.
[3] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٢٠٧٢.
[4] أكتبت اليد: إذ غلظ جلدها من العمل.
[5] المُر: المحراب.
[6] المبسوط للسرخسي (٣٠/ ٣٣).

على غيره ينتظر أن يجود عليه بشيء كما في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه**»[١].

ـ اعتبار إتقان العمل من موجبات المحبة الإلهية، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[٢].

اعتبار أتعاب العمل في أسباب المغفرة الإلهية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من بات كالاً من عمله بات مغفوراً له**»[٣].

ـ حرمان القادرين على العمل من حق التكافل الاجتماعي متى امتنعوا عن القيام به، إذ : لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرَّة سوي[٤].

ـ تمكين العمال من مستحقاتهم وإن كان عملهم بنية التطوع في سبيل الله، فعن ابن الساعدي قال: استعملني عمر على الصدقة، فلما فرغت أمر لي بعمالة[٥]، فقلت: إنما عملت لله، قال: خذ ما أعطيت، فإني قد عملت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعمّلني[٦]. وهو ما يفيد بأن للدولة الحق في مراقبة موظفيها ومحاسبة كل من يخل بواجباته المهنية بغير عذر، ولا يقبل من أي كان منهم التعلل بأنه مجرد متطوع بعمل في سبيل الله، وبهذا يستقيم تدبير الشأن العام، وتحفظ المصالح العامة من الإهمال والضياع[٧].

ـ تجريم سرقة المال العام من طرق العمال والموظفين في مؤسسات الدولة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول**»[٨].

ـ من ظلم من العمال فله الحق في الدفاع عن نفسه ورفع مظلمته بجميع الطرق المشروعة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن لصاحب الحق مقالاً**»[٩].

---

[١] البخاري الجامع الصحيح رقم: ١٩٦٨.
[٢] سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، رقم: ١١١٣.
[٣] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني، رقم: ١١٧٩٨.
[٤] صحيح ابن حبان، رقم: ٣٢٩٠.
[٥] عمالة: ما يقابل العمل من الأجر.
[٦] عمّلني: أعطاني أجر عملي.
[٧] مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية عبد النور بزا، ص: ٢٦٣.
[٨] سنن أبي داوود رقم ٢٩٤٣.
[٩] التمهيد لابن عبد البر (٤ / ٨٨) وزارة الأوقاف المغرب.

ب ـ أصحاب العمل:

وأما أرباب العمل: فقد تعاملت معهم الشريعة وفق مجموعة من القواعد وطالبتهم بمجموعة من الالتزامات التنظيمية في تعاملهم وأهمها:

ـ إخبار العمال بمقادير أجورهم قبل البدء في العمل لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من استأجر أجيراً فليعلمه أجره»**[١].

ـ تكليف العمال بما يطيقون من الأشغال، لأنه تكليف بما لا يطاق، وكل من عجز عن شيء سقط عنه.

ـ أداء مستحقات العمل في الوقت المناسب لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»**[٢].

ـ محاسبة المستأجرين عن التماطل في أداء مستحقات العمال أو الامتناع عن تسليمها لهم، لقول الله تعالى في الحديث القدسي: **«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»**[٣].

جـ ـ الدولة:

وأما الدولة، فقد ألزمتها الشريعة برعاية المصالح العامة وطالبتها بما يلي:

ـ تهيئة فُرص العمل وتمكين كل القادرين ممَّا يناسب كفاءاتهم من الوظائف، لأن ذلك من الفروض الكفائية العامة الواجبة على الدولة.

ـ رعاية العاجزين عن العمل، كمن أقعدته عاهة، أو مرض، أو ضعف مدني، أو شيخوخة عن العمل، والإنفاق عليهم من المال العام[٤].

ـ تحفيز العمال والموظفين على الاجتهاد في العمل بمختلف المحفزات المساعدة على توفير أجواء الاستقرار النفسي والاجتماعي، وفي مقدمتها تزويج غير المتزوجين من الموظفين وتمكينهم من الأعوان والمساعدين، وتوفير السكن الوظيفي لكل من ليس له سكن، على حساب

---

[١] الهداية شرح البداية للمرغيناني (٣ / ٢٣١).
[٢] سنن ابن ماجه، الحديث رقم: ٢٤٤٣ (٢/ ٨١٧).
[٣] البخاري، الجامع الصحيح، رقم: ٢١٥٠.
[٤] مغني المحتاج للشربيني (١ / ٤٠٤).

المال العام، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كان له عاملاً، فلم يكن له زوجة فليكتسب له زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً، ومن اتخذ غير ذلك فهو غالٍ أو سارق**»[١].

وكل هذا أكد المصالح الاجتماعية الكفائية الواجبة على الدولة وليس منة منها ولا إحسانٍ[٢].

وهذه القواعد الشرعية والقيم التكريمية تحتاج إلى تفعيل في واقع مجتمعاتنا بين الباحثين عن العمل وأصحابه والدولة، ومما يساعد على تفعيل القواعد والأصول المذكورة إعادة تشكيل العقلية العامة للشعوب في اتجاه إقناعها بأهمية توزيع الخيرات بشكل عادل بين الناس، وتقسيم فرص العمل دون تمييز بين أفواج المعطلين ومساعدة ذوي الكفاءات على إيجاد مشاريع عمل يكسبون بها قوتهم اليومي ويساهموا في ارتقاء شعوبهم وتطوير دولهم٣.

لقد رفع الإسلام من قيمة العمل وحث عليه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك ، آية : ١٥).

وأعطى الإسلام الإنسان حرية العمل في كافة المجالات إلا فيما يتعارض مع النصوص الشرعية وأحكام الإسلام.

ـ كالتعامل بالربا أو القمار، أو بيع الخمور أو الدعارة.. الخ أو فيما يتعارض مع حقوق الآخرين وحرياتهم[٤].

إن الإسلام يعتبر كل جهد نافع، ويحقق مصلحة لصاحبه، أو للناس والمجتمع عمل مطلوب شرعاً وإن وجوه العمل في الإسلام غير محددة، وتشمل كل جهد بناء وتغطي جميع النشاطات في المجال التجاري والزراعي والصناعي والمهني وممارسة كل الحرف التي تخدم البشرية والأعمال اليدوية والذهنية والفكرية والأدبية حتى اعتبر الفقهاء رئاسة الدولة والخلافة والولاية

---

[١] صحيح وضعيف الجامع الصحيح للألباني، رقم: ٦٤٨٦.
[٢] مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية، ص: ٢٦٥.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٢٦٦.
[٤] حقوق الإنسان، علي محمد الدباس، ص: ٤٥.

عملاً وهو ما صرّح به أبو بكر رضي الله عنه بقوله: إني لأعمل للمسلمين ويطلق على الولاة اسم العمال، وتتكرر عبارة: أرسل عامله " وأرسل إلى عامله على كذا".

وقد أعطى الإسلام للأفراد الحق في العمل، أو الامتناع عنه وفي اختيار هذا العمل أو النوع أو ذلك، وهذه الحرية مقررة شرعاً لأنها فرع عن حرية الرأي والتفكير وتدخل ضمن الحريات الشخصية، ولكل إنسان أن يعمل ما يشاء وأن يكسب ـ من الطرق المشروعة ـ ما شاء وله الحق في اختيار وقت العمل وساعاته، واختيار الوقت، إذا كان يعمل لنفسه، فإن عمل إلى غيره فالعبرة في العقود ـ عامة ـ وعقد العمل خاصة بالتراضي وما يتم الاتفاق عليه، في تقييد الزمان والمكان، وتحديد ساعات العمل وأجره، ولا يقيد العمل إلا القيود العامة في الحلال والحرام وضمن الأحكام الشرعية وألا يؤدي العمل إلى الإضرار والضرر بالغير، لقوله صلى الله عليه وسلم: «**لا ضرر ولا ضرار**»[1].

والغالب أن يتم اختيار العمل من صاحبه حسب الإمكانيات الخاصة والمواهب الممنوحة له، والمهارة التي يتقنها، وما فطره الله تعالى له من ترك حرية الاختيار له حسب هذه الفطرة، وبذلك ورد في الحديث: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[2].

كما يتبع حرية العمل حق التنقل والانتقال والسفر في أطراف الأرض لاختيار العمل المناسب والأجر المناسب، وأن الانتقال والسفر والضرب في الأرض يعتبر عذراً للإنسان في الرُّخص الشرعية، وقدّم القرآن الكريم عُذر العمل على عذر المجاهد، فقال تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل، آية : ٢٠).

ـ كما يتفرع على حرية العمل حق العامل في الانضمام إلى تنظيم عمالي يضم أفراد حرفته أو مهنته، لتنسيق الأعمال والمطالبة بالحقوق، وتنظيم الأجور والأوقات، بما لا يضر بالمصلحة العامة[1].

---

[1] حقوق الإنسان في الإسلام، محمد الزحيلي، ص: ٢٨٤.

[2] رواه الطبراني الفتح الكبير (١/ ٢٠٢).

العمل والعمَّال في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الحديثة واجبات نحو العمل والعمال كثيرة لتنشيط عجلة الإنتاج منها:

ـ إعادة هيكلة نظام الأجور بما يلائم المرحلة التي تمر بها الشعوب.

ـ إعلان الحكومة سنوياً، عن فرص العمل لديها، نسبة إلى عدد العاطلين في الدولة وكذلك متوسط دخل المواطن نسبة إلى موازنة الدولة على أن يكون ذلك الإعلان بأسلوب علمي إحصائي رقمي مدقق.

ـ إعداد حزمة من التشريعات تنظم العلاقة بين العامل وصاحب العمل وتنظم العمل بالقطاعين العام والخاص، وتكفل للعمال الحق في إنشاء النقابات والروابط.

ـ تحديث قوانين التقاعد والمعاشات بما يكفل إزالة كافة الآثار السلبية لأحكامها على القوى العاملة بالدولة.

- تبني الدولة نهج صرف إعانة بطالة لكل مواطن فيها تعجز عن تشغيله، وذلك من إنشاء صندوق حكومي خاص بمكافحة البطالة.

ـ التصدي للممارسات المخالفة للقانون من قبل أصحاب العمال حيال المشتغلين لديهم من العمال وبخاصة استعمال العنف والاستغلال والعمل القسري، محاربة كافة أشكال التمييز في شتى مواقع العمل.

ـ تطوير مراكز إسكان متخصصة ومنخفضة التكاليف تستوفي أو تتفوق على المعايير الدولية المتعلقة بإسكان العمال من حيث الحد الأدنى للمساحة الخاصة والمشتركة ومرافق الترفيه والنظافة والسلامة والصحة.

ـ تحسين مخرجات التعليم الكفيلة برفع إنتاجية العامل في الدولة.

ـ تدريب العاملين على ريادة الأعمال وذلك من خلال العمل القيادي.

---

[١] الحريات من القرآن الكريم للصلابي، ص: ١٦٤.

ـ إتاحة فرصة التدريب العالي الجودة ووفقاً لأحدث المعايير العالمية لكافة التخصصات الإنتاجية.

ـ التنسيق بين الجهات المسؤولة عن التعليم والتدريب والعمل والإحصاء.

ـ دعم التحول إلى الاقتصاد المعرفي وذلك سعياً إلى زيادة كفاءة سوق العمل.

ـ استقطاب المهرة وذوي الكفاءات والتخصصات النادرة من الوافدين والاحتفاظ بهم ضمن سوق العمل للدولة.

ـ وضع نظام معلوماتي متكامل يكفل إنشاء قاعدة بيانات تشمل كافة البيانات والمعلومات والأرقام ذات الصلة بسوق العمل، وذلك في صورة سهلة ومبسطة وتيسير لصانعي السياسات اتخاذ القرارات المناسبة لمصلحة سوق العمل في الدولة.

ـ تحسين خدمات التوظيف في السوق، وزيادة الخدمات الإرشادية ذات الصلة بها.

وفي حالة عدم قدرة المواطنين على العمل تعمل الدولة على تأمين حياة كريمة وتوفير معاشات لائقة بالكرامة الإنسانية.

ـ وعلى ضمان تغطية نظام التأمينات بصورة مباشرة كل من موظفي الجهاز الإداري للدولة ورجال القضاء والسلك الدبلوماسي والقنصلي وموظفين القطاعين العام والخاص وموظفي الجهات المنظمة بقوانين خاصة.

ـ وسن التشريعات اللازمة التي تضمن لجميع المواطنين حقوقاً متساوية، منها ما يتعلق بحمايتهم من العوز والحاجة عند العجز أو الوفاء أو إصابة العمل أو عدم توفر العائل من خلال نظام التأمينات وأخرى توفر الحماية لباقي المواطنين عن طريق قانون الضمان الاجتماعي.

٣ ـ الرياضة:

امتازت شريعة الإسلام بمراعاة جميع جوانب الحياة الإنسانية، فعملت على تغذيتها بما هو نافع ومفيد.

وقد ارتبطت الرياضة في الإسلام بعدة أهداف سامية مثل إعداد الفرد للقتال في سبيل الله تعالى وتقوية جسده ليقوم بعمل الصالحات بهمة ونشاط، كما قال صلى الله عليه وسلم: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير»**[١]. والقوة تشمل قوة الجسد لمن قدر عليها مع قوة الإيمان، ومثل ملاعبة الأهل: فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه سابق زوجه عائشة رضي الله عنها على الأرجل أكثر من مرة، فعن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر: قالت: فسابقته على رجلي فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: **«هذه بتلك السبقة»**[٢] وهذا الأمر يسهم في زيادة المحبة والألفة بين الزوجين مما ينعكس أثره الطيب على استقرار الأسرة ومن الأهداف الأخرى: زيادة المحبة بين الأخوة والأصحاب من خلال اللعب وغير ذلك من الأهداف[٣].

وقد مارس رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه بعض الألعاب الرياضية، ولاسيما ما يتعلق منها بركوب الخيل والإبل، وأنه صلى الله عليه وسلم حثَّ على ممارسة ركوب الخيل والرماية، وأقرّ صحابته الكرام على عدد من الألعاب الرياضية الأُخر، كالسباحة والعدو.

والأصل في الرياضة الإباحة وذهب مجموعة من العلماء السابقين والمعاصرين إلى ذلك منهم العز بن عبد السلام، ولكن بشرط الاقتصاد فيه، وإلا كان مخالفاً لشرع الله تعالى مع الإسراف وترك التوسط والاعتدال[٤].

وكذلك الإمام ابن قدامة من الحنابلة إذ يقول: وسائر اللعب إذا لم يتضمن ضرراً ولا شغلاً عن فرض فالأصل إباحته[٥]. ويوافقه ابن تيمية كذلك، بشرط أن يكون في اللعب مصلحة ويخلو من الضرر، فيقول: ويجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مضرة[٦].

---

[١] رواه مسلم (٨/ ٥٦).
[٢] سنن أبي داوود (٣/ ٢٩) صحيح الإسناد.
[٣] الألعاب الرياضية، د. محمد عقلة، ص: ٣٧.
[٤] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٩).
[٥] المغني لابن قدامة (١٢/ ٣٩).
[٦] الفتاوى الكبرى (٥/ ٤١٥).

ومن العلماء المحدثين: الدكتور يوسف القرضاوي، على ألا يقترن اللعب بمحرم[1]، وكذلك الشيخ محمد العثيمين بشرط ألا تلهي عن واجب أو تقترن بمحرم، وألا تشغل أغلب وقت المسلم وإلا كانت محرمة أو مكروهة[2]، وقد استدل القائلون بالإباحة بعدة أدلة هي:

ـ أن الأصل في الأشياء الإباحة، وهذا يعرف من قول المبيحين، أن اللعب إن لم يتضمن محرماً أو يفضي إليه فالأصل إباحته.

ـ ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه مارس ألعاباً كثيرة، وأقرّ الصحابة الكرام بها وبغيرها كالصراع والعدو والسباحة وغيرها، فهو دليل على إباحة ما ليس فيه حرمة من اللعب واللهو، فإن مورست بقصد التقوى أصبحت عبادة يؤجر صاحبها وإلا فمباحة.

ـ ما جاء في الحديث: أن حنظلة رضي الله عنه دخل مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«وما ذاك؟»** قلت ـ أي حنظلة: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا "لاعبنا" الأزواج والأولاد والضيعان ونسينا كثيراً كثيراً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«والذي نفسي بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** وكرر هذه الكلمة ثلاث مرات[3].

فقد راعى الشارع الحكيم حاجة النفس إلى اللهو والترفيه واللعب المنضبط بحدود الشارع وأقرّها[4].

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على حنظلة لعبه مع أهله وولده لعلمه بما تحتاج إليه الأنفس من ذلك ولكنه صلى الله عليه وسلم وجهه إلى الموازنة بين حاجاته وما ينبغي عليه القيام به من واجبات شرعية، فقال له: **«ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»**.

---

[1] الألعاب الرياضية، ص: ٦١، الحلال والحرام، ص: ٢٧٨ ـ ٢٨١.
[2] الألعاب الرياضية، ص: ٦٢.
[3] المصدر نفسه، ص: ٦٧.
[4] الحلال والحرام للقرضاوي، ص: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

ـ ما ورد عن علي بن أبي طالب أنه قال: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإنها تملّ كما تملُّ الأبدان[1]، فدل على أن ترويح النفس حاجة نفسية مباحة والترويح بالمباح أباحه الشرع.

على أنه ينبغي التنبيه على أن الإباحة مضبوطة بحدود الاقتصاد وعدم الإسراف في اللهو واللعب وإلا كانت مكروهة كما أن دخول الضرر فيها أو المفاسد من تضييع واجبات أو شغل عمّا هو أولى من اللعب من أمور الدين أو الدنيا قد يخرج اللعب من دائرة الإباحة إلى دائرة الكراهة أو الحرمة[2].

منافع الرياضة:

أ ـ للرياضة منافع عديدة، تجعل من الاهتمام بها في الدولة الحديثة من الأهمية بمكان ومن ذلك:

ـ **إعداد الجسد بدنياً للقتال والمهام العسكرية** والأمنية، إن الهدف الأسمى من ممارسة الألعاب الرياضية للمسلمين كان من أجل إعداد الفرد المجاهد القوي بدنياً ـ إضافة لقوة الإيمان ـ وممارسة الرياضة من أجل هذا الهدف تعدُ طاعة يتقرب بها العبد إلى ربه عز وجل، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال، آية : ٦٠).

فالمسلم مطالب بأن يُعدّ جسده في سبيل الله تعالى وللقيام بأعباء الحياة على أكمل وجه وإذا كان إعداد القوة يشمل العديد من الأمور، فإن تحصيل القوة الجسدية بممارسة بعض الألعاب الرياضية يدخل في هذا الجانب وقد أكد العديد من العلماء على هذه الناحية[3].

ـ **المحافظة على لياقة الجسم ومنع تكون الدهون** الزائدة عن حاجة الجسم، وقد أشار علماء المسلمين إلى ذلك يقول ابن القيم:

والحركة أقوى الأسباب في تولّدها ـ أي الطعام الزائد ـ فإنها تسخن الأعضاء وتسيل فضلاتها، فلا تجتمع على طول الزمان، وتعوّد البدن الخفّة والنشاط[4].

---

[1] الألعاب الرياضية، ص: ٦٨.
[2] المصدر نفسه، ص: ٦٨.
[3] المصدر نفسه، ص: ٤٨.
[4] الألعاب الرياضية، ص: ٤٨.

ومن فوائد ذلك أيضاً البعد عن الكسل والخمول، لذلك لابد من الاستمرار في ممارسة بعض أنواع الألعاب الرياضية ـ كالجري والمشي ـ للمحافظة على لياقة الجسد باستمرار[١]، وتؤكد الدراسات الحديثة أن ممارسة الرياضة تحفظ الصحة واللياقة وتبعد عن البطء والكسل والبدانة[٢].

ـ الإسهام في الوقاية من أمراض البدن:

وأشار إلى هذا ابن القيم إذ يقول عن الرياضة: وتؤمن جميع الأمراض المادية وأكثر الأمراض المزاجية إذا استعمل القدر المعتدل منها في وقته وكان باقي التدبير صواباً[٣].

وتشير الكثير من الدراسات الحديثة والمؤلفات والتقارير الحديثة إلى صحة هذه الفوائد من خلال الرياضة المنظمة والمدروسة في الوقاية من الأمراض كالسكري والذبحة الصدرية والجلطات الدماغية أو أي نوع من أنواع الاضطرابات الخاصة بالدورة الدموية لدى مرض السكري، وتعمل على تقليل مستويات السكر في الدم[٤].

كذلك تسهم الألعاب الرياضية ـ وبالذات المشي ـ في تنظيم ضربات القلب وتحسين التنفس عبر الرئتين والحد من التوتر النفسي وضغط التنفس والإرهاق كما تعمل على منع الأعراض السلبية المتعلقة بتقدم السن كتصلب الشرايين وتكلس المفاصل، وارتفاع ضغط الدم وآلام أسفل الظهر والعنق.

وتسهم الألعاب الرياضية المؤداة بدقة في تعويض العيب والنقص البدني لدى الأفراد المعاقبين بدنياً، فتعوّض ذلك في النقص أو تصلح ما لديهم من عيوب، وتؤثر بصورة إيجابية على الدماغ ولاسيما "الذاكرة" من خلال السماح بمرور أفضل للدم، عن طريق تحسين قدرة ضخ القلب للدم ونقل الأكسجين وبالذات لدى كبار السن، وأثبتت الدراسات كذلك أن الجري والقفز وبعض التمرينات، تسهم في الوقاية بصورة كبيرة من مرض هشاشة العظام وترققها.

كما أن ممارسة الرياضة كالمشي تساعد إلى حد كبير في الوقاية من سرطان القولون.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٨.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٨.
[٣] الطب النبوي لابن القيم، ص: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
[٤] الألعاب الرياضية، ص: ٤٩.

وتؤدي رياضة السباحة إلى تحسين حياة مرضى "الربو" وتقليل عدد العلاجات ودخول المشافي، وتؤدي بعض الأنشطة الرياضية المنتظمة إلى تخفيف التوتر والقلق المسبب للصداع، وبالتالي تقليل نوبات الصداع النصفي "الشقيقة" إلى النصف تقريباً[1].

ب ـ أهمية الألعاب الرياضية من الناحية النفسية:

إن ممارسة الألعاب الرياضية يعود على النفس بفوائد نفسية عديدة منها:

***ـ دفع الملل عن النفس:**

وأحوج الناس إلى تقسيم الوقت وتنظيمه هم المشغولون من الناس من أصحاب المسؤوليات لتزاحم الأعباء عليهم، حتى إنهم يشعرون أن الواجبات أكثر من الأوقات، ومن تنظيم الوقت أن يكون جزءًا للراحة والترويح، فإن النفس تسأم بطول الجدّ، والقلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان[2]، وقد ظن حنظلة رضي الله عنه أنه قد نافق لأنه قد يكون عند الرسول صلى الله عليه وسلم في سكينة وتقوى من الله عندما سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم أمور الآخرة، ثم يكون في لعب وراحة عندما يكون مع زوجه وأهله، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: نافق حنظلة، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم:.. **«ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»**[3]، فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن النفس تحتاج إلى أوقات من الجدّ تعبُد فيها الله تعالى وتطلب الرزق وتحتاج إلى أوقات من الراحة والترويح عن النفس بالمباح كملاعبة الأهل فدعا حنظلة إلى إعطاء نفسه حقها من كل ذلك، فعلم حنظلة رضي الله عنه أنه لم ينافق، لأن فعله مباح متوافق مع ما تحتاجه الفطرة والنفس من أمور مباحة، لذلك كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: روحوا القلوب، فإنها تمل كما تملُّ الأبدان[4]، فإن القلب إذا كان كل شغله جداً، فإنه لن يطبق ذلك، إذ النفس مجبولة على طلب الراحة واللعب ـ ومن ذلك الألعاب الرياضية ـ فذلك

---

[1] الألعاب الرياضية، ص: ٥٠.
[2] الحلال والحرام للقرضاوي، ص: ٢٨١.
[3] رواه مسلم (٨/ ٩٤).
[4] الألعاب الرياضية، ص: ٥١.

أمر طبيعي وفطري لا غنى عنه، فلا حاجز يمنعها من طلبه إذا ما التزمت حدود الشرع في ذلك[١].

وتشير الدراسات الحديثة المختصة إلى هذه الفائدة سواء عند الأطفال أو الشباب أو المسنين، لما تقتضيه من ملء الوقت والفراغ بما هو نافع ومفيد ممّا يحسن من المزاج ويذهب الكآبة النفسية عن ممارسي الرياضة في كثير من الأحيان[٢].

***- التخفيف من حدة الشهوة الجنسية:**

إذا كان الإنسان عاجزاً لظروف معينة عن تلبية الرغبة بالزواج، فإن عليه أن يمنعها من السعي وراء تلبيتها بما هو محرم، فيستعين على ذلك بالإرادة والصبر والتقوى والصوم كذلك للمسلم - ولا بأس بممارسة الألعاب الرياضية والتي تسهم في الحدّ من رغبته بممارسة ما يسمى "العادة السرية" أو "الاستمناء" وخاصة لدى الشباب، مما يسهم في تحقيق السكون والطمأنينة للنفس في بعض الأحيان، غير أن الألعاب الرياضية قد تسهم في زيادة الشهوة الجنسية وإثارة دوافع الزنا والفاحشة إذا ما مورست في بيئة فاسدة يختلط فيها الرجال والنساء، ويفشو العري بينهم مما هو واقع بكثرة بين الرياضيين في زماننا[٣].

***- تسهم في منع الأمراض النفسية المزاجية:**

وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله في الرياضة:... وتؤمن "من" جميع الأمراض المادية وأكثر الأمراض المزاجية إذا استعمل القدر المعتدل منها في وقته، وكان باقي التدبير صواباً.

يقول الأستاذ محمد قطب في حديثه عن الفروسية:.. وفضلاً عن ذلك فهي وسيلة لإثبات الذات بطريقة نظيفة بدلاً من أن يلجأ الفرد إلى طرق شاذة منحرفة كالإجرام لينال اهتمام الناس أو إعجابهم، ولاشك أن الرياضة البدنية بكل أنواعها داخلة في هذا النطاق[٤]، ومن الأمراض

---

١ في التدريب التربوي، مصطفى الطحان، ص: ٦٠ - ١٠٨ - ١٠٩.
٢ الألعاب الرياضية، ص: ٥٢ - ٥٣.
٣ الألعاب الرياضية، ص: ١٥.
٤ الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب، ص: ١٢١.

النفسية التي تسهم الألعاب الرياضية في الوقاية منها: التواترات، والأرق والسهر والنكد والشعور بالكآبة، كما تؤكد ذلك الدراسات الحديثة[١].

***ـ تهذيب النفس ودفعها إلى قبول الحق:**

فإذا ما روّض الإنسان جسده بحركات رياضية عن طريق ممارسة الألعاب الرياضية فإن ذلك قد يدفعه إلى ترويض نفسه وتهذيبها بإلزامها بفضائل الأخلاق وحسن التصرف والمعاملة مع الآخرين، وهذا ما يهدف إليه كثير من ممارسي الألعاب الرياضية من خلال ممارستهم تلك الألعاب وهو ما تؤكده الدراسات الحديثة[٢].

وهذا الأمر مشروع في الإسلام، ولعل من العجائب ما كان من صراع بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ركانة بن عبد يزيد القرشي، حيث إن ركانة لقي الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وكان رُكانة مصارعاً لا يُصرع ـ فطلب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُصارعه على شاة فصرعه الرسول صلى الله عليه وسلم فعاوده مرة أخرى فصرعه الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الثالثة كذلك، فكان ذلك سبباً في إسلام رُكانة رضي الله عنه، إذ علم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما آتاه الله من قوّة فكان الصراع بينهما صراعاً للشرك في نفس ركانة[٣]، ومن ذلك: ما لو أراد إنسان دعوة أخ له إلى ترك محرم عن طريق ممارسة لعبة رياضية وفيه يقول د. عبد الكريم زيدان في حديثه عن الاستعانة ببعض المباح لتغيير المنكر.. كما لو كان له ولد أو صديق يلعب القمار فيعوضّه بتخصيص جائزة له على سبق غيره في مباح كركض أو فروسية أو رمي[٤].

ج ـ أهمية الألعاب الرياضية من الناحية الاجتماعية:

من الفوائد للحياة الاجتماعية:

*ـ الإسهام في حفظ استقرار الأسرة والنظام التربوي في المجتمع فإذا نشأ الفرد نشأة سليمة، فإن الأسرة لابد أن يصلح حالها وتكون رافداً للمجتمع بالجيل العامل النافع، ومن عناصر

---

[١] الألعاب الرياضية، ص: ٥٣.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٤.
[٣] الجامع الصحيح سنن الترمذي (٤/ ٢٤٧).
[٤] أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص: ٤٨٤.

التربية والتنشئة التي يحتاج إليها الفرد في حياته دخول عنصر الترويح والتربية البدنية مما يُتحصل جزء كبير منه بممارسة الألعاب الرياضية، وذلك يكون بدءاً من سنّ الطفولة بالذات فالشباب فكبار السنّ، وإذا كانت الأسرة المنطلق إلى تطبيق ذلك، فالمدرسة والجامعة والمسجد، هي المكمل لهذا الدور، وقد أشار إلى أهمية هذه الناحية ـ ولاسيما في تربية الأطفال ثم الشباب ـ عدد كبير من العلماء[١]، يقول الإمام أبو حامد الغزالي: ويعودُ في بعض النهار المشي والحركة والرياضة[٢]. أي الطفل لينشأ نشأة سليمة ويقول السيد سابق: أن يحبب إليه ـ أي الصبي ـ ممارسة الألعاب الرياضية مثل العدو والسباحة والرماية[٣]، فإذا كانت الألعاب الرياضية تؤدي إلى قوة الجسد عند من يمارسها فإن الفرد سيكون أقدر على العمل وأكثر فاعلية وإنتاجاً، كل في مجاله المحدد له، عكس ما يكون عليه حال الضعيف الكسول الخمول[٤].

*ـ المساهمة في حفظ المجتمع من المشاكل الأخلاقية:

وذلك عن طريق إيجاد وسائل مشروعة ومباحة لملء الفراغ لدى الناس ولاسيما الشباب ومن تلك الوسائل ممارسة الألعاب الرياضية، والتي تعمل على الحد من الشهوة الجامحة نحو الاتصال الجنسي بين الرجال والنساء والعزّاب عند كثير منهم وكذلك منع الشباب وغيرهم من قضاء وقت الفراغ في أمور محرمة كشرب المخدرات أو الاشتغال بأعراض الناس أو الاعتداء عليهم[٥]، أو الذهاب إلى دور "السينما" الفاسدة المفسدة أو التسكع في الشوارع ونحو ذلك.

ولاشك أن الألعاب الرياضية ليست العنصر الوحيد أو الرئيس في تحقيق ذلك، فالأساس هو التقوى واتباع الشرع، والرياضة من العوامل المساعدة.

د ـ أهمية الألعاب الرياضية من الناحية السياسية:

للألعاب الرياضية أهمية في بناء الأفراد والمقاتلين الأشداء في جيوش دول العالم وهذا لاشك يسهم بشكل كبير وفعال في تحقيق الاستقرار السياسي للدول والشعوب جميعها، فحيثما وجدت

---

[١] تربية الطفل في الإسلام، عبد الله عبد الرحيم، ص: ٤٦.
[٢] إحياء علوم الدين (٣/ ٧٣).
[٣] إسلامنا السيد سابق، ص: ٢٣٨.
[٤] الألعاب الرياضية، ص: ٥٦.
[٥] الألعاب الرياضية، ص: ٥٦.

القوة الجسدية لدى أفراد المجتمع وخاصة الجيوش فإن ذلك يكون سبباً في وجود القوة العسكرية، فالسياسة والعكس صحيح.

يقول الأستاذ مصطفى الطحان في هذا الشأن: والأمم ـ كل الأمم ـ إذا انهار إنسانها انهدم بنيانها، وإذا أرادت النهوض تركز على الإنسان فأحيت فيه الجوانب الروحية والإنسانية والعقلية والجسدية والأخلاقية، فتراها تشمخ معه وتعود للعطاء[1]، وقد فطن الحكام والزعماء إلى ذلك، فسعوا إلى تطبيقه عملياً في أفراد مجتمعاتهم وفي جيوش دولهم في مختلف الأزمنة، واستثمار الحاكم المدارس والجامعات ونحوها في بناء جيل قوي.. يسهم في تحقيق الاستقرار السياسي في بلده وبناء الجيل جسدياً بالرياضة من أنجح الوسائل وأحسنها في تحقيق تلك القوة.

ولعل الألعاب الرياضية كذلك، تعد مجالاً لتحقيق بعض مجالات التعاون بين الدول من خلال إقامة اللقاءات الرياضية المشتركة بين أفرادها وأنديتها ومنتخباتها وقد يدل انعدام إقامتها على حالة عداء بين الدول، كما كان الحال في امتناع بعض الدول عن المشاركة في بطولات عالمية "كالأولمبياد" بسبب الخلافات السياسية[2].

هـ ـ أهمية الألعاب الرياضية من الناحية الاقتصادية:

فالفرد القوي جسدياً يكون في كثير من الأحيان فاعلاً ومنتجاً اقتصادياً أكثر من الفرد الضعيف الكسول الخامل، وهذا يعود على الإنتاج الاقتصادي بالفائدة أو الزيادة إذا ما تولى العمل والإنتاج أهل القوة والكفاءة الجسدية إلى جانب الأخذ بقوة العلم والروح[3].

والدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية تهتم بالرياضة وتقوم بدعمها وتطويرها كالآتي:

ـ بناء المنظومة الرياضية تنظيماً وتشريعاً بشكل احترافي علمي مدروس.

ـ وضع الإستراتيجيات المستقبلية لتطوير الرياضة.

ـ الرياضة والصحة البدنية ركيزتان للنهضة والتنمية والحفاظ على أمن الوطن.

ـ الاهتمام بالنشاط الرياضي في كافة مراحل التعليم.

ـ نشر الوعي الرياضي، ومكافحة التعصب، والاهتمام بالنشء.

---

[1] في التدريب التربوي، ص: ٤٩ ـ ٧٤.

[2] الألعاب الرياضية، ص: ٥٧.

[3] الألعاب الرياضية، ص: ٥٨.

ـ تحفيز العاملين في مجال تطوير الرياضة للجميع والمواطنين لدفعهم نحو ممارسة الرياضة للجميع.

ـ وضع خطط وبرامج تدعيم العلاقات وأوجه التعاون بين المنظمات الشبابية والرياضية في الداخل والهيئات الخارجية بالدول الأجنبية والمهتمة بأنشطة الشباب في مجالات العمل الرياضي.

ـ تشجيع البحث العلمي المرتبط بالنشاط الرياضي والصحة واللياقة البدنية وإعداد المنتخبات من النواحي البدنية والنفسية والمهارية.

ـ التخطيط السليم والبرمجة المسبقة للمشروعات الشبابية والرياضية وفقاً للإستراتيجيات والأهداف العامة والمحددة.

ـ إصلاح الإدارة الرياضية وضمان حسن تنظيم المرافق الرياضية وذلك خلال متابعة كافة الأنشطة الرياضية.

ـ تقديم الحوافز المعنوية والمادية للفرق الرياضية الوطنية.

ـ إشراك القطاع الخاص في إدارة المشاريع الرياضية والشبابية ذات الربحية الاقتصادية.

ـ الاهتمام بالمناطق النائية والمحرومة من خلال بناء الملاعب والساحات الرياضية والمراكز الصحية المتخصصة في التأهيل والتدريب وعلاج إصابات الملاعب.

ـ وضع هيكل تنظيمي يضم إدارات مختلفة لتنظيم برامج الرياضة للجميع على مستوى كافة الأعمار ولكلا الجنسين وللأصحاء والمعاقين.

ـ توفير الإمكانات البشرية المدربة والمادية متمثلة في الأجهزة والأدوات والملاعب بما يتيح الفرصة لممارسة الرياضة السليمة في بيئة آمنة.

ـ إتاحة الفرصة لمشاركة أكبر عدد من أفراد المجتمع في أنشطة الرياضة للجميع باستخدام أنشطة متنوعة تتناسب مع إمكانيات الأفراد تبعاً لمقدراتهم البدنية والصحية.

ـ الاهتمام بالإعلام الرياضي على مختلف مستوياته ووضع ضوابط تحكم عملية النشر وطرح الموضوعات والنقد، وتوجيهه لما يخدم المصلحة العامة وتحقيق أهداف الأنشطة الشبابية.

ـ إنشاء ساحات وملاعب بسيطة في الأحياء السكنية والاستفادة من المنشآت الرياضية المتوفرة في المؤسسات التعليمية كالمدارس بعد تهيئتها كمراكز لاستقبال الشباب وتوجيههم لممارسة الأنشطة الرياضية الهادفة.

ـ منع كل ما من شأنه أن يؤدي إلى محرم أو يعين عليه.

الثقافة والعلوم في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الحديثة أن تهتم بالعلوم والفنون والثقافة وترى أنه:

ـ لا سقف لحرية الرأي والفكر والإبداع سوى مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية وتقاليد وسمات وخصوصية وثوابت المجتمع الإسلامي والحفاظ على اللغة العربية والطابع الإسلامي للدولة هدف إستراتيجي وتهتم بالأحوال المعيشية والصحية والاجتماعية والمادية لقامات الصحافة والإعلام والفكر والأدب والشعر وكافة فروع العلم والإبداع، وطبيعة الدولة الحديثة الانفتاح على ثقافة وفنون وأدب الدول الأخرى وذلك من خلال رعاية مشروع وطني للترجمة ليكون بمثابة جسر للتواصل مع كافة الثقافات والحضارات هي شرق العالم وغربه وجنوبه وشماله وتسن التشريعات الصارمة التي تحظر الترويج لقدسية الرأي الواحد والشخص الواحد وتحارب الاضطهاد والتمييز والعنصرية ومصادرة الرأي وعدم قبول الآخر.

٤ ـ المرأة والأسرة:

من أهم ما جاء به القرآن الكريم هنا: إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية وظلامها، ومن تحكم الرجل في مصيرها بغير حق، فكرم القرآن المرأة وأعطاها حقوقها بوصفها إنساناً وكرمها بوصفها أنثى، وكرمها بوصفها بنتاً، وكرمها بوصفها زوجة وكرمها أماً، وكرمها بوصفها عضواً في المجتمع[١]، لقد جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانيتها ولكنه يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل، فكان من فضل الإسلام أنه كرم المرأة، وأكد إنسانيتها، وأهليتها

---

[١] كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، ص: ٨٩.

للتكليف، والمسؤولية والجزاء ودخول الجنة واعتبرها إنساناً كريماً له كل ما للرجل من حقوق إنسانية، لأنهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد وهو آدم، وأم واحدة هي حواء، فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكليف والمسؤولية، متساويان في الجزاء والمصير[1]، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء، آية : ١).

وإذا كان الناس ـ كل الناس ـ رجالاً ونساء، خلقهم ربهم من نفس واحدة وجعل من هذه النفس زوجاً تكملها، وتكتمل بها كما قال في آية أخرى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف، آية : ٢).

وبث في هذه الأسرة الواحدة رجالاً كثيراً ونساء، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد أب واحد وأم واحدة، فالأخوة تجمعهم، ولهذا أمرت الآية الناس بتقوى الله، ورعاية الرحم الواشجة بينهم : ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ (النساء، آية : ١).

والرجل ـ بهذا النص ـ أخ المرأة، والمرأة شقيقة الرجل، وفي هذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إنما النساء شقائق الرجال**»[2].

أ ـ **في مساواة المرأة للرجل في التكليف** والتدين والعبادة، يقول القرآن الكريم : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب، آية : ٣٥).

[1] ملامح المجتمع المسلم، د. يوسف القرضاوي، ص: ٣٢١.
[2] صحيح الجامع الصغير، رقم: ٢٣٣٣، رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

ب ـ في التكاليف الدينية الاجتماعية الأساسية: يساوي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، آية : ٧١).

ج ـ وفي قصة آدم توجه التكليف الإلهي: إليه وإلى زوجه سواء، قال تعالى : ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ (البقرة، آية : ٣٥). والجديد في هذه القصة كما ذكرها القرآن ـ أنها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء ـ كما فعلت التوراة المحرفة : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة، آية : ٣٦).

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معاً، كما كان الندم والتوبة منهما جميعاً : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، آية : ٨٣).

بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه، آية : ١١٥).

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ (طه، آية : ١٢٠).

وقال تعالى:" ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه، آية : ١٢١).

كما نسب إليه التوبة وحده أيضاً " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى" (طه، آية : ١٢٢). مما يفيد أنه الأصل في المعصية وامرأته تابع له، ومهما يكن الأمر فإن خطيئة حواء لا يحمل تبعتها

إلا هي، وبناتها براء من إثمها ولا تزر وازرة وزر أخرى : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، آية : ١٣٤).

د ـ **وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء،** دخول الجنة يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران، آية : ١٩٥). فنص القرآن في صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، سواء كان العامل ذكراً أم أنثى، فالجميع بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل، آية : ٩٧).

هـ ـ وفي الحقوق المالية للمرأة: أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم ـ عرباً وعجماً ـ من حرمات النساء من التملك والميراث أو التضييق عليهن في التصرف فيما يملك، واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق التملك بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن وغير ذلك من العقود والأعمال ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها، بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة[١].

و ـ المرأة باعتبارها أماً: لا يعرف التاريخ ديناً ولا نظاماً كرّم المرأة باعتبارها أماً، وأعلى من مكانتها، مثل الإسلام، لقد أكد الوصية بها وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته وجعل برّها من أصول الفضائل، كما جعل حقها أوكد من حق الأب لما تحتمله من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية وهذا ما يقرره القرآن ويكرره في أكثر من سورة ليثبته في

---

[١] ملامح المجتمع المسلم للقرضاوي، ص: ٣٢٤.

إذهان الأبناء ونفوسهم وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان، آية : ١٤).

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف، آية : ١٥).

ومن توجيهات القرآن الكريم: أنه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة وقدوة حسنة لأمهات صالحات كان لهن أثر ومكان في تاريخ الإيمان.

ـ **فأم موسى** تستجيب إلى وحي الله وإلهامه، وتلقي ولدها فلذة كبدها في اليمّ مطمئنة إلى وعد ربها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص، آية : ٧).

ـ **وأم مريم** التي نذرت ما في بطنها محرراً لله، خالصاً من كل شرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرها، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران، آية : ٣٥).

فلما كان المولود أنثى على غير ما كانت تتوقع لم يمنعها ذلك من الوفاء بنذرها، سائلة الله أن يحفظها من كل سوء، قال تعالى: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران، آية : ٣٦).

ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى، جعلها القرآن آية في الطهر والقنوت لله والتصديق بكلماته ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم، آية : ١٢)[١].

---

[١] ملامح المجتمع المسلم، ص: ٣٣١.

ز ـ المرأة باعتبارها بنتاً: كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات ويضيقون به، حتى قال أحد الآباء ـ وقد بُشر بأن زوجه ولدت أنثى ـ: والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة. يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباها وأهلها إلا بالصراخ والبكاء لا بالقتال والسلاح ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يئد ابنته ـ يدفنها حية ـ خشية من فقر قد يقع، أو من عار تجلبه حين تكبر على قومها، وفي ذلك يقول القرآن منكراً عليهم ومفزعاً لهم : ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير، آية : ٨ ـ ٩).

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل، آية : ٥٨، ٥٩).

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطي الأب الحق في بيع ابنته إذا شاء وبعضها الآخر ـ كشريعة حمورابي ـ تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها.

جاء الإسلام فاعتبر البنت كالابن ـ هبة من الله ونعمة ـ يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى، آية : ٤٩ ـ ٥٠).

وبيَّن القرآن الكريم في قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثرًا وأخلد ذكراً من كثير من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنى أن تكون ذكراً يخدم الهيكل، ويكون من الصالحين[١].

---

[١] ملامح المجتمع المسلم، ص: ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران، آية : ٣٥ ـ ٣٧).

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة جزاء كل أب يحسن صحبة بناته ويصبر على تربيتهن وحسن تأديبهن ورعاية حق الله فيهن حتى يبلغن أو يموت عنهن، وجعل منزلته بجوار رسول الله في دار النعيم المقيم، قال صلى الله عليه وسلم: «**من كان له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن، أدخله الجنة برحمته إياهن**»، فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: «**واثنتان**»، قال رجل: يا رسول الله وواحدة، قال: «**وواحدة**»[١]، لم تعد ولادة البنت عبثاً يخاف منه وطالع نحس يتطير به بل نعمة تشكر ورحمة ترجى وتطلب لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته، وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأد إلى الأبد وأصبح للبنت في قلب أبيها مكان عميق[٢].

ح ـ المرأة باعتبارها زوجة: كانت بعض الديانات والمذاهب تعتبر المرأة رجساً من عمل الشيطان يجب الفرار منه واللجوء إلى حياة التبتل والرهبنة، وبعضها الآخر كان يعتبر الزوجة مجرد آلة متاع للرجل، أو طاهٍ لطعامه أو خادم لمنزله، فجاء الإسلام يعلن بطلان الرهبانية وينهي عن التبتل ويحث على الزواج ويعتبر الزوجة آية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم، آية : ٢١).

---

[١] رواه الحاكم، اسناده صحيح، ووافقه الذهبي (٤/ ١٧٦).
[٢] ملامح المجتمع الإسلامي، ص: ٣٣٤.

وقرر الإسلام للزوجة حقوقاً على زوجها، ولم يجعلها مجرد حبر على ورق، بل جعل عليها أكثر من حافظ ورقيب من إيمان المسلم وتقواه أولاً، ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانياً، ومن حكم الشرع وإلزامه ثالثاً.

وأول هذه الحقوق "الصَداق": الذي أوجبه الله للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته فيها وإرادته لها، قال تعالى: ﴿وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ (النساء، آية : ٤).

فأين هذا من المرأة التي نجدها في مدينات أخرى، فتدفع هي للرجل بعض مالها، مع أن فطرة الله جعلت المرأة مطلوبة لا طالبة؟

وثاني هذه الحقوق هو "النفقة" فالرجل مكلف بتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج لامرأته بالمعروف، والمعروف هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق، آية : ٧).

وثالث الحقوق هو "المعاشرة بالمعروف" قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء، آية : ١٩).

وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كل علاقة بين المرء وزوجه، من حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطييب لنفسها بالممازحة والترفيه عنها وفي مقابل هذه الحقوق أوجب عليها طاعة الزوج ـ في غير معصية طبعاً ـ والمحافظة على ماله، فلا تنفق منه إلا بإذنه وعلى بيته، فلا تدخل فيه أحداً إلا برضاه ولو كان من أهلها.

وهذه الواجبات ليست كثيرة ولا ظالمة في مقابل ما على الرجل من حقوق، فمن المقرر أن كل حق يقابله واجب، ومن عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدها ولا على الرجل وحده، بل قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة، آية : ١٢٢).

وللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ومن جميل ما يروى أن ابن عباس رضي الله عنه وقف أمام المرآة يصلح هيئته، ويعدل من زينته، فلما سئل في ذلك قال: أتزين لامرأتي كما تتزين لي امرأتي ثم تلا الآية الكريمة ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهذا من عميق فقه الصحابة للقرآن الكريم[١].

ولم يهدر الإسلام شخصية المرأة بزوجها ولم يذبها في شخصية زوجها، كما هو الشأن في التقاليد الغربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل، فلا نعرف باسمها ونسبها ولقبها العائلي، بل بأنها زوجة فلان.

أما الإسلام فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة، ولهذا عرفنا زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بأسمائهن وأنسابهن، فخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حيي وكان أبوها يهودياً محارباً للرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج، ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات، فلها أن تبيع وتشتري وتؤجر أملاكها وتستأجر وتهب من مالها وتتصدق وتوكل وتخاصم وهذا أمر لم تصل إليه المرأة الغربية إلا حديثاً، ولازالت في بعض البلاد مقيدة إلى حدّ ما بإرادة الزواج[٢].

ط ـ المحافظة على أنوثة المرأة:

الإسلام يحافظ على أنوثة المرأة، حتى تظل ينبوعاً لعواطف الحنان والرقة والجمال، ولهذا أحلّ لها بعض ما حُرّم على الرجال بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها، كالتحلي بالذهب،

---

[١] ملامح المجتمع، ص: ٣٤٠.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٤١.

ولبس الحرير الخالص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن هذين حرام على ذكور أمتي حلٌ لإناثهم**»[1].

كما أنه حرّم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة، من التشبيه بالرجال والحركة والسلوك وغيرها، فنهى أن تلبس المرأة لبسة الرجل، كما نهى الرجل أن يلبس لبسة المرأة، ولعن المتشبهات من النساء بالرجال، مثلما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة[2]، والديوث[3]**».

والإسلام يحمي هذه الأنوثة ويرعى ضعفها فيجعلها أبداً في ظل رجل مكفولة النفقات، مكيفة الحاجات، فهي في كفّ أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوتها يجب عليهم نفقتها وفق شريعة الإسلام، فلا تضطرها الحاجة إلى الخوض في لجج الحياة وصراعها ومزاحمة الرجال بالمناكب، والإسلام يحافظ على خلقها وحيائها، ويحرص على سمعتها وكرامتها ويصون عفافها من خواطر السوء، وألسنة السوء، فضلاً على أيدي السوء أن تمتد إليها.

ولهذا يوجِب الإسلام على المرأة:

ـ الغض من بصرها والمحافظة على عفتها ونظافتها، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور، آية : ٣١).

ـ الاحتشام والتستر في لباسها وزينتها دون إعنات لها ولا تضييق عليها، قال تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور، آية : ٣١).

---

[1] سنن ابن ماجه، الحديث رقم: ٣٥٩٥.
[2] المترجلة: المتشبهة بالرجال .
[3] مسند أحمد، الحديث رقم: ١٦٨٠، الديوث: عديم الغيرة.

ـ ألا تبدي زينتها الخفية، كالشعر والعنق والنحر والذراعين والساقين إلا لزوجها ومحارمها الذين يشق عليها أن تستر منهم استتارها من الأجانب ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء﴾(النور، آية : ٣١).

ـ أن تتوفر في مشيتها وكلامها، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ (النور، آية : ٣١).

ـ وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب، آية : ٣٢).

فليست ممنوعة من الكلام، وليس صوتها عورة، بل هي مأمورة أن تقول قولاً معروفاً[١].

ـ أن تتجنب كل ما يجذب انتباه إليها ويغريه بها، من تبرج الجاهلية الأولى أو الأخيرة، فهذا ليس من خلق المرأة العفيفة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أيما امرأة استعطرت ثم خرجت من بيتها ليشم الناس ريحها فهي زانية**»[٢].

ـ أن تمتنع عن الخلوة بأي رجل ليس زوجها ولا مَحْرماً لها صوناً لنفسها ونفسه من هواجس الإثم، ولسمعتها من ألسنة الزور، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم**»[٣].

ـ ألا تختلط بمجتمع الرجال الأجانب إلا لحاجة داعية ومصلحة معتبرة وبالقدر اللازم، كالصلاة في المسجد، وطلب العلم، والتعاون على البر والتقوى، بحيث لا تحرم المرأة من المشاركة في خدمة مجتمعها، ولا تنسى الحدود الشرعية في لقاء الرجال.

---

[١] ملامح المجتمع المسلم، ص: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.
[٢] سنن الترمذي، الحديث رقم: ٢٧٨٦، حسن صحيح.
[٣] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ١٠٨٨.

إن الإسلام بهذه الأحكام يحمي أنوثة المرأة من أنياب المفترسين في ناحية ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية، ويصون عرضها من ألسنة المفترين والمرجفين ثالثة، وهو ـ مع هذا كله ـ تحافظ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق، ومن الهزات والاضطرابات، نتيجة لجموح الخيال، وانشغال القلب، وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيّجات وهو أيضاً ـ بهذه الأحكام والتشريعات ـ يحمي الرجل من عوامل الانحراف والقلق ويحمي المجتمع كله من عوامل السقوط والانحلال[١].

ومن المقاصد التي هدف إليها الإسلام تكوين الأسرة الصالحة التي هي ركيزة المجتمع الصالح[٢].

ولا ريب أن أساس تكوين الأسرة هو الزواج الذي يربط بين الرجل والمرأة رباطاً شرعياً وثيق العُرى، مكين البيان، مؤسساً على تقوى من الله ورضوان، وقد اعتبر القرآن هذا الزواج آية من آيات الله، مثل خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان من تراب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم، آية : ٢١).

فأشار إلى الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشد إليها القرآن، وهي السكون والمودة والرحمة، ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وثورانها توقاً إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظل مرضاة الله، فلا يعرف الإسلام الأسرة إلا بين رجل وامرأة منذ الأسرة البشرية الأولى من آدم وزوجته : ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة، آية : ٣٥).

لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين وغيرهم اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس، بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة، وهذا أمر ضد الفطرة، وضد الأخلاق، وضد الشرائع،

[١] الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية للصلابي، ص: ١٥٨.
[٢] كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: ٨٦.

وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤م ومؤتمر المرأة في بكين أن يفرضاه على العالم[١].

وبهذا يقاوم القرآن الكريم نزعتين منحرفتين:

أولهما: نزعة "الرهبانية" المنافية للفطرة التي تحرم الزواج وتنظر إلى الغريزة الجنسية وكأنها رجس من عمل الشيطان، وتنفر من ظل المرأة، ولو كانت أماً أو أختاً، لأنها أحبولة الشيطان.

وثانيهما: نزعة "الإباحية" التي تطلق العنان للغريزة، بلا ضابط ولا رابط، وتنادي تجربة الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة دون ارتباط بمسؤولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف، تنشأ منها أسرة مترابطة تقوم على أمومة حانية، وأبوة راعية وبنوّة بارّة، وأخوة عاطفة وتتربى في ظلها مشاعر المحبة وعواطف الإيثار والتعاون[٢].

استهدف الشارع عدة مقاصد من تكوين الأسرة منها:

ـ حفظ النسل:

وتحقيقاً لهذا المقصد قصر الإسلام الزواج المشروع على ما يكون بين ذكر وأنثى وحرّم كل صور اللقاء خارج الزواج المشروع، كما حرّم العلاقات الشاذة التي لا تؤدي إلى الإنجاب، وفي هذا تعمير للأرض وتواصل للأجيال، قال الله جل شأنه : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود، آية : ٦١)[٣].

ـ وقال تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ (النحل، آية : ٧٢).

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٨٦.

[٢] كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص: ٨٧.

[٣] ميثاق الأسرة في الإسلام، اللجنة العالمية للمرأة والطفل، ص: ١٣٢.

وكان من دعاء عباد الرحمن :﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان، آية : ٧٤).

وقال الخليل إبراهيم : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات، آية : ١٠٠ ـ ١٠١).

وقال زكريا عليه السلام : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم، آية : ٥ ـ ٦).

فجاء الجواب الإلهي ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم، آية : ٧).

ـ تحقيق السكن والمودة والرحمة:

وشُرِّعت أحكاماً وآداباً بالمعاشرة بالمعروف بين الزوجين حتى لا تنحصر العلاقة بين الزوجين في صورة جسدية بحتة، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء، آية : ١٩). والمعروف هنا ما يقره العرف السليم واعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة، آية : ١٨٧).

وإنما عُبِّر عن هذه العلاقة باللباس لما توحى به الكلمة من الزينة والستر واللصوق والدف، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران، آية : ١٩٥).

ومعنى ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾: أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة، فلا خصومة ولا تناقض، بل تكامل وتعاون وتناسق[1].

ـ حفظ النسب:

ولهذا المقصد أبطل الله تعالى نظام التبني وأمرنا بإرجاع نسب الأولاد بالتبني إلى أنسابهم الحقيقية، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب، آية : ٤ ـ ٥).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أيما رجل دعا إلى غير والديه، أو تولى غير مواليه الذين أعتقوه، فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف[2] ولا عدل**»[3].

ولأجل حفظ النسب حرم الإسلام أيضاً الزنا، وشرعت الأحكام الخاصة بالعدة، وعدم كتم ما في الأرحام، وإثبات النسب وجحده وهي أحكام لها تفصيلها في مظانها من المراجع الفقهية[4].

ـ الإحصان:

يوفر الزواج الشرعي صون العفاف، ويحقق الإحصان، ويحفظ الأعراض، ويسد ذرائع الفساد الجنسي بالقضاء على فوضى الإباحية والانحلال، وقد اختص الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولهم بواقعه، ومحاولة تهذيبها والارتقاء بها لا كبتها ولا قمعها، قال الله جل شأنه :

---

[1] ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: ١٣٥.
[2] الصرف: الفريضة، أو النافلة، وقيل التوبة.
[3] العدل: الفدية أو التوبة. حديث صحيح رواه أحمد والدارمي.
[4] ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: ١٣٧.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران، آية : ١٤).

وهي شهوات مستحبة مستلذة لكنها يجب أن توضع في مكانها لا تتعداها ولا تطغي على ما هو أكرم من الحياة وأعلى[١].

والقرآن الكريم لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة، آية : ٢٢٣).

مادام الاستمتاع في موضع الحرث وفي غير موضع الأذى وزمانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، آية : ٢٢٢).

ـ حفظ التدين والأسرة:

[١] ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: ١٣٧.

الأسرة محضن الأفراد ولا برعاية أجسادهم فقط، بل الأهم غرس القيم الدينية والخلقية في نفوسهم، وتبدأ مسؤولية الأسرة في هذا المجال قبل تكوّن الجنين بحسن اختيار كل من الزوجين إلى الآخر، وأولوية المعيار الديني والخلقي في هذا الاختيار[1].

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة، آية : ٢٢١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا خطب إليكم من ترضونه دينه [2]وخلقه زوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**».

وتستمر مسؤولية الأسرة بتعليم العقيدة والعبادة والأخلاق لأفراد الأسرة، وتدريبهم على ممارستها ومتابعة ذلك حتى بلوغ الأطفال رشدهم واستقلالهم بالمسؤولية الدينية عن تصرفاتهم[3].

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه، آية : ١٣٢).

وقال جل شأنه عن النبي اسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم، آية : ٥٥).

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٣٨.
[2] سنن الترمذي وابن ماجه، ميثاق الأسرة، ص: ١٥٤.
[3] ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: ١٣٨.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم، آية : ٦).

وهذه التعاليم القرآنية والإرشادات النبوية تأخذها الدولة الحديثة بعين الاعتبار، في تشريعاتها وقوانينها المتعلقة بحقوق المرأة والأسرة، فالنساء شقائق الرجال، ولهن كافة الحقوق وعليهن تحمل كافة الواجبات على قدم المساواة مع الرجل، وبمراعاة أحكام الشريعة الإسلامية، والتقاليد الأسرية، والأسرة هي الخلية الإنسانية في المجتمع، قوامها الدين والأخلاق وحب الوطن، وتكفل الدولة حمايتها ورعايتها واستقرارها، كما تكفل الدولة حماية ورعاية الأمومة والطفولة والنشىء.

ـ المرأة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

المرأة شريك في بناء الدولة ونموها، ومن ثمَّ يجب العمل على تمكينها وتعزيز مكانتها وإعدادها علمياً ومهنياً وتحريك وتوظيف طاقتها في بناء ونهضة المجتمع، وذلك عن طريق إعطائها الفرص المتكافئة في كل مناحي الحياة، لتأخذ دورها مع الرجل كشريك مؤهل وجدير ببناء الأسرة والمجتمع والدولة بأثرها.

ـ وضع منظومة من التشريعات تكفل محاربة كل أنواع التمييز أو التفرقة أو العنف ضد المرأة.

ـ العمل على وضع إستراتيجية وطنية للنهوض بواقع المرأة وتأهيلها وتشغيلها وتدريبها، وذلك من خلال التعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية ذات الصلة.

ـ العمل على تقوية روابط الأسرة والتركيز على القيم والمفاهيم الإنسانية.

ـ تقديم الدعم النفسي والمعنوي للنساء المعنفات والمطلقات والأرامل، والمهجرات والمعتقلات.

ـ تحقيق التواصل مع المرأة لدراسة قضاياها وتقييم أوضاعها.

ـ الأخذ بالتجارب الرائدة إقليمياً وعالمياً بما يتناسب مع المجتمع واقتراح السياسات والحلول الداعمة لنهضة المرأة.

ـ إشراك منظمات المجتمع المدني في النهوض بمسيرة للنهوض بالمرأة.

ـ تنفيذ السياسات والخطط والبرامج ذات الصلة بالارتقاء بأوضاع المرأة.

ـ تنظيم الحلقات التدريبية وعقد الورش والمؤتمرات لمعالجة قضايا المرأة والأسرة.

ـ بناء قاعدة لتجميع ورصد وتحليل المعلومات والبحوث والدراسات الخاصة بالأنشطة والبرامج المتعلقة بالمرأة والأسرة.

٥ ـ الطفولة والشباب:

الأطفال ثمرة من ثمرات الزواج ومن أهم مقاصده وأهدافه والأطفال أحد أركان الأسرة وعن طريقهم يتم بقاء النوع الإنساني، والجنس البشري، وهم أعظم نعم الحياة وزينتها، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف، آية : ٤٦).

ويولد الطفل ضعيفاً وعاجزاً عجزاً مطلقاً، فلا حول ولا قوة، وشاءت الحكمة الإلهية أن يكون الإنسان أكثر المخلوقات حاجة لغيره بعد الولادة ويحتاج إلى أطول فترة ـ بين المخلوقات ـ معتمداً على غيره، ومفتقراً للرعاية والعناية والحضانة وغيرها، لذلك أناط الشرع الحكيم هذه المسؤولية العظيمة بالأبوين أولاً ثم المجتمع والدولة ثانياً، ووضع الشرع أحكام متعددة للأطفال، وأثبت لهم حقوقاً كثيرة، وحقوق الأولاد هي واجبات الآباء والأمهات، وقد وضع الشرع لها منهجاً في تربية الأولاد من عدة عناصر[١] أهمها:

أ ـ حسن اختيار الزوجة:

[١] حقوق الإنسان في الإسلام، ص: ٢٤١، محمد الزحيلي.

يقول علماء التربية: يجب على الوالد أن يبدأ بتربية ولده قبل الولادة وهذا ما أرشد إليه الإسلام عن طريق اختيار الزوجة، لأن خطيبة اليوم التي يقصدها الشاب هي زوجة الغد، وأم المستقبل، ومربية الأطفال والأجيال والأم هي المدرسة الأولى التي تحتضن الطفل، لترضعه لبان الأدب والتربية مع لبن الثدي والغذاء، ثم ترعاه في أول مراحل العمر، لتغرس في عقله وقلبه البذور الأولى التي ستنمو عند الكبر، وتصون فطرته عما يفسدها مع ما تهب لوليدها من صفات موروثة، وطباع مفطورة ومواهب متأصلة، فكان حُسن اختيار الزوجة من أجل الأولاد أكثر أهمية من بقية العوامل التي تطلب المرأة وهو ما أرشد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «**تخيروا لنطفكم**»[١]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[٢].

ويقول الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعباً طيّب الأعراق

فالأم هي المربية للأطفال، والحاضنة للأولاد، والأمينة على الذرية والمكلفة بالإشراف عليهم، لأنها سترضع الطفل اللبن، كما سترضعه العقيدة والأخلاق والقيم، وهي ستربّي العباقرة والمصلحين الذين يتولون دفة الحكم وسفينة الإصلاح، وقيادة الجيوش، ورجال الدعوة والفكر، وبمقدار التوفيق في حسن اختيار الزوجة يكون الوالد قد أرسى حجر الأساس من الأحكام الخاصة بالحامل والمرضع لرعاية الجنين والطفل الرضيع، فأباح الشرع للحامل والمرضع مثلاً الإفطار في رمضان، وجعل الرضاعة حقاً للطفل، لما يمتاز به لبن الأم من فوائد جسمية ونفسية للطفل، وأن الرضاع واجب على الأم قضاءً وديانة وتجبر الأم عليه عند الحاجة، كما شرع الله الحضانة حقاً للأم والطفل معاً وإن أول جهد في التربية، وأول دعامة لها، هو التوجه

[١] رواه ابن ماجه والحاكم، أنظر: صحيح الجامع، رقم: ٢٩٢٨.
[٢] صحيح البخاري (٥/ ١٩٥٨).

إلى البيت، وخاصة إلى الزوجة الصالحة، والأم المربية المؤمنة الواعية، وقد كان دوماً وراء كل عظيم امرأة عظيمة أو أب عظيم أو أبوان عظيمان[١].

ب ـ رعاية الوليد:

تبدأ رعاية الوليد من جماع الأب لأم الوليد، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو أن أحدهم إذا أتى أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره الشيطان إن شاء الله**»[٢]، ومتى تمت الولادة بدأت التربية منذ اللحظة الأولى من حياة الوليد، وهذا ما أرشد إليه الدين الحنيف وتفرد به على سائر المناهج التربوية في العالم، وكلف الوالدين بإرساء الدعائم التربوية، التي سيتم عليها بناء المستقبل، وهي آداب إسلامية، وسنن نبوية، ومنهج رباني، وأهم هذه الآداب:

الأدب الأول: الأذان والإقامة في أذني الوليد ليكون أول شيء يسمعه في هذا الوجود وهو توحيد الله تعالى، الذي خلقه، وأوجده من نطفة فعلقة فمضغة في ظلمات ثلاث، ليحقق الخلافة في الأرض ويبدأ بتنفيذ العهد الذي أخذه الله تعالى من بني آدم من ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾ (الأعراف، آية : ١٧٢).

الأدب الثاني: حسن اختيار الاسم وهذا مسؤولية الوالدين لما ورد في الأحاديث الشريفة الكثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**حقُ الولدُ على الوالد أن يُحسن اسمه ويعلّمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ**»[٣].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير الأسماء القبيحة التي كانت في الجاهلية إلى أسماء حسنة، وإن اختيار الاسم الحسن علامة بارزة في التربية غير المباشرة، لأن كل شخص له من اسمه نصيب، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، بالإضافة إلى الأمور النفسية التي بينها علماء التربية عند المناداة باسم حسن أو قبيح وأثر ذلك على نفسية الطفل، وعلاقته مع زملائه وأفراد مجتمعه.

---

[١] حقوق الإنسان في الإسلام للزجيلي، ص: ٢٤٢.
[٢] أخرجه الشيخان، منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور سويد، ص: ٤٦.
[٣] رواه أبو نعيم في الحلية والديلمي في مسند الفردوس.

الأدب الثالث: تكريم الطفل بالعقيقة لإعلان السعادة والفرح والبشر بمقدم الطفل، وتكون العقيقة بذبح شاة أو أكثر عن المولود يوم أسبوعه، لإطعام الأهل والأقارب والجيران بهذه المناسبة السعيدة، وتقديم الشكر لله تعالى على فضله ونعمه، وقال جمهور العلماء: العقيقة سنة.

ج ـ رعاية الطفل من الصغر:

وذلك في مأكله ومشربه وجسده وثيابه، ليكون صحيح العقل، سوي الجسم، سليم الحواس، فإن حياة الإنسان كل لا يتجزأ، وإن حياته الجسمية في الصغر مؤشر إلى حالته في الكبر، وإن العقل السليم في الجسم السليم، والإسلام يريد منا أن نربي أولادنا على القوة والنشاط، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»[1].

وهذه القوة تتجلى بالمعنى المادي، كما تتجلى بالمعنى الروحي أيضاً بأن يكون الطعام طاهراً ومبرءًا من كل حرام، فلا يطعم الأولاد إلا من حلال ولا تتغذى الحامل والمرضع والأم الحاضنة إلا من حلال، لأن اللبن أو الغذاء الحاصل من حرام لا بركة فيه، وكيف يقدّم الوالد إلى أولاده الغذاء الحرام، ثم يسعى إلى أن يكونوا على منهج الله، وصراط رب العالمين؟ فإن الفاسد لا يؤدي إلا إلى فساد، والحرام لا ينتج إلا سوءاً وضرراً، كما أن الحرام لا يكون وسيلة إلى المقاصد النبيلة والغاية لا تبرر الواسطة، وكل لحم نبت من السُحت فالنار أولى به، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله طيبٌ، لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين،** فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذّي بالحرام، فأنى يستجاب له؟**»[2].

---

[1] صحيح مسلم (١٦/ ٢١٥).
[2] صحيح مسلم (١١/ ٨٥).

ويظن كثير من الآباء أن واجبهم تجاه الأولاد ـ مقصور على تقديم القوت، والغذاء والكساء ـ وأن يؤمنوا لهم العيش الرغيد، والحياة المادية المرهقة، فيقضي الأب الأيام والسنين منهمكاً في الكسب، ويضرب في الأرض للتجارة والعمل، وسعي ذات اليمين وذات الشمال، ويغيب عن بيته زمناً طويلاً ويترك أولاده، ويغفل عن تربيتهم، ويظن أنهم صغار يكفيهم الطعام والشراب واللباس، فتكون النتيجة الضياع والحسرة. وربط القرآن الكريم بين الكسب والرزق، ووجوب التربية، وإن انصراف الوالدين بعض الوقت إلى تربية الأولاد لا يؤثر على موارد رزقهم ولا يبطل، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه، آية : ١٣٢)[١].

د ـ البناء العقدي للطفل:

من خلال تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأطفال نجد أمور أساسية في تثبيت الإيمان:

ـ تلقين الطفل كلمة التوحيد.

ـ ترسيخ حب الله تعالى.

ـ ترسيخ حب النبي صلى الله عليه وسلم.

ـ تعليم الطفل القرآن الكريم.

ـ ثبات الطفل على العقيدة والصحبة لها.

وليس الطريق في تقوية الإيمان وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحجبه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها[٢].

---

[١] حقوق الإنسان في الإسلام للزحيلي، ص: ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

[٢] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ٨١.

وذلك لأن كل مولود يولد على الفطرة الإيمانية، كيف لا والله يقول : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، آية : ١٧٢).

وإذا تأملنا صفحات القرآن نجد أن الرسل والأنبياء يعنون عناية كبيرة بسلامة عقيدة أبنائهم فمن ذلك قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" (البقرة، آية : ١٣٢).

وهذا لقمان يرعى ابنه فيوصه :" يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان، آية : ١٦).

وإن من اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالأطفال دعوتهم للإسلام دائماً، حتى شق طريقه في بناء جيل ضم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي آمن بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتجاوز سن العاشرة، حتى أنه كان في زيارته وعيادته للأطفال المرضى يدعوهم إلى الإسلام وبحضور آبائهم[١].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزرع في نفوس أطفال الأمة حب الله تعالى والاستعانة به ومراقبته والإيمان بالقضاء والقدر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[٢]، وفي رواية أخرى: «**احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما أخطأك لم**

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٨٣.

[٢] رواه أحمد والحاكم والطبراني، صحيح الجامع، رقم: ٧٩٥٧.

يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك وأعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا»[1].

فإذا ما حفظ الطفل هذا الحديث وفهمه جيداً، لم تقف أمامه عثرة، ولم يعقه شيء في مسيرة حياته كلها فأي تربية هذه ـ قديمة وحديثة ـ تستطيع أن تبلغ من نفس الطفل كما بلغها هذا الحديث، إن لهذا الحديث قوة كبيرة على حل مشاكل ـ الأطفال والشباب والكهول والشيوخ ـ بفضل تأثيره وروحانيته، وله القدرة في دفع الطفل نحو الأمام بفضل استعانته بالله ومراقبته له وإيمانه بالقضاء والقدر[2].

ـ ولابد من العمل على ترسيخ محبة رسول الله في نفوس الأطفال والشباب ورسم صورته وشخصيته في أذهانهم وعقولهم وتمكين محبة رسول الله في قلوبهم، وتكون شخصية رسول الله هي التي يقتدي بها الأطفال والشباب والمسلمون عموماً.

ـ وينبغي لولي الصغير والصغيرة أن يبدأ بتعليمهما القرآن منذ الصغر وذلك ليتوجها إلى اعتقاد أن الله تعالى هو ربهم وأن هذا كلامه تعالى، وتسري روح القرآن في قلوبهم ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسهم وليتلقيا عقائد القرآن منذ الصغر وأن ينشأ ويشبا على محبة القرآن والتعلق به والائتمار بأوامره والانتهاء عن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على منهاجه[3].

قال ابن خلدون: تعليم الوالدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهالي الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبني عليه ما يحصل من الملكات[4].

وللقرآن الكريم تأثير كبير على النفس البشرية عامة، يهزها ويجذبها ويضرب على أوتارها، وكلما اشتدت النفس صفاء كلما ازدادت تأثيراً والطفل أقوى الناس صفاء، وفطرته مازالت نقية، والشيطان مازال في كبوتها تجاهها[1].

---

[1] صحيح الجامع، رقم: ٨٧.
[2] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ٨٧.
[3] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.
[4] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

ـ ولابد من تربية الأطفال والشباب على الثبات على العقيدة والتضحية من أجلها، فالعقيدة تغلو بالتضحية لها، وكلما اتسعت دائرة التضحية كلما قويت النفس على الثبات، ودل ذلك على الصدق، وهي عين الاستقامة، وأطفال الصحابة وشبابهم لا يعرفون تكاسلاً ولا تثاقلاً إلى الأرض، وإنما يستخدمون شتى الأساليب لكي لا يستصغرهم النبي صلى الله عليه وسلم فيردهم عن الجهاد، فتارة يبكون، وأخرى يتوارون، وثالثة يقفون على رؤوس أصابعهم، كل ذلك ليخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله وينالوا شهادة في سبيله لا يعدلها أي شهادة في الدنيا على الإطلاق وبنوا مستقبلاً زاهراً خالداً أبدياً في جنة عرضها السموات والأرض[٢].

هـ ـ البناء العبادي:

الطفولة ليست مرحلة تكليف وإنما هي مرحلة إعداد وتدريب وتعويد للوصول إلى مرحلة التكليف عند البلوغ ليسهل عليه أداء الواجبات والفرائض وليكون على أتم الاستعداد لخوض غمار الحياة بكل ثقة وانطلاق والعبادة لله تعالى تفعل في نفس الطفل فعلاً عجيباً، فهي تشعره بالاتصال بالله جل وعلا وهي تهدئ من ثوراته النفسية، وهي تلجم انفعالاته الغضبية فتجعله سوياً مستقيماً، إذ كثافة الشهوات ضعيفة في تلك الفترة، مما يجعل روحه تتجاوب أكثر فأكثر بمناجاة الله، ويأخذ الخشوع المساحة الكبرى من جسده وهو يرتل آية أو يسمعها، أو هو واقف في الصلاة أو ساجد فيها أو هو يسمع آذان الإفطار ليبدأ بالطعام والشراب بعد أن صام يومه، وهناك أسرار كثيرة للعبادة لا تعد ولا تحصى تؤثر في الطفل مما يزيد قوته ونشاطه[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**علّموا الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشر**»[٤].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر بنفسه بتعليم الأطفال ما يحتاجونه في الصلاة، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: علّمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٨.
[٢] المصدر نفسه، ص: ١١٤ ـ ١١٩.
[٣] المصدر نفسه، ص: ١٢٣.
[٤] المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت»[1].

ـ وتدريب الصبي على صلاة الجمعة تحصل له عدة فوائد منها:

*ـ عندما يبلغ يكون معتاداً على إقامتها.

*ـ تأثره بسماع الخطبة، إذ فطرته تكون حساسة لالتقاط أحاديث الإيمان وسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما تدريب له لسماع العلم.

*ـ يألف تجمعات المسلمين ويشعر بدخوله للمجتمع إذ لابد أن يتعرف على من يعرفهم والده.

*ـ على رأي من قال بأن الساعة المستجابة في يوم الجمعة هي لحظة الخطبة فيكون من الحاضرين لهذه الساعة المستجابة التي حدّث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم.

*ـ تكون تغذية إيمانية وشحناً روحياً على إقامة الصلوات الخمس وطاعة الله بين الجمعة والجمعة.

*ـ يتعرف بها على علماء الأمة ودعاتها مما له كبير الأثر في كبره فضلاً عن صغره.

*ـ بصلاة الجمعة يحصل له بناء شخصية بكامل عناصرها العقدية والعبادية والاجتماعية والعاطفية والعلمية والجسمية والصحية[2].

و ـ البناء الاجتماعي:

وهو أن يكون الطفل متكيفاً مع وسطه الاجتماعي سواء مع الكبار أو مع الأصدقاء ومن هم في سنه، ليكون فعلاً إيجابياً بعيداً كل البعد عن الانطواء والخجل المقيت، يأخذ ويعطي بأدب واحترام، يبيع ويشتري، ويخالط ويعاشر، ومن خلال التأمل في الأحاديث النبوية، نجد هناك أموراً خصها الرسول صلى الله عليه وسلم في تكوين الطفل اجتماعياً وهي:

ـ اصطحابه إلى مجالس الكبار:

كان الأطفال يحضرون مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وكان آبائهم يأخذونهم إلى تلك المجالس الطيبة الطاهرة، ففي أخذ الطفل إلى مجالس الكبار تظهر نواقصه واحتياجه، فيستطيع

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٢٩.

المربي عند ذلك توجيهه نحو الكمال ويشجعه على الجواب عندما يطرح سؤال فيتكلم بعد استئذان وذلك بكل أدب ووقار، فيتكلم معهم، وينمو عقله وتتهذب نفسه ويتعرف إلى أحاديث الكبار شيئاً فشيئاً فيتهيأ لدخول المجتمع وهكذا يندرج رويداً رويداً[1].

ـ إرسال الطفل لقضاء الحاجات:

وهذا عامل هام في نشوء الطفل اجتماعياً، إذ أن قضاء الحاجات للمنزل أو لأحد الوالدين ذو أثر فعال إيجابي في حياة الطفل، فعال في طفولته إذ هو يتعرف على مجاهيل الحياة، فيشعر بفرح ونشوة المعرفة، وثقة في مواجهة الأمور وفعال في مستقبله إذ يكون قد اكتسب مهارة وخبرة في طفولته التي تمكنه من متابعة حياته بخطى ثابتة مركزة بدون خلل أو اضطراب[2]، ولابد من تدريب الأطفال قضاء حاجات الوالدين ومتطلبات المنزل تنشأ لديهم حاسة جديدة تتعرف مطالب الوالدين قبل أن يفصحا عن طلبهما.

ـ تعويد الطفل سنة السلام:

السلام هو التحية الإسلامية بين المسلمين والطفل يتعرض للقاء الناس على اختلاف مستوياتهم، فهو يحتاج ليتعرف على مفتاح الكلام معهم ونلاحظ أسلوباً لطيفاً من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته في غرس سنة السلام في نفس الطفل، عن أنس رضي الله عنه مرّ على صبيان فسلم عليهم وقال: كان رسول الله يفعله[3]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم ويدعو لهم[4].

ـ عيادة الطفل إذا مرض:

مما يساعد على بناء الروابط الاجتماعية للأطفال عيادتهم إذا مرضوا، فعندما يرى الطفل ـ وهو مازال في مرحلة الفطرة والصفا ـ أن الناس الكبار يأتون إليه فإنه يتعود هذه العادة الحسنة، كما أنها تخفف من آلامه وأسقامه، وإذا دعمت هذه الزيارة بدعوة الطفل للإسلام وتثبيته على الإيمان، والتوبة والمغفرة إلى الله، فإن العيادة توتي أكلها كاملة مثمرة، مضاعفة

---

[1] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٤٣.
[2] المصدر نفسه، ص: ١٤٥.
[3] المصدر نفسه، ص: ١٤٨.
[4] صحيح الجامع رقم ٤٩٤٧.

الأجر، وهذا ما فعله صلى الله عليه وسلم، عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه وهو عنده؟. فقال : أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[١]، وهكذا نجد منه صلى الله عليه وسلم استغلال كل فرصة ليغرس شيئاً في نفس الطفل، وفي كل لقاء يعلمه علماً نافعاً، وفي كل شاهدة يعوده على الخير[٢].

ـ اختيار الطفل أصدقاء له من الأطفال:

من السنن الاجتماعية الثابتة بين الناس، الصحبة والصداقة، فمن طبيعة النفس البشرية أن تخالط الناس وتتعرف عليهم وتتخذ من بينهم ثلة تقترب منهم وتعيش معهم حياة الأخوة والمحبة، فإذا أحسن الوالدان اختيار الصديق الصالح لطفلهم فقد فتحا الباب تربوياً في إصلاح هذا الطفل وتنميته واختيار الطفل الصديق الصالح يساعد الابن على طاعة الله وزيادة السلوك الاجتماعي الصحيح.

ـ تعويد الطفل البيع والشراء:

إن اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بتكوين الطفل اجتماعياً واقتصادياً يتجلى في توجيهه لكل ميادين الحياة، وتفاعل الطفل مع الواقع الجديد والمجتمع الجديد الذي ينشأ فيه، فعملية البيع والشراء تكسبه حركة اجتماعية قوية، إذ يتعامل مع أطفال مثله، ويتعود كيفية النشوء في هذه الحياة ويستفيد من وقته في شيء مفيد كما أنها تكسبه الثقة النفسية الاجتماعية ويتحول إلى إنسان سوي يتعلم الجد في الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الهزل، ويتعود الأخذ والعطاء ويفهم الحياة فهماً جيداً صحيحاً بعيداً عن الدلال المفرط المقيت الذي يقتل الأطفال أينما وجدوا، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعو لهذا الطفل بأن يبارك الله له تجربته وفي صفقته، روى أبو يعلي والطبراني عن عمرو بن حريث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بعبد الله بن جعفر وهو يبيع بيع الغلمان أو الصبيان قال: «**اللهم بارك له في بيعه**»، أو قال: «**في**

[١] رواه البخاري، منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٤٩.
[٢] المصدر نفسه، ص: ١٤٩.

صفقته»[١]. هذا الطفل الشريف ابن الشريف ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم يبيع ويشتري ولم يخجل من فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بل دعا له، ألا ليت قومي يعلمون[٢].

ـ حضور الأطفال الحفلات المشروعة والأعراس:

وهذا مكان تجمع آخر يذهب إليه الأطفال فيتعارفون فيه على هذا الحفل الكريم، الذي سيكونون يوماً أحد أعضائه الأساسيين، فيشاهدون الكبار والصغار، ويسمعون الأحاديث الودية والأفراح الجميلة، فتبتهج نفوسهم وتتحرك مشاعرهم، وتصقل اجتماعيتهم، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاهد الصبيان في حفل الزفاف فيقرهم على مجيئهم وإقبالهم على الحضور، ولا ينكر عليهم ويدعو الحاضرين جميعاً فتشمل دعوته هؤلاء الأطفال[٣]، وعن عبد العزيز بن صهيب عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الصبيان مقبلين ـ قال عبد العزيز حسب أنه قال من عرس، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ـ ممتناً فقال: «**اللهم أنتم من أحب الناس إليّ، اللهم أنتم من أحب الناس إليّ، اللهم أنتم أحب الناس إلي»**، يعني الأنصار[٤]، وبهذا تلاحظ اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم في تكوين الطفل اجتماعياً وأخذه إلى التجمعات الاجتماعية وإلى المجالس وإلى أماكن الأفراح كذلك لا بأس من اصطحابه إلى أماكن العزاء[٥].

إن عملية البناء الاجتماعي للطفل ركن هام في بناء شخصيته وتقويمها وتهذيبها واستقامتها وأنها تحقق الثقة النفسية الاجتماعية للطفل[٦].

ز ـ البناء الأخلاقي:

إن الصبي يولد على الفطرة الخالصة والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه الساذجة بخلق من الأخلاق انتقشت صورته في لَوْحِها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئاً فشيئاً إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفية راسخة فيها، حائلة لها عن الانفعال بضدها، يؤيد هذا أنا

---

[١] رواه أبو يعلي والطبراني، منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٥٠.
[٢] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٥٠.
[٣] منهج التربية النبوية، ص: ١٥١.
[٤] رواه البخاري، باب النكاح، منهج التربية النبوية، ص: ١٥١.
[٥] منهج التربية النبوية، ص: ١٥١.
[٦] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٥٤.

إذا رأينا في الغرباء من هو لطيف الخطاب جميل اللقاء مهذب الألمعية لا ترتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله في البيوت الفاضلة نباتاً حسناً[١].

ـ وقال الشاعر صالح عبد القدوس:

وإن من أدبته في زمن الصبا
كالعود يبقي الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً
بعد الذي أبصرت منه يبسه
والشيخ لا يترك أخلاقه
حتى يوارى في الثرى رمسه
إذا أرعوى عاد إلى جهله
كذي الضنا عاد إلى نكسه[٢]

إن غرس الأدب حق الوالد على أبيه، كواجب حق الطعام والشراب، روى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»[٣].

وبيَّنت الشريعة الإسلامية أهمية الأدب مع الوالدين والعلماء وأدب احترام وتوقير الكبير وأدب الأخوة وأدب الجار، والاستئذان والطعام والشراب واللباس وأهمية خلق الصدق وحفظ الأسرار وسلامة الصدر من الأحقاد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعامل مع الأطفال، يأمرهم وينهاهم، ويمازحهم ويلحق بهم، يقف خلف الطفل ويبتسم له لا يغضب في وجههم، لا يعاتبهم، يرسخ عقيدة القضاء والقدر في نفوسهم، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين والله ما قال لي أف قط ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا. وفي رواية مسلم : كان النبي صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجة فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي

[١] السعادة العظمى، محمد الخضر حسين، ص: ٦٠.
[٢] منهج التربية النبوية، ص: ١٥٩.
[٣] رواه ابن ماجه، منهج التربية النبوية، ص: ١٦٠.

الله صلى الله عليه وسلم فخرجت حتى أمرّ على الصبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك فقال: «**أنس ذهبت حيث أمرتك؟**»، قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا، أو لشيء تركته: هلاّ فعلت كذا وكذا[١].

وهذا إن دلَّ فإنما يدل على اهتمامه صلى الله عليه وسلم ببناء أخلاق الأطفال عملياً بالقدوة الحسنة لهم فينشؤون أرسخ خلقاً، وأثبت عوداً أمام التحديات المادية التي تنتظرهم في واقع المجتمع وفي حياة الناس فلا يفرطون بأخلاقهم الإسلامية أمام عواصف التيارات المنحرفة[٢]، ويساهمون في بناء الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية.

ح ـ البناء العاطفي للطفل:

إن البناء العاطفي للطفل له أهمية خاصة في بناء نفسية الطفل وتكوينه، وهذا البناء يلعبا فيه الدور الأكبر الوالدان، إذ هما المصدر الأساسي لأشعة العاطفة التي تبني نفسه وهما الركن الرشيد الذي يأوي إليه الطفل لينعم بحرارة العاطفة ونعمة الأبوة والأمومة وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تبني عاطفة الطفل ونؤدي له حقه ليكون إنساناً سوياً في مستقبله ولذلك علمنا رسول الله في معاملة الأطفال.

ـ القبلة والرحمة والرأفة بهم:

القبلة هي النور الساطع الذي يبهر فؤاد الطفل، ويشرح نفسه ويزيد من تفاعله مع من حوله وتسكن ثورانه وغضبه ثم هي أولاً وأخيراً السنة الثابتة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم مع الأطفال، فقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟، فقال: «**نعم**». قالوا: لكنا والله ما نقبِّل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة**»[٣].

---

[١] رواه أحمد والبخاري ومسلم، منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٧٥.
[٢] منهج التربية النبوية، ص: ١٧٥.
[٣] مسند أحمد (٦/ ٧٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل النبي صلى الله عليه وسلم الحسين بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من لا يَرحم لا يُرحم»**[1]، ومن صور رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم بالأطفال ما أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه: **«إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء صبي فأتجوز في صلاتي لما أعلم من وجد أمه في بكائه»**[2]، وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها[3].

ـ المداعبة والممارسة مع الأطفال:

روى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعينا إلى طعام فإذا الحسين يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم أمام القوم ثم بسط يده فجعل يفرها هنا وهناك فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبّله، ثم قال: **«حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه الحسن والحسين سبطان من الأسباط»**[4].

وأخذت الأمة هذه الأخلاق من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أن عمر رضي الله عنه ليعزل أحد عماله عن الرئاسة لأنه وجد منه دليلاً واضحاً على قسوة قلبه تجاه أولاده، فعن محمد بن سلام قال: استعمل عمر بن الخطاب رجلاً على عمل، فرأى الرجل عمر يقبّل صبياً له، فقال الرجل: تقبّله وأنت أمير المؤمنين: لو كنت أنا ما فعلته، قال عمر: فما ذنبي إن كان نزع من قلبك الرحمة، إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ونزعه عن عمله، فقال: أنت لا ترحم ولدك فكيف ترحم الناس[5].

ـ الهدايا والعطايا للأطفال:

---

[1] رواه البخاري، منهج التربية النبوية، ص: ١٨٠.
[2] رواه الخمسة إلا أبو داود، منهج التربية، ص: ١٨٠.
[3] صحيح الجامع رقم ٤٧٩٧.
[4] صحيح الجامع ٣١٤٦، رواه البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه والحاكم.
[5] كنز العمال (٥٨٣/ ٦) رواه الدينوري.

للهدايا أثر طيب في النفس البشرية عامة، وفي نفوس الأطفال أكثر تأثيراً وأكبر وقعاً، وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة للحب بين الناس فنصح الأمة بقوله: **«تهادوا تحابوا»**[١]. وهذا قانون عام، والرسول صلى الله عليه وسلم بين لنا عملياً هذا الركن القوي في بناء عاطفة الطفل وتحريكها وتوجيهها وتهذيبها[٢].

ـ مسح رأس الطفل وحسن استقباله:

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يداعب عواطف الأطفال بمسح رؤوسهم فيشعرون بلذة الرحمة والحنان والحب والعطف الأمر الذي يشعر الطفل بوجوده وحب الكبار له واهتمامهم به، ففي زوائد ابن حبان عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم[٣].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رأسي، قال: أظنه قال ثلاثاً فلما مسح قال: **«اللهم اخلف جعفراً في ولده»**[٤].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر تلقى الصبيان من أهل بيته، وأنه جاء من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن أو الحسين رضي الله عنهما فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة[٥].

ـ الرعاية الخاصة بالبنت واليتيم:

من القواعد الأساسية في تربية البنت.

***ـ النهي عن كراهية البنت:**

صحح القرآن الكريم النظرة والتصور عن البنات والتي كانت ومازالت ذائعة الصيت في المجتمعات الجاهلية فوجَّه العقول إلى تصحيح النظرة إليها وتعديل التصور عنها، قال تعالى:

---

[١] المقاصد الحسنة، رقم: ٣٥٢.

[٢] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٨٤.

[٣] صحيح الجامع، رقم: ٤٩٤٧.

[٤] الحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٢)، منهج التربية النبوية، ص: ١٨٥.

[٥] صحيح الجامع رقم ٤٧٦٥.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل ، آية : ٥٨ ـ ٥٩).

ثم هزَّ النفس البشرية وسألها وسأل ضميرها، لتستيقظ من جهلها[١].

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «**إن الله كره لكم ثلاثاً عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات**»[٢]، وفي ختام هذه القاعدة نذكّر بقول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى، آية : ٤٩ ـ ٥٠).

وقد قال الله تعالى في حق النساء : ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء، آية : ١٩). وهكذا البنات قد يكون للعبد فيهن خير في الدنيا والآخرة، ويكفي في قبح كراهتهن أن يكره ما رضيه الله وأعطاه عبده، فالخيرة فيما اختاره الله للعبد، لا فيما اختاره لنفسه[٣].

ـ المساواة بين الذكر والأنثى وعدم المفاضلة بينهما في التعامل:

جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم المساواة في المعاملة بين الأولاد سبب في دخول الجنة وذلك في عدم إيثار الصبي على البنت وإنما هم في الحب سواء وفي العطاء سواء وفي تقديم الهدايا والمال سواء وفي التعليم سواء وفي المعاملة سواء وحتى في القبلة سواء بسواء، وروى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهينها ولم يؤثر ولده** ـ يعني الذكر ـ **عليها أدخله الله الجنة**»[٤].

---

[١] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٨٩.
[٢] مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ١٤٧)، رجاله رجال الصحيح.
[٣] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٩١.
[٤] سنن أبي داود، منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٩١.

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء ابن له فقبَّله وأجلسه على فخده وجاءت بنت له فأجلسها بين يديه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا سويت بينهم»**[١].

بهذه الدقة النبوية في التعامل مع الصبي والبنت مما لا تعرفه جميع المجتمعات البشرية، ولا تعلمه الكتب الغربية في تربية الأطفال ولا يخطر على عقول من يسمون أنفسهم علماء النفس التربويين[٢].

***- أجر التربية والإحسان والصبر على البنات:**

لم تقف الشريعة الإسلامية في مواجهة النفس البشرية لتعاكسها وإنما لتهذيبها ففي مقابل تربية البنات كان الأجر الكبير، وفي مقابل الصبر عليهن الثواب العظيم، وذلك ليسكن من ألم الوالدين، ويرطب من خاطرهما ويشعرهما بأهمية عملهما ودورهما في هذه الرعاية والعناية لهن[٣].

روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن فأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كان له حجاباً من النار يوم القيامة»**[٤]، فالبنت أم المستقبل ومؤسسة المجتمع في الغد القريب، وصانعة الأبطال، ومؤثرة في حركة التاريخ في القريب العاجل[٥].

- تربية اليتيم واليتيمة:

يعرّف النبي صلى الله عليه وسلم مرحلة اليتيم بأنها دون سن الاحتلام، فإذا حصل الإحتلام فعند ذلك انتفت عن الطفل صفة اليتيم، روى أبو حنيفة في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال:

---

[١] مجمع الزوائد (٨/ ١٥٦).
[٢] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٩١.
[٣] المصدر نفسه، ص: ١٩٢.
[٤] رواه ابن ماجة، صحيح الجامع، رقم: ٦٤٨٨.
[٥] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٩٢.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يتم بعد حلم**»[1]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتم بعد إحتلام[2].

وتتلخص تربية اليتيم فى قواعد من أهمها:

***ـ أجر رعاية اليتيم وتربيته:**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أنا وكافل[3] اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما[4].

***ـ حفظ مال اليتيم والتجارة بماله:**

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله :﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الإسراء، آية : ٣٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء، آية : ١٠).

قال: انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه وشرابه فيحبس حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) (البقرة، آية : ٢٢٠). وخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم[5].

وعن مالك بن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الصدقة[6].

---

[1] عقود الجواهر المنيفة (٢/ ٩٤) للزبيدي.
[2] جامع الأصول (١١/ ٦٤٢) حسن بشواهده.
[3] كافل: القائم بأموره.
[4] صحيح ورواه أحمد وأبو داود والترمذي.
[5] الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٠٣).
[6] مالك في الموطأ، منهج التربية النبوية للطفل، ص: ١٩٥.

وهكذا وجدنا اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل من الضعيفين البنت واليتيم فوجه الأمة إلى زيادة الاهتمام بهما والحرص عليهما والإحسان لهما، وأنها مكرمة أي مكرمة[١].

ـ البناء الجسمي:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: علموا أولادكم السباحة والرماية وأن يثبوا على الخيل وثباً[٢].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَصُفُّ عبد الله وعبيد الله وكثير من بني العباس رضي الله عنهم ثم يقول: «**من سبق إلي فله كذا وكذا**»، فيسبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم[٣].

وقد شاهد صلى الله عليه وسلم مصارعة الغلامين قبل غزوة أحد عندما اعترض أحدهما على الآخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقبوله الاشتراك في المعركة وعدم قبول المعترض، وكان فيما قال: يا رسول الله كيف تقبله وأنا إن صارعته صرعته، فتصارعا أمامه وغلبه كما قال، فقبلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في دخول المعركة[٤]، وللعب عدد من الفوائد والقيم:

ـ أن اللعب النشيط ضروري لنمو العضلات للطفل، من خلال اللعب يتعلم مهارات الاكتشاف وتجميع الأشياء.

ـ أن اللعب يفسح المجال أمام الطفل كي يتعلم الشيء الكثير من خلال أدوات اللعب المختلفة كمعرفة الطفل للأشكال المختلفة والألوان والأحجام والملابس.

---

[١] منهج التربية النبوية، ص: ١٩٦.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٢١١.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٢١٢.
[٤] منهج التربية النبوية، ص: ٢١٤.

ـ يصرف الطفل عن طريق اللعب التوتر الذي يتولد نتيجة القيود المختلفة التي تفرض عليه، ولذا نجد أن الأطفال الذين يأتون من بيوت تكثر فيها القيود والأوامر والنواهي، يلعبون أكثر من غيرهم من الأطفال كما أن اللعب وسيلة من أحسن الوسائل لتصريف العدوان المكبوت.

ـ يكتشف الطفل عن طريق اللعب الشيء الكثير من نفسه كمعرفة قدرته ومهارته من خلال تعامله مع زملائه ومقارنة نفسه بهم، كما أنه يتعلم من مشاكله كيف يمكنه مواجهتها.

ـ يستطيع الطفل عن طريق اللعب أن يعبر عن طاقاته الإبداعية.

ـ يتعلم الطفل من خلال اللعب بدايات مفاهيم الخطأ والصواب، كما يتعلم بشكل مبدئي بعض المعايير الخلقية، كالعدل والصدق والأمانة وضبط النفس والروح الرياضية.

ـ يتعلم الطفل من خلال اللعب كيف يبني علاقات اجتماعية مع الآخرين ويتعلم كيفية التعامل معهم بنجاح، كما أنه يتعلم من خلال اللعب التعاوني واللعب مع الكبار الأخذ والعطاء[١].

ط ـ البناء العلمي والفكري:

وضع النبي صلى الله عليه وسلم، قاعدة أصلية لكسب مرحلة الطفولة في التعليم وطلب العلم، فجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، سواء كان صغيراً أم كبيراً رجلاً أو امرأة، صبياً أم بنتاً وهو أفضل العبادات التي يتقرب فيها العبد من ربه، لهذا كانت فترة الطفولة ـ والشباب ـ أخصب فترة في البناء العلمي والفكري وكل العلوم النافعة مطلوبة، وتبقى تعلم القرآن والسنة والعقائد واللغة والفقه ...الخ من الأمور ذات الأهمية بمكان، وبعد أن يتقن الطفل اللغة العربية بشكل جيد ويحفظ شيئاً من القرآن والحديث، فلا مشكلة بأن يتقن لغة أجنبية سائدة، وذلك لتكوين جيل مسلم يستطيع كشف خطط الأعداء ويأمن مكرهم، وينقل العلوم المادية البحتة إلى المسلمين، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، أول ما وصل المدينة المنورة مهاجراً من مكة، فقد روى أبو يعلي وابن عساكر عن زيد بن ثابت رضي الله

[١] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ٢١٦.

عنه قال أُتي بي النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة فقالوا: يا رسول الله: هذا غلام من بني النجار وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فأعجبه ذلك قال: «**يا زيد تعلّم لي كتاب يهود والله ما آمن يهود على كتابي**»، فتعلمته فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا كتب وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه[1]. وفي رواية أخرى عن زيد قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أتحسن السريانية فإنها تأتيني كتب؟**» قلت: لا، قال: «**فتعلمها**»، فتعلمتها في سبعة عشر يوماً[2].

ي ـ البناء الصحي للطفل:

من أسس البناء الصحي للطفل، رياضة السباحة والرماية، وركوب الخيل والمصارعة وغير ذلك من أنواع الرياضة النافعة، وتعويد الطفل سنة السواك، واستخدام معجون الأسنان واهتمامه بالنظافة وتقليم الأظافر، واتباع السنة النبوية في الأكل والشرب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[3].

والنوم على الشق الأيمن وهو ركن صحي نبوي في حياة المسلم وله فوائد صحية كثيرة، فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوصي صحابته بذلك: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن آخر ما تقول**»[4].

والنوم بعد العشاء والاستيقاظ المبكر لصلاة الفجر وإبعاد الأطفال عن الأمراض المعدية، وتعويذ الأطفال من العين الحاسدة والجن، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعوِّذ الحسن

---

[1] سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٨٧.
[2] سنن أبي داوود منهج التربية النبوية للطفل، ص: ٢٣٢.
[3] جامع الأصول (٧ / ٤١٠) المستدرك للحاكم وصححه الذهبي.
[4] البخاري ومسلم، منهج التربية النبوية، ص: ٢٤٦.

والحسين: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامَّة**»، فيقول «**إنَّ أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق**»[1].

وسرعة معالجة الطفل المريض، وعيادته وعلاجه بالدعاء والرِّقي[2]، هذا كله من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في البناء الصحي للطفل.

ك ـ تهذيب الجانب الجنسي للطفل:

الدافع الجنسي خلقه الله تعالى في النفس البشرية ليكون سبباً في استمرار الكائنات الحية جميعها ومن بينها الإنسان، وقد خصَّ الله تعالى زمناً معيناً لتفجير هذه الطاقة في الإنسان ليصبح قادراً على الإنجاب، وسمى الشرع الحنيف هذه السن بسن التكليف، أي بدخول الطفل هذا السن يصبح مسؤولاً عن تصرفاته، محاسباً على أعماله.

ولكي يسير الدافع الجنسي في نفس الطفل بشكل هادىء، بلا تهيجات خارجية تغذيه نحو الانحراف عن السلوك القويم، رعى الإسلام هذا الطفل وطالبه بأوامر ونواهي وذلك لكي يتهذب الدافع الجنسي، ويبقى متوازناً ظاهراً بلا انحراف نقياً بلا تلوث.

ومن القواعد الضابطة التي خصَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تهذيب الطفل جنسياً وتُبقي فطرته نظيفة طاهرة عفيفة لم تخدشها الجاهلية بمستنقعها الآسن[3].

ـ استئذان الطفل في الدخول:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ

[1] الحاكم في المستدرك (٣ / ١٦٧) صحيح على شرط الشيخين.
[2] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ٢٤٨ إلى ٢٥٦.
[3] منهج التربية للطفل، ص: ٢٥٩.

مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور ، آية : ٥٨ ـ ٥٩).

في هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر النفسيون اليوم ـ بعد تقدم العلوم النفسية ـ أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها[١].

تعويد الطفل غض البصر وحفظ العورة:

يعّود الطفل على غض البصر عن العورات كافة المنزلية والخارجية، ويربى على مراقبة الله له، كما فعل الطفل الصالح عبد الله التستري الذي كان ورده القلبي قبل أن ينام: «**الله شاهدي، الله ناظري، الله معي**» فإن ذلك يورث حلاوة الإيمان يجدها الطفل في نفسه، وفي رواية ابن جرير في تهذيب الآثار أن العباس قال للنبي صلى الله عليه وسلم: رأيتك تصرف وجه ابن عمك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**رأيت جارية حدثة وغلاماً حدثاً فخشيت أن يدخل بينهما الشيطان**»[٢].

وقد ذكر الشيخ عبد الحميد كشك في إحدى خطبه قول أحد علماء الألمان حول أهمية غض البصر وأنه هو العلاج الوحيد للجنس قوله: لقد درست علم الجنس وأدوية الجنس فلم أجد دواء أنجح وأنجع من القول في الكتاب الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور ، آية : ٣٠).

---

[١] في ظلال القرآن ج (١٨ / ١٢٣).
[٢] صحيح ابن خزيمة (٤ / ٤٦١).

أما ستر العورة، فإن الطفل يتعودها مع بداية أمره بالصلاة حيث لا بد أن يكون لباسه ساتراً لعورته وذلك لتكون صلاته صحيحة سليمة من صغره، وبالتالي ينشأ على حب ستر العورة صبياً كان أم بنتاً، فالصبي يلبس ما يستر عورته والبنت كذلك، وتزيد عليه أن تتعود الحجاب فتبدأ بحجاب الصلاة، وهكذا ينشأ الطفل مستقيماً صالحاً مهذبة نفسه، قويمة أخلاقه، قوياً في إيمانه[1].

ـ التفريق في المضاجع بين الأطفال:

روى أبي داود بسند حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»[2].

إذن هذا التفريق يبدأ في سن العاشرة حيث تكون الغريزة في طريقها للنمو، ولذلك وجب عدم نوم الطفلين في لحاف واحد، لأن النوم في فراش واحد تحت لحاف واحد يؤدي بالأطفال أن تنمو فيهم الغريزة الجنسية بسرعة متزايدة، وأن تتأجج فلا تجد طريقاً لإنقاذها إلا ببعض مظاهر الانحراف والشذوذ الجنسي، وكم تحدث شذوذات تحت اللحاف لا يشعر بها الأبوان، فتكون سبباً في دمار هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين تساهل آباءهم عن أحوالهم فوضعوهم في مخالفة أوامر النبي صلى الله عليه وسلم[3].

ـ نوم الطفل على شقه الأيمن وابتعاده عن النوم على بطنه:

اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنوم على الشق الأيمن يبعد الطفل عن كثير من المهيجات الجنسية أثناء النوم، وقد وصف صلى الله عليه وسلم النوم على الوجه بنومة الشيطان، فإذا نام الطفل على بطنه فيؤدي ذلك إلى كثرة حك أعضاءه التناسلية التي تثير شهوته في هذا الحالة، فإذا وجد الوالدان الطفل في هذه الحالة نائماً غيَّرا من حالته، وحببوا إليه النوم على الشق الأيمن والابتعاد عن النوم على الصدر، فضلاً عن النوم عن الصدور يورث

---

[1] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ٢٦٣.
[2] سنن أبي داوود، مستدرك الحاكم (١ / ٢٠١)، صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.
[3] منهج التربية النبوية للطفل، ص: ٢٦٤.

كثيراً من الأمراض الجسمية والأطباء جميعاً بدون استثناء ينصحون بالابتعاد عن النوم على البطن[١].

ولابد من الوالدين ومن عقلاء المجتمع إبعاد الأطفال من الاختلاط والمهيجات الجنسية ولابد من تعليم الأطفال فروض الغسل وسننه، وشرح سورة النور وتحفيظها للطفل المميز، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تدخلن امرأة مسلمة الحمام إلا من سقم، وعلموا نساءكم سورة النور[٢]، ولابد من المصارحة الجنسية والتحذير من الفاحشة، فالطفل يعلم ويحفظ سورة النور التي تتضمن البناء الخلقي والتهذيب الجنسي للطفل، وتحذره من الوقوع في الفاحشة، وبعد تعلمه فرائض الغسل وإسقاط الجنابة، يحذر تحذيراً شديداً من الوقوع في الفاحشة ويروى له الحديث التالي: "عن أبي أمامة أن فتىً من قريش أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، فقالوا: مه ... مه .. فقال: **«أدنه»** فدنى منه قريباً، فقال: **«أتحبه لأمك؟»** قال: لا والله جلعني الله فداك، قال: **«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»**، قال: **«أفتحبه لابنتك؟»** قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: **«ولا الناس يحبونه لبناتهم»**، قال: **«أتحبه لأختك؟»** قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: **«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»**، قال: **«أتحبه لعمتك؟»** قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: **«ولا الناس يحبونه لعماتهم»**، قال: **«أتحبه لخالتك؟»** قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: **«ولا الناس يحبونه لخالاتهم»**، قال: فوضع يده عليه، وقال: **«اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»**، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[٣]. ويعرّف بعقوبة الزنا وإقامة الحد، ولا بد من تشجيع الزواج المبكر وتسهيله على الشباب فمهما قيل في الزواج المبكر من مساوىء العصر الحاضر، فإن محاسنه تفوقه خاصة إذا صحبه تأمين الحياة المادية، سواء من مساعدة الوالدين، أو كسب الفتى الناشىء، وما أمراض الأمة النفسية والاجتماعية والحوادث الجنائية إلا نتيجة طبيعية لتأخير الزواج.[٤]

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٦٤.
[٢] مصنف عبد الرزاق (١ / ٢٩٥).
[٣] رواه أحمد والطبراني، منهج النبوية، ص: ٣٦٨.
[٤] منهج التربية النبوية، ص: ٢٦٨.

الطفل في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

الدولة الحديثة تضع تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية أمامها عندما تضع خطط تعليمية وتربوية واجتماعية ونفسية وإعلامية ورياضية متعلقة بالأطفال والشباب، فتستلهم خطى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المجال، وتعتبر:

ـ الشباب هم محور التغيير، ووقود الحضارة وعماد النهضة.

ـ تشجيع الشباب على الانخراط في مؤسسات المجتمع المدني وتعمل على إطلاق الحريات لهم في مجالات حرية الرأي والتعبير وتكوين الأندية أو الروابط أو مخاطبة السلطات العامة أو التظاهر أو التجمع أو عقد المؤتمرات، أو الندوات أو مخاطبة وسائل الإعلام.

ـ القضاء المبرم على كافة أنواع عمالة الأطفال وكافة أنواع العنف والمعاملة المهينة ضدهم.

ـ للطفل الحق في الحياة الكريمة والرعاية الصحية والأسرية والاجتماعية اللائقة.

ـ سن التشريعات التي تكفل الاهتمام بالأطفال الأيتام بوجه خاص أو أبناء الشهداء ومصابي الثورة، وذلك من خلال بناء دور الأيتام، وإفراد موازنة مستقلة لها تلحق بالموازنة العامة للدولة.

ـ المساهمة في تنفيذ خطة إستراتيجية تدعم صحة الطفل والمجتمع بالتعاون والتنسيق مع كافة الوزارات والأجهزة والجهات ومنظمات المجتمع المدني ذات الصلة.

ـ وضع مناهج للأطفال والشباب لفهم دينهم على أسس من الوسطية والاعتدال والاستقامة.

٦ـ كبار السن:

ـ قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرِ﴾(الروم، آية : ٥٤).

ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر، آية : ٦٧).

وأما الشيخوخة نفسها فإن القرآن الكريم يورد طرفاً من صفاتها في هذه الآيات الكريمة:

ـ قال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام الذي يذكر وهن عظمه، وشيب شعره في شيخوخته : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم، آية : ٤).

ـ وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام الذي يخشى أن يوصف في شيخوخته بالتفنيد وهو الخرف: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف، آية : ٩٤). والتفنيد نفسه مشار إليه في القرآن الكريم باعتباره ممّا يطرأ في الكبر، قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (الحج، آية : ٥).

ـ والضعف العام في البدن مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ (يس، آية : ٦٨).

ـ وعدم القدرة على العمل اضطرت شعيباً عليه السلام أن ينيب عنه ابنتيه للسُّقيا، فحكى القرآن الكريم قولهما: ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(القصص، آية: ٢٣).

ـ والعجز عن الإيلاء حكاه القرآن الكريم على لسان زوج إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود، آية : ٧٢).

وبالإضافة إلى إيجاد هذا الوعي فإن التوجيه النبوي يتضمن الحض على العمل بما يناسب تطورات الحياة وذلك بالمبادرة إلى الأعمال النافعة استفادة من الفترة التي يبلغ فيها الإنسان "أشده" لمصلحة فترة "التنكيس، والضعف، والشيبة". قال صلى الله عليه وسلم: **«بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمرّ»**[1]، والعمارة

---

[1] سنن الترمذي، حديث حسن.

وطول العمر ليس مذمومين، إذا أكرم الله المُعمّر بالصحة والقدرة على العمل الصالح، قال صلى الله عليه وسلم: خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وساء عمله[١]، ومن أدعية النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا**».

وأوصى الشيخ الكبير أن يقول: «**اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»[٢].

أ ـ حقوق للمسنين على أبنائهم وذويهم ومعارفهم، وكذلك على المجتمع: متمثلاً في ولي الأمر في الأمور التي تحِق للمسنين وليس في مقدورهم ولا في مقدور أهليهم أن يوفروها لهم، ومن هذه الحقوق:

***ـ حقوق أدبية** في الاحترام والبر والمودة، لقوله تعالى فيما يجب على الأبناء: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (العنكبوت، آية : ٨).

وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾(الإسراء، آية : ٢٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة**»[٣]. وأما الأقارب من غير الأبناء فبرهم للمسنين هو من صلة الأرحام لقوله صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَصِل رحمه**»[٤].

---

[١] رواه أحمد والترمذي، حديث حسن صحيح.
[٢] رواه أصحاب السنن.
[٣] مسلم: أي: أذل الله امرءاً أدركهما فلم يحسن إليهما فلم يدخل الجنة.
[٤٤] البخاري ومسلم، والرحم: القرابة، وصلتها: كل صنوف البر بالأقارب.

وأما غير هؤلاء ممن لا تربطهم بالمسنين إلا صلة الإسلام والإنسانية، فواجب عليهم أيضاً بذل المودة والإكرام والتوقير، لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم**»[١]، وقوله: «**ليس منَّا من لا يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**»[٢].

***- حقوق اجتماعية:** في الزيارة والمؤانسة وقضاء حاجاتهم وتفقد أحوالهم، خاصة عند حصول المرض والضعف عن الحركة، وقد كان ضمن الثلاثة الذين سُد عليهم الغار، ففرّج الله عنهم لأعمالهم الصالحة رجل سهر الليل كله ليقدم لوالديه شراب الغبوق قبل أن يسمح لنفسه أن ينال منه شيئاً.

***- حقوق مادية:** في النفقة على المسنين من قبل أبنائهم بصفة أساسية، في الصحة والمرض، والإعسار إلى نهاية العمر، وقد نص الفقهاء على أن النفقة التي تجب على الأبناء نحو والديهم المسنين تتخطى مستوى الملاطفة والبر والمجاملة، لتدخل في نطاق الحقوق المفروضة التي يأثم من يغفل عنها، وقد ثبت وجوب النفقة بالكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ (الإسراء، آية : ٢٦).

قال ابن القيم: إذا لم يكن ذلك حق النفقة فلا ندري أي حق هو: ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «**ابدأ بمن تعول أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك حق واجب ورحم موصولة**»[٣]، وقد أجمع علماء المسلمين من عهد الصحابة حتى عصرنا على أن نفقة المعسر تجب على قريبه الموسر أصلاً كان أم فرعاً، ولا يوجد بين الفقهاء من هذا الإيجاب خلاف وإنما تختلف الآراء في تفسير القرابة ومدى ما تشمل عليه من أفراد سعة وضيقاً ومن أبواب النفقة على المسنين ما قد ينالهم من ميراث، لأن الأب يرث ابنه كما أن الابن يرث أباه كما هو مفصل في كتب الفقه[٤].

فإذا لم تف أموال الأبناء والأقارب بحق المسنين المعسرين، فعلى ولي الأمر أن يلبي حاجاتهم من بيت مال المسلمين، خاصة فيما يتعلق بالضرورات وهي الغذاء والكساء والمأوى والعلاج

[١] سنن أبي داود، السنوات المتأخرة من العمر، عز الدين إبراهيم، ص: ٤٧.
[٢] سنن أبي داود والترمذي.
[٣] سنن أبي داود، السنوات المتأخرة من العمر، ص: ٤٨.
[٤] السنوات المتأخرة من العمر، ص: ٤٩.

عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: «**من خلف مالاً أو حقاً فلورثته، ومن خلف كلاً أو ديناً فكله إليّ دينه علي**»[1]. وللقاعدة الفقهية: «**الحاكم ولي من لا ولي له**»[2].

وللدولة في سبيل توفير الأموال اللازمة لهذه الرعاية المادية للمسنين، أن توظف ما قد يوجد من أوقاف أو وصايا أو زكوات، وقد استوعبت قوانين الأحوال الشخصية في البلاد الإسلامية هدي الشريعة في النفقة فأوردت أحكاماً مفصلة تؤكد دور الدولة في رعاية حقوق رعاية المسنين[3]، والدولة ذات المرجعية الإسلامية تعمل على:

ـ تأهيل كبار السن ذوي الاحتياجات الخاصة للاحتفاظ بالحد الأقصى من القدرات الوظيفية طيلة حياتهم والعمل على مشاركتهم في المجتمع وتوفير الرعاية المناسبة لهم.

ـ التأكد من وصول الخدمات الطبية والتمريضات للمسنين.

ـ تحسين صحة المسن والتأكد من نمط حياته، بما يؤدي إلى راحته الاجتماعية والنفسية.

ـ تأمين تحسن متواصل للحالة الغذائية للمسن.

ـ إعادة تأهيل كبار السن ذوي الحاجات الخاصة.

وضع خطة شاملة لرعايا كبار السن في منازلهم على أن يقوم فريق متكامل بالإشراف على كبار السن في منازلهم لإجراء الكشف الدوري عليهم ومساعدة القائمين على خدماتهم وتدريبهم على اتباع طرق الرعاية الصحية.

ـ إقامة وتحديث قواعد شاملة للبيانات الخاصة بالمسنين في كل مناطق وبلديات الدولة.

ـ إقامة تواصل على المستوى الوطني والإقليمي بين المنظمات والمؤسسات والأفراد النشيطين في مجال رعاية المسنين.

ـ دمج الرعاية الصحية للمسنين في مستويات الرعاية الصحية الأولية، ووضع برامج تدريبية للعاملين في هذا المجال.

ـ توفير المعلومات والمهارات المناسبة للمسنين وأسرهم والمجتمع بأكمله للعناية بأنفسهم والحفاظ على صحتهم وتنميتهم.

---

[1] البخاري ومسلم، والكل: الضعيف الذي يحتاج إلى من يعوله.

[2] السنوات المتأخرة من العمر، ص: ٤٩.

[3] المصدر نفسه، ص: ٤٣ ـ ٥٠.

ـ زيادة عدد العيادات التي تقدم الرعاية الصحية للمسنين وبخاصة في المناطق النائية والمحرومة.

ـ العمل على رفع نسبة المسنين المراجعين للعيادات الخاصة.

ـ تفعيل دور كافة الجهات المعنية حكومية وغير حكومية في مجال رعاية المسنين.

ـ توفير الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسية.

ـ مد مظلة التأمينات والمعاشات لتشمل كافة المواطنين المحتاجين.

ـ كفالة إنشاء النقابات التي تعبر عنهم وتسعى لتفعيل دورهم والاستفادة من خبرتهم.

ـ بناء دور المسنين في المناطق المحتاجة وتحمل الدولة لكافة مصروفات إيوائهم ورعاية وعلاج ومعيشة من تقطعت بهم السبل.

ـ سن التشريعات التي تكفل حسن الرعاية والمعاملة، وتغلظ العقوبة حيال أي فرد، أو مؤسسة تنتهك حقوق كبار السن وأرباب المعاشات بوجه خاص.

٧ ـ رعاية الفئات الخاصة:

إن تعاليم الإسلام أحدثت انقلاباً في المفاهيم الجاهلية التي كانت لا تحترم إلا الأقوياء، وبالتالي نظرت إلى أصحاب العاهات نظرة ازدراء واحتقار فعاشت تلك الفئات مهمشة بائسة حزينة تشعر بالإحباط، فجاء الإسلام وأعاد إليها اعتبارها وإنسانيتها وأخذ بيدها لتواصل مشوارها في الحياة في جو مفعم بالحب والرحمة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (يونس، آية : ١٢٨).

لقد نظر الإسلام للفئات الخاصة أصحاب العاهات واللقطاء، وكبار السن والزمن، نظرة تقدير واحترام تنبع من الأساس وهو تكريم الإنسان : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء، آية : ٧٠). وهذا التكريم اقتضى عدم إهمال أي شريحة من شرائح المجتمع مهما كان وضعها لذا نجدها تقدم برامجها الإنسانية للأخذ بأيدي هذه الفئات، لإعادة تأهيلها لمواصلة مسيرتها في

الحياة، خاصة أن قطاعاً كبيراً من هذه الفئات الخاصة لديه طاقات مذخورة لا ينبغي الاستهانة بها في دفع المسيرة الحضارية للإسلام.

إن الدستور الحضاري الإسلامي الخالد "القرآن والسنة" لم يترك أمر الفئات الخاصة للاجتهادات الفردية، بل نص بكل وضوح على ضرورة العناية بها ديانة وإنسانية، واعتبر الاحتفاء بها ورعايتها من الطرق الموصلة إلى مرضاة الله ورسوله، ودخول الجنة، فنصت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على واجب رعاية هذه الفئات رعاية شمولية من خلال دمجهم ومعاملتهم على قدم المساواة مع غيرهم من عناصر المجتمع وقد صدق الكاتب الإيرلندي الشهير برنارد شو حين أكد على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ومقدرته على حل أعقد المشاكل بكل سهولة ويسر حين قال: أعتقد أن رجلاً كمحمد لو يسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه، لتم النجاح في حكمه، ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة[1].

إن الحضارة الغربية المعاصرة لم تلتفت لرعاية هذه الشريحة الاجتماعية إلا في فترة متأخرة جداً، ورغم صدور العديد من القوانين والتشريعات في العديد من الدول المتقدمة لصالح الفئات الخاصة إلا أنها مازالت دون المستوى الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية، والسبب في ذلك أن الحضارة الإسلامية ربطت بين هذه الرعاية وبين الدين، فغدا حب هذه الفئات وخدمتها ينطلق من دافع إيماني، جعل أفراد المجتمع من حكام ومحكومين يتسابقون في تقديم المساعدات لهذه الفئات ليس من باب الشفقة والمنة بل من باب الواجب المقدس المفروض على المسلم، بينما نجد هذه الخدمات في الغرب تقدم مجردة خالية من الروح، وبالتالي نجد الابن لا يجد بأساً حين يدفع والديه إلى أحد الملاجئ للتخلص من عبء النفقة والعناية بهما، على العكس تماماً مما هو كائن في تعاليم الإسلام التي جعلت من عقوق الوالدين والتخلص من رعايتهما كبيرة من الكبائر، لا بل إن هذه النظرة الإنسانية الرفيعة للوالدين حرّمت على الابن أن يجرح شعورهما ولو بكلمة أف، قال جلّ من قائل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ

[1] رعاية الفئات الخاصة، د. سلامة الهرفي، ص: ١١.

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء، آية : ٢٣ ـ ٢٤)[١].

وإليك الحديث عن بعض هذه الفئات:

أ ـ رعاية الأرامل:

جعلت الشريعة الإسلامية من ضمن أولوياتها المحافظة على كرامة هذه الشريحة الاجتماعية "الأرامل" فتكفلت بتغير نظرة المجتمع إليها فضلاً عن توفير العيش الكريم لها، وإحاطتها بالعطف والحنان للتخفيف من مصيبتها بفقد زوجها، بل ذهبت إلى أبعد من هذا، حين جعلت من خدمة هذه الشريحة قربة من القربات العظيمة تتساوى مع أجر المجاهد في سبيل الله، وأجر من واظب على قيام الليل وصيام النهار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الساعي على الأرملة[٢] والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل**»[٣].

ولم يكتف المصطفى صلى الله عليه وسلم بالتوجيه القولي، بل قام بكفالة بعض أبناء وأرامل المسلمين الذين استشهدوا في حركة الجهاد، فقد جاء في البخاري ومسند الإمام أحمد أنه بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة جاءت زوجته أسماء بنت عميس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بولديهما عبد الله ومحمد ابني جعفر، وجعلت تذكر ترملها ويتم ابنيها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة**»[٤].

وانطلاقاً من هذا التوجيه النبوي الشريف أخذت الأمة تعمل على إيجاد آليات لتجسيد رعاية الأرامل في الواقع الملموس من خلال حركة اجتماعية مؤسسية تقوم على مبدأ التكافل الاجتماعي، لمساعدة هذه الشريحة في المجتمع، وقد كان حكام الدولة الإسلامية على رأس

[١] المصدر نفسه، ص: ١٢.
[٢] الأرملة: المرأة التي فقدت زوجها.
[٣] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٥٦٦٠.
[٤] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٥٦٦٠.

الرواد في مباشرة هذا العمل الاجتماعي السامي، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخطط قبل اغتياله لتقديم إعانة دائمة للأرامل، إلا أن استشهاده حال دون تحقيقه لهذا الهدف في حياته، فعن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة يقول: لئن سلمني الله، لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً[١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد بدأ بتقديم المعونات للأرامل في المدينة المنورة، فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغاراً والله ما ينضجون كراعاً ولا لهم زرع ولا ضرع وخشيت أن تأكلهم الضباع وأنا بنت خفاف ابن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غرارين ملأها طعاماً وحمل بينها نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها حاصرا حصناً زماناً ففتحاه[٢].

ويعد الصحابي الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه أول من أوقف وقفاً لصالح الأرامل والمطلقات من بناته، فقد جاء في صيغة وقفه لبعض دوره: وللمردودة من بناته أن تسكن غير مُضِرَّةٍ، ولا مُضَرٍّ بها[٣].

وكان القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي يدرك بأن توفير الأمن الاجتماعي لهذه الشريحة "الأرامل" من العوامل المهمة لتحصين الجبهة الداخلية، وبالتالي تحقيق النصر في الجبهات الخارجية، فعندما يعلم الجندي أن زوجه وأطفاله بعد استشهاده سوف يعيشون حياة كريمة، يزداد حماساً في جهاده، وتقل توتراته النفسية ـ التي هي من طبيعة النفس البشرية ـ حين

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٣٤٩٧.
[٢] فتح الباري (٧/ ٥١٠).
[٣] السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٦٥).

يتوجه لجبهات القتال، لذا نجد صلاح الدين يوقف الأوقاف الكثيرة لخدمة الأرامل والأيتام[١]، والتي منها على سبيل المثال: قرية نسترو بين دمياط والإسكندرية والتي كانت قيمة ضمانها خمسون ألف دينار[٢].

وقد تطور العمل الجماعي في الحضارة الإسلامية لخدمة هذه الشريحة الاجتماعية إلى درجة إنشاء مؤسسات اجتماعية متخصصة لرعاية الأرامل والنساء المطلقات، أو اللواتي هجرن من قبل أزواجهن، أو اللواتي تقدم بهن السن وليس لهن من ينفق عليهن وكانت رائدة هذه اللمسات الإنسانية السيدة تذكار خاتون ابنة الظاهر بيبرس، التي شيدت في عام ٦٨٤هـ /١٢٥٨م رباط البغدادية للشيخة الفاضلة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، وأنزلت فيها مجموعة من النساء، وظل هذا الرباط قائماً إلى زمن المؤرخ المقريزي ٧٦٦هـ ـ ٨٤٥هـ /١٤٤١م الذي أوضح بأن لهذا الرباط شيخة تعظ النساء وتفقههن، على أن أهم من هذا قوله: وأدركنا هذا الرباط، وتودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن، كما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات.. حتى أن خادمة الفقيرات.. تؤدب من خرج على الطريق بما تراه[٣].

ويبدو أن فكرة إنشاء مؤسسة خاصة لرعاية النساء من الفئات الخاصة بمصطلح اليوم انتشرت من مختلف أرجاء الدولة الإسلامية على مر فترات التاريخ الإسلامي، فكان هناك على سبيل المثال رباطاً مخصصاً للنساء والعجائز في بغداد ومثله في مصر للأرامل والعجائز، فضلاً عن النساء المطلقات وفي القرافة بمصر عدة دور يقال للدار منها رباط لإقامة العجائز والأرامل والمنقطعات، وكانت لها مرتبات للصرف على المقيمات بها، وكان لهن مجالس وعظ مشهورة، وكان يختار لهذه الربط سيدات مثقفات لتهذيب وتعليم المقيمات فيه، منهن الشيخة زينب بنت عباس البغدادية والتي كانت تحضر مجالس ابن تيمية وكان يستعد لها لكثرة مسائلها[٤].

---

[١] رعاية الفئات الخاصة، ص: ٢٠.
[٢] المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، ص: ٧٧. سعيد عبد الفتاح عاشور، رعاية الفئات الخاصة، ص: ٢٠.
[٣] الخطط للمقريزي (٢/ ٤٢٨).
[٤] رعاية الفئات الخاصة، ص: ٢٢.

ويذكر أنه كان في مدينة فاس ملجأ خاصاً بالنساء الشريفات الفقيرات، ويتكون هذا الملجأ من دارين تقع إحداهما من الماشطين قرب ساحة الصفارين، والأخرى في وادي الرشاشة جوار دار عديل.

وقد استمرت العناية بهذه الفئة من المجتمع في أحلك الفترات التي كانت تمر بها الحضارة الإسلامية، فها هو آخر خلفاء الدولة العباسية المستعصم والذي قتل على يد التتار سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م يوقف داراً لرعاية النساء المسنات رغم ما كان يتهدد الدولة من مخاطر التتار[١].

وهكذا تبلورت التوجيهات النبوية بشأن هذه الشريحة الاجتماعية إلى عمل اجتماعي مؤسسي[٢].

ب ـ تزويج وتجهيز البنات الفقيرات:

من طبيعة الإسلام وتعاليمه الاهتمام بالجانب الإنساني وتوفير الاحتياجات لأفراد المجتمع، سواء بواسطة الدولة أو من الأفراد القادرين على فعل الخير والتقرب به إلى الله.

ولذلك نجد أن الدولة الإسلامية تصدر المراسيم التي تلزم الدولة بنفقات زواج الفقراء ولعل الأوامر التي أصدرها الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز" ٩٩ ـ ١٠١/ ٧١٧ ـ ٧١٩" إلى واليه على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن بهذا الشأن خير دليل وشاهد على حرص حكام المسلمين على رعاية الشباب الفقراء في الدولة الإسلامية لما يترتب على عجزهم عن الزواج من مفاسد اجتماعية تهدد الأمن الاجتماعي للأمة، فقد جاء توجيهه لواليه: أن أنظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه، فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت[٣].

ولم يكتف هذا الخليفة العادل بذلك، بل طلب أن ينادي في كل مصر في كل يوم: أين المساكين، أين الغارمون، أين الناكحون[٤].

وقد قرر الفقهاء منذ فترة مبكرة على أن الالتزامات الإنسانية على الأمة التكفل بتزويج الفقراء في المجتمع[١]، ويحدثنا الرحالة الشهير ابن بطوطة: أنه كان في مدينة دمشق أوقاف خاصة

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٣.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٣.
[٣] الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٧٤).
[٤] البداية والنهاية (٩/ ٢٢٠).

لتجهيز البنات إلى أزواجهن مما لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن[٢]. كما وجد في فلسطين أوقاف مخصصة لتوفير مهور للفتيات اليتيمات كي يتسنى لهن الزواج[٣].

ووجد في أكثر بلدان العالم الإسلامي وقفاً لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والمناسبات السعيدة، بحيث أن العامة والفقراء ينتفعون بهذا الوقف الخيري، فيستعيرون منه ما يلزم من الحلي لأجل التزيين في المناسبات العامة، ومن ثم يعيدونه إلى مكانه بعد انتهائها[٤]، فقد وجد على سبيل المثال في مدينة تطوان المغربية وقف لأسرة بلحاج خاص بزينة العروس ولباسها[٥]، وكانت ملكة الهند المسلمة نورجهان تساعد المحتاجين وتزوج الأيتام، وتدفع المهور عنهم، وكانت أول من أنشأت سوقاً خيرية أطلقت عليها اسم "سوق الشفقة" يذهب ريعه لخدمة الفقراء وتزويج الأيتام، فكانت تجتمع بالأميرات وزوجات الأعيان في قصرها، ثم يذهبن إلى السوق، توزع وارداته على فقراء المملكة، والتي كان يصرف بعضها في تزويج الأيتام ومساعدة المحتاجين، وقد بقيت هذه الملكة تمارس هذه الخدمة الجليلة حتى انتقل زوجها عام ١٠٥٦هـ /١٦٤٦م إلى الرفيق الأعلى، حيث اعتزلت الحكم ثم توفيت بعد قليل ودفنت في جانبه في حديقة سليمان[٦] وكانت الأميرة عزيزة بنت أحمد بن محمد بن عثمان ت ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م محبة للضعفاء والمساكين، فأوقفت الأوقاف الخيرية الكثيرة في تونس، منها ما هو مخصص لتجهيز الأبكار اللاتي يثقلهن الفقر ويحول دون زواجهن صيانة لهن عن الابتذال وترغيباً في الزواج بهن[٧].

ومن أجل مساعدة المرأة على القيام بوظيفة الأمومة على أكمل وجه وجدت أوقافاً للنساء المرضعات، تسمى أوقاف نقطة الحليب يوزع منها الحليب على النساء المرضعات في أيام محدودة في كل أسبوع، إلى جانب الماء المذاب فيه السكر، فقد كان من مبرات القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي في أحد أبواب القلعة في دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً يسيل

---

١ رعاية الفئات الخاصة، ص: ٢٨.
٢ الرحلة لابن بطوطة، ص: ٥٥.
٣ رعاية الفئات الخاصة، ص: ٢٨.
٤ الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، ص: ٦٣٦.
٥ معطيات الحضارة المغربية، عبد العزيز بن عبد الله (٢/ ٣٣ ـ ٣٤).
٦ نساء فاضلات، عبد البديع صقر، ص: ١١٧ ـ ١١٨.
٧ رعاية الفئات الخاصة، ص: ٢٩.

منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات المرضعات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر[1].

ج ـ رعاية اللقطاء:

نص الفقهاء على أن رعاية اللقيط واجب مقدس على الأمة، فإن لم تقم به وقعت في الإثم، ولذا قالوا: إن من وجد صغيراً منبوذاً، ففرض على من بحضرته أن يقوم به.. ولا إثم أعظم من إثم من أضاع نسمة ولا ذنب لها حتى تموت جوعاً أو برداً أو تأكلها الكلاب وهو قاتل نفس عمداً لا شك[2]، وإن امتنع أهل القرية أو البلدة على أن ينفقوا على اللقيط وجب على الإمام قتالهم[3]. لأنهم تقاعصوا عن القيام بواجبهم الاجتماعي المقدس الذي كلفهم به الشارع، فالقاعدة تقول: إنه من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة، آية : ٣٢).

إن إهمال هذه الفئة الاجتماعية "اللقطاء" يعني فتح باب مفسدة عظيمة على المجتمع ومخالفة صريح لروح الإسلام التي جاءت رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، آية : ١٠٧). وصح عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قوله : «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[4].

وعليه فقد نص الفقهاء على إلزام الدولة بالإنفاق على اللقيط، وإن عز ذلك، كلفت مجموعة تعاونية بمساعدة الدولة للإشراف على الإنفاق عليه[5].

وكان عمر بن الخطاب الخليفة الراشد ١٣ ـ ٢٣هـ /٦٣٤ ـ ٦٤٣م كان من أوائل حكام الدولة الإسلامية الذين خصصوا أموالاً من بيت مال المسلمين لرعاية اللقطاء وتوفير الجو الأسري

---

[1] من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص: ٩٨ ـ ٩٩.
[2] المحلى لابن حزم (٥/ ٢٧٣).
[3] المجموع للنووي (١٥/ ٢٩١).
[4] أخرجه البخاري في الأدب، رقم: ٢٣١٨.
[5] رعاية الفئات الخاصة، ص: ٤٢.

المناسب لهم، فقد روى الصحابي سنين أبو جميلة[1]، قال: أخذت منبوذاً على عهد عمر رضي الله عنه، فذكره عريف لعمر رضي الله عنه فأرسل إليّ فدعاني والعريف عنده فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قلت: وجدت نفساً بمضيعة فأحببت أن يأجرني الله فيه، فقال عمر: هو حر، ولاؤه لك، وعلينا رضاعته[2].

وفي حادثة أخرى رفع لقيط إلى الفاروق رضي الله عنه أثناء خلافته، فدفعه إلى امرأة صالحة لتتولى إرضاعه وتربيته مقابل أجر يدفع لها من بيت مال المسلمين وفي نفس الوقت قام بالتحريات اللازمة حتى تعرَّف على أمه، التي اعترفت للخليفة بأنه ثمرة زنا أجبرت عليه مما جعلها تقتل الشاب الذي اغتصبها، ومن ثم طرح هذا الطفل على قارعة الطريق[3].

وعندما تعددت حالات وجود اللقطاء استشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابة في نفقة اللقيط، فقالوا: لم يكن له مال وجبت نفقته من بيت مال المسلمين[4].

فكان رضي الله عنه إذا أتى بلقيط فرض له مائة درهم وفرض لوليه رزق يصله كل شهر، وجعل رضاعته، ونفقته وما يلزمه من بيت المال، على أن يزيد عطاؤه سنة فسنة، وكان يوصي بهم خيراً[5]، وقد سار الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه على هذا النهج[6].

وحفظت الشريعة الإسلامية حقوق هذه الشريحة في الحرية والكرامة، والرعاية والتربية وحق النفقة، بل إن الدول الإسلامية كالعباسية، والأيوبية، والمماليك والعثمانية، كانت تشتري هؤلاء الأطفال من أسواق الرقيق من مختلف العالم، ومن ثم تربيتهم تربية عسكرية إسلامية، حولتهم إلى حراس للحضارة الإسلامية بعدما أصبحوا جنوداً مدربين يؤمنون بالإسلام ديناً وعقيدة، ومنهج حياة[7].

---

[1] من الصحابة الذين شهدوا حجة الوداع وروا عن أبي بكر وعمر وروى عنه الإمام الزهري.
[2] رعاية الفئات الخاصة، ص: ٤٩.
[3] تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص: ٧٨ إلى ٧٩.
[4] المجموع النووي (١٥ / ٢٨٨).
[5] أخبار عمر، علي طنطاوي، ص: ١٢٤ ـ ١٢٥.
[6] الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، ص: ٣٣٩.
[7] رعاية الفئات الخاصة، ص: ٥٠.

د ـ رعاية ذوي العاهات والأمراض المزمنة:

نرى عتاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا العتاب في شأن رجل فقير أعمى من الصحابة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، أعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم مرة واحدة، ولما يجبه عن سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكة[١].

فنزل قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أن جَاءهُ الأعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَن اسْتَغْنَى* فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى* وَمَا عَلَيْكَ ألاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (عبس، آية : ١ ـ ١١).

لقد باشر المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد ما تلقى العتاب من ربه في سورة عبس إلى توجيه أنظار الأمة لأهمية رعاية هذه الشريحة من المجتمع فكان على سبيل المثال، يعهد لعبد الله بن أم مكتوم الذي عاتبه فيه ربه ليصلي بالناس أثناء غيابه عن المدينة المنورة في بعض غزواته[٢].

وكان ابن عباس يؤم الناس بعدما فقد بصره وروى البخاري والنسائي أيضاً أن عتبة بن مالك كان يؤم قومه وهو أعمى[٣].

وبعد تعددت صور توجيهات المصطفى صلى الله عليه وسلم لهذه الشريحة "العميان" وللأمة، فكان دوماً يعرض على رفع معنوياتها ويحثها على العمل من خلال تعظيم الأجر لها إذا صبرت واحتسبت ومارست دورها في الحياة دون أن تجعل من هذه العاهة عائقاً وعقبة أمام أخذها لدورها المناسب في المجتمع، فقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم من فقد إحدى عينيه أو كلاهما بالجنة، فقال: «**إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبته فصبر عوضته عنهما الجنة**»[٤].

---

[١] السيرة النبوية للصلابي (١/ ٢٣٩).
[٢] البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٦٠).
[٣] نيل الأوطار (٣/ ١٦٠).
[٤] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٥٢٢١.

وكعادة الصحابة الكرام ما إن رأوا سلوك النبي صلى الله عليه وسلم تجاه هذه الفئة الاجتماعية حتى بدأوا يتسابقون في مد يد العون لها، فقد روى الإمام الأوزاعي رحمه الله عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خرج في سواد الليل فرآه الصحابي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فذهب عمر فدخل بيتاً ثم دخل آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟، قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، قال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرت عمر تتبّع[1]، وكان عمر رضي الله عنه شديد البر لأصحاب العاهات، خاصة العميان، وسار على هذا النهج حكام المسلمين وأهل الخير في الأمة فها هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك "٨٦ ـ ٩٦هـ /٧٠٥ ـ ٧١٥م" يصدر مرسوماً حضارياً راقياً يعبّر عن احترامه لهذه الفئات، فقد أعلن بأن رعاية الفئات الخاصة في المجتمع هي من واجبات الدولة، لذا نجده يأمر بتخصيص قائد لكل أعمى يسهر على راحته، فضلاً عن راتب شهري يغطي نفقاته[2]، كما ثبت عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أمصار الشام: أن ارفعوا إلى كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج، أو من به زمانة "داء مزمن" يحول بينه وبين القيام إلى الصلاة فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمن بخادم[3].

ويروي الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة في رحلته أنه شاهد في بغداد جماعة من العميان يؤمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجري عليه[4].

ولعل تسابق أهل الخير حكاماً ومحكومين على وقف الأوقاف لصالح هذه الفئات الاجتماعية خير شاهد على نضج الحس الاجتماعي للأمة الإسلامية وسمو حضارتها إذ يندر أن نرى بقعة معمورة كانت تفيء بظلال الحضارة الإسلامية لا يوجد فيها وقف لأصحاب العاهات[5].

وقد خصصت الدولة الإسلامية مستشفيات لرعاية المحتاجين، وأفردت غرفاً خاصة في المستشفيات العامة لمداواتهم سريرياً ونفسياً[1]، كما ذكر المؤرخون أنه جاء في نفقات الخليفة

---

[1] صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ١٠٧).

[2] الخطط (٢/ ٤٠٥) للمقريزي.

[3] سيرة عمر ابن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: ١٥٤ ـ ١٥٥.

[4] رحلة ابن بطوطة، ص: ١٠٧.

[5] رعاية الفئات الخاصة، ص: ٦١.

العباسي المعتضد بالله أنه خصص لمستشفى الصاعدي الذي كان قد أسسه القائد صاعد بن مخلد أموالاً للنفقة عليه، لأثمان الأدوية والأطعمة والأشربة لخدمة المغلوبين على عقولهم[٢].

وجاء في وقف أحد المستشفيات المخصصة للأمراض العقلية أن: كل مجنون خصص له خادمان يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح، ويحممانه بالماء البارد ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة[٣].

وقد انتشرت مستشفيات المجانين في كل المدن الإسلامية في بغداد والقاهرة ودمشق وفاس وغيرها، وفي العصر المريني اهتم أبو يوسف يعقوب عبد الحق "٦٥٦ ـ ٦٨٥هـ / ١٢٥٨ ـ ١٢٨٦م" برعاية المجانين، فقد كان ـ حسب ما ورد عن ابن أبي زرع ـ كثير الخير، والرأفة على الضعفاء والمساكين، صنع المارستان للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر بتفقد أحوالهم في الصباح والمساء[٤].

واستمرت عناية الدولة الإسلامية المتعاقبة بالمجانين حتى فترة متأخرة من الدولة العثمانية، فنرى على سبيل المثال بمارستان السلطان العثماني سليمان بن السلطان سليم عاشر سلاطين آل عثمان "ت هـ ٢٢ صفر ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦م" في القسطنطنية، قد خصص لمداواة المرضى وتربية المجانين بأنواع الأشربة والأطعمة والمعاجين[٥]، علماً بأنه كان يخصص لكل مجنون في معظم المستشفيات مرافقاً خاصاً يأخذه باللين والرفق ويصحبه بين الزهور والرياض الخضراء، ويسمعه ترتيلاً هادئاً من آيات الذكر الحكيم[٦].

وتؤكد المصادر أن المسلمين أدركو ما للترويح والتسلية من أثر في إدخال البهجة على المرضى والمصابين بالأمراض النفسية، فكان في بعض المستشفيات على سبيل المثال فرقاً للإنشاد تقوم بإنشاد الأناشيد الجميلة للترفيه عن المرضى الذين لا يستطيعون النوم[٧].

---

[١] الخطط والآثار للمقريزي (٢/ ٤٠٥).
[٢] الوقف ودوره في التنمية عبد الستار الهيتي، رعاية الفئات، ص: ٧٠.
[٣] خطط الشام/ محمد كرد علي (٦/ ١٦٥، ١٦٦).
[٤] روض القرطاس لابن أبي زرع، ص: ٢٩٨.
[٥] من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص: ١١٢.
[٦] المصدر نفسه، ص: ١١٢. رعاية الفئات الخاصة، ص: ٧٢.
[٧] من روائع حضارتنا، ص: ١١٢.

وفي بعض الأحيان كان يعزل المؤرقين في قاعات منفردة عن بقية المرضى حيث تشنف آذانهم بالأصوات الندية فضلاً عن تسليتهم بالأقاصيص التي يلقيها عليهم القصاص، إلى جانب مشاهدة بعض التمثيليات المضحكة، وكان أيضاً المؤذنون في المسجد الملاصق للمستشفى يؤذنون في السحر قبل ميعاد الفجر بساعتين، وينشدون الأذكار بأصوات ندية من أجل تخفيف الألم عن المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت[١].

وكان المسلمون يهتمون بأثر العوامل النفسية في معالجة المرضى، وخاصة المصابين بالأمراض النفسية، لذا نجد أهل الخير والإحسان يبادرون إلى وقف الأوقاف لخدمة هذا الهدف الإنساني السامي، فقد أوقف أحد المحسنين في مدينة طرابلس اللبنانية وقفاً يخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يومياً فيتحدثان بجانب المرضى حديثاً خافتاً ليسمعه المريض بما يوحي له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه[٢]. وكما هو معلوم فقد ثبت علمياً اليوم بأن روح المعنوية لها أثر كبير على حالة المريض، فالمريض الذي يتمتع بروح معنوية عالية يتعافى أسرع من المريض الذي يتصف بضعف المعنوية[٣].

وأما أصحاب الأمراض المزمنة والخطيرة، ممن ليس لهم أقارب يقومون بأمرهم، فقد وجدت الكثير من الأوقاف في مختلف المدن الإسلامية لخدمة هذه الشريحة الاجتماعية فقد خصص الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على سبيل المثال مصحات لمرض الجذام لرعايتهم والإنفاق عليهم ومنعهم من الاحتكاك بالناس[٤].

وأوقف في تونس أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبي العباس الحفصي " ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م" بيمارستان للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين وأوقف على ذلك أوقافاً كثيرة[٥].

وكان الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، يفرض للزمني من بيت مال المسلمين فريضة الصحيح لكفاية حاجته، وقد بدأ لأحد ولاة عمر في دمشق ألا يكون لهؤلاء فريضة كاملة

---

١ المصدر نفسه، ص: ١١٢.
٢ المصدر نفسه، ص: ١١٣.
٣ رعاية الفئات الخاصة، ص: ٧٣.
٤ تاريخ البيمارستانات، أحمد عيسى بك، ص: ٢٧٨.
٥ تاريخ البيمارستانات، ص: ٢٨٠.

كفريضة الصحيح، فقال في رده على الخليفة: الزمن ينبغي أن يحسن إليه، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا، فكتب عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك كتابي هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم[1]، ويستند عمر بن عبد العزيز في فعله هذا على ما كان في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي كتب إلى عامله المعين على مصر الأشتر النخعي بوصية بأن يعتني بأهل الزمانة والمرضى، حيث قال: ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمني، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً، وأحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه ولا يشغلنك عنهم بطر ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعاية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه[2].

وتعهد أهل اليتيم، وذوي الرمة في السن ممن لا حيلة له.. ثم احتمل الخرق منهم والعيي وانح عنهم الضيق والأنف يبسط عليك الله بذلك أكناف رحمته[3] إن التعاليم الإسلامية قدمت برنامجاً شمولياً لرعاية الفئات الخاصة، فقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واضحة جلية في إلزام الأمة برعايتهم والأخذ بيدهم ودمجهم في المجتمع.

ذوي الاحتياجات الخاصة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

الدولة الحديثة تهتم بمواطنيها من ذوي الاحتياجات الخاصة وتوفر الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسية لهم وتعمل على:

- تتبنى إستراتيجية وطنية بهدف تطوير سياسات وخدمات الرعاية والتأهيل وذلك بالتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية ذات الصلة.

---

[1] الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).
[2] شرح نهج البلاغة نقلاً عن رعاية الفئات الخاصة، ص: ٧٥.
[3] رعاية الفئات الخاصة، ص: ٧٥.

ـ الارتقاء بالوعي العام لدى المجتمع بأفراده ومؤسساته وزيادة الفهم حول حقوق والتزامات وإمكانيات الأفراد ذوي الاحتياجات الخاصة، والعمل على إتاحة الفرص الكافية والملائمة لهم وذلك لتحقيق مشاركتهم الكاملة في كل الجوانب الحياتية.

ـ ضمان حصول ذوي الاحتياجات الخاصة على أدوات وخدمات الاتصال والمعلومات وفرص التعليم الملائم وفق قدرتهم واحتياجاتهم ومشاركتهم في الأنشطة الرياضية والترفيهية.

ـ تدعيم كافة القطاعات ذات الصلة بذوي الاحتياجات الخاصة بالإمكانات المادية والبشرية اللازمة للقيام بمهامها.

ـ وضع بنية معلوماتية تجمع كافة البيانات والمعلومات الخاصة بعدد ذوي الاحتياجات الخاصة في الدولة، وكذلك المؤسسات العالمة في مجال الإعاقة ومراعاة أن تكون تلك المعلومات دقيقة وشاملة ومتكاملة ودائمة المراجعة والتحديث باسلوب علمي منهجي متكامل.

ـ سن التشريعات ذات الصلة بذوي الاحتياجات الخاصة بحيث تتضمن آليات تطبيق وتنفيذ فعالة ومضمونة لحماية حقوقهم وتطوير القائم من تلك التشريعات.

ـ تهيئة بيئات خالية من المعوقات والموانع في المباني والطرق ووسائل الانتقال والأماكن العامة كمتطلب هندسي في التصميم والتخطيط مع العمل على إصلاح وترميم البيانات والوسائل المستخدمة من قبل الجمهور كلما أمكن ذلك.

ـ تبني برامج ومنهجية واضحة بهدف الوقاية من الإعاقة والرعاية الصحية وتحسين الظروف الصحية والإجراءات الوقائية من الأمراض والحوادث التي تتسبب في الإصابة بالإعاقة وذلك عن طريق الرعاية الصحية الأولية والوقائية والتعليم العام.

ـ التأهيل والتدريب والتشغيل لذوي الاحتياجات الخاصة بهدف تحقيق أعلى مستوى ممكن من الاستقلالية لهم ولأسرهم.

ـ تدعيم أواصر التعاون الإقليمي والدولي من خلال تأسيس نظم وآليات ربط لشبكات فعالة للمشاركة وتبادل المعلومات والمصادر والخبرات حول قضايا الإعاقة وذوي الاحتياجات الخاصة على الصعيدين الإقليمي والدولي.

٨ ـ البيئة:

حرص الإسلام على حماية البيئة بكافة مكوناتها وذلك بإنشاء تصور كامل للحياة ونظامها وما تتطلبه من نهضة أو تطور وفق قواعد ثابتة لا تتغير ولا تتبدل مع تغير الزمان والمكان، وهذا ما يعطي المبادئ البيئية الإسلامية صفة الصلاحية التي تحقق لأفرادها السعادة والرخاء في الدنيا والآخرة، والمبادئ الإسلامية للبيئة لم تكن ضرباً من الخيال ولا أسطورة من أساطير اليونان والرومان وإنما هي جزء من الفطرة التي فطر الله عليها الناس، في توجه صادق إلى خالق الخلق كله، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الروم، آية : ٣٠).

فالطبيعة بما فيها من موارد هبة الله لعباده من ماء وتربة وشمس وهواء، فمن حق الإنسان في هذا المجتمع أن تحفظ له ـ إن أمكن ـ هذه الموارد الطبيعية التي ساقها الله تعالى إليه، غير أن الحضارة الحديثة رغم خدماتها وإنجازاتها التي لا تنكر جرّت على الجسد البشري ويلات كثيرة، سوى إصابات العمل التي سلف ذكرها، منها تلوث البيئة.

فالبيئة هي المنزل وما يحيط بالفرد أو المجتمع ويؤثر فيهما، يقال: بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية، والمقصود هنا الأول ـ الطبيعة ـ[١] التي هي مدار حديثنا، وأما التلوث فهو التلطخ، وتلوث الماء أو الهواء ونحوه، خالطه مواد غريبة ضارة[٢].

والإسلام دعا إلى سلامة البيئة وإفسادها على الناس، والنبي صلى الله عليه وسلم أكد هذه المعاني، بدعوته إلى تطهير البيئة من المفاسد التي تلوثها منها:

---

[١] المسؤولية الجسدية في الإسلام، عبد الله إبراهيم، ص: ٣٧٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٧٤.

أ ـ النهي عن البول في الماء الراكد:

الماء نعمة من الله تعالى خلقه ليشرب منه الناس، ويغسلون ويسقون حيواناتهم ومزروعاتهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء، آية : ٣٠).

هذه النعمة ـ الماء ـ تنقلب إلى ضرر محض إذا عبثت به يد الإنسان بالتلوث، وكم من الأمراض تنشأ من المستنقعات ذات المياه الملوثة، لذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تلويث الماء سيما الراكد منه، فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه نهى صلى الله عليه وسلم أن يبال في الماء الراكد[١]، لأن الجاري متغير متبدل لا تتحقق فيه علة الضرر ـ التلويث ـ على الكائنات الحية بخلاف الراكد.

ب ـ تطهير المساجد وتطبيقها:

تجمع تعاليم الإسلام بين الحرص على النظافة واللين والمسامحة، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «مه مه»[٢]، قال صلى الله عليه وسلم: «**لا تزرموه**»[٣]، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن**»، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه[٤]، فلا شك أن هذا الأعرابي الحديث عهد بالإسلام لم يكن يقيم وزناً للبيئة، ولم يعرف تعاليم الإسلام بعد، فبال في أطهر مكان وأكرم بيئة بعد بيت الله الحرام، فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أن المساجد لا يليق بها هذا الأمر، غير منفر ولا مفنّد ولما كان فرش المسجد النبوي الشريف الحصا فإن صبّ بعض الماء على البول يكفي، كما أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن تلويث المسجد بالبزاق ونحوه، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

[١] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٨١.

[٢] مه: اسم فعل أمر بمعنى أكفف يفيد الزجر.

[٣] زرم: قطع: أي لا تقطعوا عليه بوله.

[٤] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٢٨٥. شنه: صبه متفرقاً.

«عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط[1] من الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة[2]، تكون في المسجد لا تدفن»[3]، بل أمر بتنظيف المساجد وتطييبها، فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيّب[4].»

ج ـ نظافة الطرق والمرافق العامة:

إن أكثر الأماكن التي يرتادها الناس الطرق العامة وموارد المياه وأماكن الجلوس، كالظل ونحوه، لذا حذر الإسلام من تلويثها خاصة فإن ذلك يكون إيذاء للناس من جهة، لأنها أماكن لا غنى لهم عنها، ومجلبة للعن فاعله من جهه ثانية، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»**[5].

فلا شك أن تلويث هذه الأماكن أكثر ضرراً من غيرها، فالناس يكثرون فيها فيحصل الضرر، لذا كان التحذير منفراً واصفاً الفعل بأنه مجلبة محصنة للعن الناس وشتمهم لأن الطباع السليمة تنفر من ذلك فضلاً عن تلويث البيئة ويمكن أن يقاس على ذلك من يدخن في الصالات العامة والحافلات والأماكن العامة، لأنه إنشاء لأذى وضرر في أماكن يرتادها الناس، فيفسد البيئة ويستجلب لنفسه اللعن[6].

د ـ عدم حجب الريح عن الجار:

لقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أن الهواء الطلق من حق الإنسان أن يشمه ولا يجوز أن يحجب عنه بحال، فقال مخاطباً الجار في حسن الجوار: **«ولا تستظل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه»**[7]. فهذا الحديث إرشاد للجار، وإشارة إلى أن الهواء من حق الإنسان لا يجوز حجبه عنه إلا بإذنه، ويلحق بذلك أشعة الشمس لأنها أكثر أهمية في بعض البلدان والأماكن

---

[1] يماط: ينحى ويبعد.
[2] النخاعة: البلغم يخرجه الإنسان من حلقه.
[3] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ٥٥٣.
[4] سنن أبي داود، الحديث رقم: ٤٥٥.
[5] سنن أبي داود، الحديث رقم: ٢٦.
[6] المسؤولية الجسدية في الإسلام، ص: ٣٧٧.
[7] كنز العمال (٩/ ٢٤٩٣٢). المسؤولية الجسدية، ص: ٣٧٧.

والفصول فالهواء والشمس من عناصر البيئة الطبيعية، لا يجوز التفريط بهما وإذا كان حجب الريح عن الجار مرفوض، فمن باب أولى ألا يضع القمامة أمام داره، أو أن يرفع صوت المذياع والمسجل والتلفاز، فيؤذيه بالصخب، وأن لا يفتح على داره فوهات دخان الحمامات والمطابخ، فكل ذلك يندرج تحت قوله صلى الله عليه وسلم: **«لا ضَرر ولا ضِرار»**[1]، ومما تقدم تبيّن لنا حرص الإسلام على البيئة، ففي نظافتها ونقائها طيبة النفوس، وسلامة الأجساد، ولما كان الغراس والزرع يزيد البيئة نضارة وجمالاً حث عليه الإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»**[2].

***- الملوثات الحديثة للبيئة:**

كانت ملوثات البيئة في الماضي ساذجة ويسيرة، وقد توسعت في العصر الحديث نتيجة الثورة الصناعية، فجاء بعضها مؤثراً على السمع كالصخب أو ملوثاً للهواء كالدخان والغازات وبعضها الآخر مشوهاً للأجساد، كالتلوث الإشعاعي، ومنها ما يبعث الروائح الكريهة وينقل الجراثيم وهي الملوثات بالفضلات الآدمية كالقمامة وغيرها.

- الصخب وأثره على السمع:

هناك صخب يشوه البيئة ويعكر صفوها ويصم الآذان معرضاً إياها للصمم أحياناً مثل: أزيز الطائرات، وأصوات السيارات، ومحركات المصانع، وطنين المراوح وأجهزة تكييف الهواء، وصفير الراديو والتلفاز، فهذا الصخب الدائم الضوضاء يتسبب في انكماش الأوعية الدموية، وشحوب الجلد، وانقباض العضلات، ويندفع "الأدرونالين" في مجاري الدم، حيث يحدث توتراً عصبياً.

- التلوث بالدخان والغازات:

إن دخان المصانع والقطارات وغاز السيارات العادم واحتراق الغابات، وتقلص الأشجار الخضراء، ضربة خطيرة للجسد البشري، عندما أحدث تلوث الهواء الذي هو بأمس الحاجة

---

[1] الموطأ، مالك ابن أنس، الأشباه والنظائر للسيوطي قاعدة رابعة.

[2] أخرجه مسلم، الحديث رقم: ١٥٥٣.

إليه غير أنه يمكن الحد من هذا التوث بالعمل على توسيع الرقعة الخضراء، وذلك بغرس الأشجار[1].

ـ التلوث الإشعاعي:

إن المخلفات بلاء على البشرية وخطر عظيم على الجسد البشري، يشوهه إذا لم يفنيه، إذا أهملت ولم يمكن التخلص منها، لذا يجب أن توضع في أوعية لا تتآكل أو تصدأ حيث لا توجد كائنات حية، وحيث لا تكشفها الظواهر الجيولوجية كالزلازل فتعيدها للوجود.

ـ التلوث بالفضلات الآدمية:

من المعلوم أن القمامة لها أثر سيىء على البيئة، فمنها تنبعث الروائح الكريهة والجراثيم المختلفة والناقلة للأمراض، وكل ذلك يصل إلى الجسد البشري عن طريق الهواء وغيره، ويمكن التخلص من التلوث بهذه بأن توقد في مراجل المصانع، فبذلك يتخلص بها من جهة، ويستفاد منها كطاقة من جهة ثانية.

كما أن مجاري المياه ـ البواليع ـ تشكل خطراً لا يقل عن خطر القمامة، وإن لم يكن أكثر، فهي تفسد البيئة أيمّا إفساد إذا لم يحسن إحكامها وتصريفها، فإذا تجمعت في منخفض من الأرض شكلت مستنقعات من الجراثيم الناقلة للأمراض وإذا ما سلطت هذه على مياه الأنهار أو البحار كان التلوث المائي أيضاً، والأحسن في ذلك سقاية المزروعات بها مع الحذر الشديد، وإشراف أهل الخبرة الزراعية والصحية على ذلك لأن الحاصل من تلوث الماء هو عين ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في الحديث "البراز في الموارد". والأحسن من ذلك كله أن تعالج هذه المياه لتخليصها من الميكروبات الضارة الناقلة للأمراض والمواد السامة[2].

هذه بعض الملوثات الأساسية للبيئة: الصخب والدخان والغازات السامة، والإشعاع الذري، والفضلات الآدمية وغيرها كثير، إنما اقتصرت في الدراسة على هذه الأنواع لأنها أكثر شمولية وأشد خطراً على الجسد البشري من غيرها فهناك التلوث بالنفايات النفطية، من جراء غسل وتنظيف ناقلات النفط في البحار، وهناك التلوث المعدني والكيماوي الناشىء عن إلقاء

---

[1] المسؤولية الجسدية في الإسلام، ص: ٣٨٣.
[2] المصدر نفسه، ص: ٣٨٥.

فضلات المصانع الكيماوية والبتروكيماوية، ومصانع الفولاذ على السواحل والتي تلقى في مياه البحار أيضاً، كما يجب أن لا يفوتنا خطر الأسلحة الحديثة الملوثة للجو المشوهة للأجساد فهي الخانقة أحياناً، والقاتلة أحياناً أخرى والتي لا يقف خطرها عند حدود الجيوش العسكرية، بل تتعداهم إلى عامة الناس، ولا تزال آثار التشوه النووي لدى اليابانيين من جراء تفجير القنبلة الذرية عام ١٩٤٥م على هيروشيما وهذه الأسلحة مثل:

ـ الأسلحة النووية، كالقنابل الذرية والهيدروجينية والنيتروجينية.

ـ الأسلحة الكيماوية، كالغازات الحربية والمواد الحارقة "كالنابالم" والمواد الدخانية.

ـ الأسلحة البيولوجية، وهي تستخدم في صور مستحضرات بيولوجية سائلة أو جافة من الميكروبات المعدنية، أو استخدام الحشرات الناقلة للأمراض وسيلة لنقل الميكروبات[١].

البيئة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تعمل الدولة الحديثة على تأسيس مجتمع متميز بالوعي البيئي وقادر على حماية البيئة وتوازنها الطبيعي تحقيقاً للتنمية الشاملة، والمستدامة لكل الأجيال، فمن أهداف الدولة في موضوع البيئة:

ـ الحفاظ على البيئة مسؤولية الدولة، والمواطن على حد سواء.

ـ وضع منظومة من التشريعات الصارمة التي تكفل الحفاظ على البيئة وتضمن توافق كافة المنشآت والأنشطة للمعايير العالمية في الحفاظ على البيئة.

ـ أن يكفل التخطيط العمراني تظل كافة الأنشطة الصناعية الرئيسية والمغذية الضارة بالبيئة إلى خارج نطاق الحيز العمراني.

ـ تفعيل دور الدولة على صعيد الحفاظ على البيئة على المستوى الدولي، وذلك من خلال الانخراط في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية ذات الصلة.

ـ تشجيع الجمعيات والمنظمات الأهلية على الانخراط في المشاريع ذات الصلة بالحفاظ على البيئة.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٣٨٦.

ـ تشجيع الاستثمارات في قطاعات الطاقة النظيفة والمتجددة.

ـ سن التشريعات اللازمة لتنظيم الاستخدام المستدام للمياه.

ـ تبني خطة عملية منهجية لإجراء بحوث وقياسات، ووضع مبادئ توجيهية لإدارة ارتفاع منسوب المياه الجوفية بالدولة.

ـ وضع نظم لرصد نسب التلوث الناجمة عن حرق الغاز وكافة مصادر الطاقة الأخرى، والحد من الانبعاث الحراري.

ـ إنشاء قاعدة بيانات وإدارات متخصصة للتخفيف من حدة الملوثات غير الصحية المحولة جواً.

ـ وضع مبادئ توجيهية لتشجيع سياسية إعادة تدوير المخلفات التي تنتجها المؤسسات التجارية والصناعية.

ـ زيادة المساحات الخضراء وإنشاء أحزمة خضراء حول المدن من الأشجار المعمرة.

ـ إعداد ومراقبة وتطبيق المقاييس واللوائح ذات الصلة بجودة الهواء والمحافظة على البيئة البحرية واستخدام المياه وتنقيتها ومنع تلوث الأراضي، وزيادة مساحات استصلاحها والحد من الضوضاء.

ـ المحافظة على الصحة العامة من خطر استخدام النفايات والمواد المشتعلة والمؤينة والخطرة والمتفجرة والملوثة.

ـ الشراكة بين القطاعين العام والخاص وصولاً إلى المشاركة في الحفاظ على البيئة.

ـ مكافحة التلوث وترشيد استخدام الموارد الطبيعية في الزراعة والصناعة من أولويات السياسة البيئية للدولة.

ـ تمكين الدوائر والهيئات الحكومية من إدارة البيئة وذلك من خلال تطوير اللوائح والأنظمة التي تكفل مراقبة أنشطة القطاع الخاص الضارة بالبيئة حال وجودها.

ـ إنشاء إطار قانوني للبيئة ينظمها ويعمل على حمايتها في جميع القطاعات العاملة في الدولة وبخاصة قطاع البناء والتشييد والنقل والمواصلات والطيران والصحة والسياسة والطاقة والنفط والغاز والصناعة وغيرها.

ـ إعداد إستراتيجيات بحماية البيئة ووسائل لحمايتها ومراقبة وتحليل أي أنشطة ضارة بها في شتى المجالات كالهواء والمياه والضوضاء والنفايات.

ـ بناء مؤسسات بيئية فعالة ومتطورة تقوي الإحساس العام بأهمية وسلامة البيئة وتستخدم أحدث التقنيات للحفاظ عليها، على أن تقوم تلك المؤسسات تنظيم برامج توعية بيئية ووضع خطط خاصة لحماية البيئة وإجراء البحوث المتعلقة بذلك.

ـ دعم الجهود الدولية للتقليل من الآثار الضارة للتغير المناخي، والعمل على خفض الانبعاث الحراري.

٩ـ الصحة:

الإنسان يكون صحيحاً إذا كان على الحال التي خلقها الله عليها في بدنه وروحه، فإذا خرج عن الحال التي فطر الله العباد عليها اعتل بدنه واعتلت روحه، واحتاج إلى معالجة حتى يتعافى بعودته إلى الخلقة السوية وخير ما تعالج به الأمراض القرآن الكريم، وقد دل على أن القرآن شفاء نصوص من القرآن الكريم:

ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس، آية : ٥٧). أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من دنس[١].

ـ وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء، آية : ٨٢). يقول تعالى عن كتابه الذي أنزل على محمد وهو القرآن

---

[١] تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٩).

الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن الكريم يشفي من ذلك كله[1].

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت، آية : ٤٤).

والقرآن الكريم ينفرد بمعالجة أمراض النفوس والقلوب دون سواه وعملية إصلاح النفس البشرية أطلق عليها القرآن "تزكية النفس" وعملية إفساد هذه النفس سماها "بتدسية النفس" وأقسم الحق سبحانه وتعالى أقساماً سبعة في مطلع سورة الشمس على أن المفلح من زكى نفسه، والخائن الخاسر من دساها، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا *وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس، آية : ١ ـ ١٠).

وقال في موضع آخر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ (الأعلى، آية : ١٤). وقال لموسى عندما أرسله إلى فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾(النازعات، آية : ١٧ ـ ١٩).

ولما كان القرآن هو طب القلوب ودواؤها وبه تتحقق تزكية النفوس والأرواح، فإنه بمثابة الروح لأرواحنا والنور لبصائرنا : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ

---

[1] المصدر نفسه (٤/ ٣٤٣).

تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى، آية : ٥٢).

فقد وصف الله عز وجل الوحي بوصفين: الأول: أنه روح، والثاني: أنه نور، وبالروح تكون الحياة وبالنور تكشف الظلمات، ولذا فإن الله يحيي بهذا القرآن من ماتت قلوبهم وعميت بصائرهم بالكفر والضلال " أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا" (الأنعام، آية : ١٢٢).

وأمراض القلوب التي أنزل القرآن شفاء لها نوعان: أمراض شبهات تجعل الإنسان في حيرة وقلق وضياع، وأمراض شهوات، فأمراض الشبهات مذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ (البقرة، آية : ١٠).

وأمراض الشهوات مذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحزاب، آية : ٣٢).

وهذان النوعان من أمراض القلوب أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، وشقاؤه في معرفته لربه واستقامته على طاعته، والبعد عما نهى عنه وحذر منه، إن أكثر أمراض النفوس تأتي من الشيطان والنفس الأمارة بالسوء فالشيطان يستعين على بلوغ غرضه من الإنسان بالنفس الأمارة بالسوء وليس من طريق للخلاص من الشيطان إلا بالالتجاء إلى الله وقد علمنا الله أن نلجأ إليه دائماً ونحتمي من نزغات الشيطان[١].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون، آية : ٩٧ ـ ٩٨).

---

[١] دراسات فقهية في قضايا طبية (١/ ١٣)، عمر الأشقر، محمد عثمان شبير، د. عارف علي عارف.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾ (الناس، آية : ١ ـ ٦).

أ ـ من يذهب إلى أن النصوص عامة في أمراض القلوب والأبدان:

ويذهب جمهور علماء أهل السنة إلى أن النصوص المقررة لكون القرآن شفاء عامة في أمراض القلوب والأبدان، وفي ذلك يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء ، آية : ٨٢).

والصحيح أن (مِنَ) هنا لبينان الجنس لا التبعيض، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس ، آية : ٥٧).

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدوار القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ويوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه لم يقاومه الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب، والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحماية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه[١].

ب ـ الأدلة على أن القرآن شفاء لأمراض الأبدان:

وعلى كل فسواء أكانت النصوص القرآنية المقررة لكون القرآن شفاء خاصة بأمراض القلوب أو شاملة لها ولأمراض الأبدان، فقد قامت أدلة كثيرة على أن القرآن شفاء لأمراض الأبدان، ومن هذه الأدلة:

- ـ ثبت أن القرآن يطهر الأرواح ويباركها ويصلحها، وإذا صلحت الأرواح كان في صلاحها صلاح للأبدان، يقول ابن القيم: قد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفوس

---

[١] زاد المعاد (٣ / ١٧٨).

والطبيعة تعاونا على رفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به، وجهاً له، وتنعمها بذكره وإنصراف قواها كلها إليه وجمعها عليه واستعانتها به، وتوكلها عليه أن يكون لها ذلك من أكبر الأدوية، وتوجب لها هذه القوة رفع الألم بالكلية[١].

- ـ ثبوت معالجة الرسول صلى الله عليه وسلم بالرَّقي وإرشاد أصحابه إلى المعالجة به والرقية كما يقول ابن الأثير: العودة التي يُرقي بها صاحب الآفة، كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات[٢].

  ويقول القرافي في تعريفها: الرقى ألفاظ خاصة يحدث عندها الشفاء من الأسقام والأدواء والأسباب المهلكة، ولا يقال لفظ رقى على ما يحدث ضرراً بل ذلك يقال له: السحر[٣].

والأحاديث التي تدل على مشروعية الرقي متواترة تواتراً معنوياً، فهي وإن اختلفت ألفاظها ووقائعها إلا أن كل واحد منها يدل على مشروعية الرقي.

وقد يقال: نعم صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم عالج المرض بالرقي، وأرشد أصحابه إلى المعالجة بها ولكن هذه في الرقية بغير القرآن.

والجواب على هذين من وجهين:

- ـ إذا ثبت أن الرقي عامة ممّا يشفي من الأمراض والأسقام فإن كلام الله أفضل ما يقري به، لأن له من الخصائص ما ليس بغيره، وفي ذلك يقول ابن القيم ـ فيما نقله عنه ابن حجر العسقلاني: إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع فما الظن بكلام رب العالمين[٤].

  وقراءة القرآن من أنفع الأدوية للأدواء التي يسببها الجان، أو يكون له دخل في الإصابة بها، كتلبس الجان بالإنسان، والسحر والعين والحسد ونحوها.

---

[١] زاد المعاد: (٣: ٦٦).
[٢] النهاية في الغريب الحديث (٢ / ٢٥٤).
[٣] الفروق (٤ / ١٤٧).
[٤] فتح الباري (١٠ / ١٩٨).

- ـ صح في الأحاديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم رقى بكتاب الله، كما صح أنه أقر من رقى بكتاب الله، ففي صحيحي البخاري ومسلم والموطأ والسنن لأبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث[١].

وفي سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ ويقول: «**أعوذ بالله من الجان، ومن عين الإنسان**». فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما[٢].

وصح في صحيحي البخاري ومسلم والسنن لأبي داود والترمذي أن رجلاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رقى رجلاً كان سيداً في قومه من لدغة حية أو عقرب بفاتحة الكتاب، فشفاه الله وأخذ على رقيه أجراً، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأقره على رقيته وعلى ما أخذه من أجر على رقيته[٣].

وأورد صاحب جامع الأصول حديثاً آخر رواه أبو داود ذكر فيه أن صحابياً رقى معتوهاً في القيود بفاتحة الكتاب فشفاه الله وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقره على رقيته وعلى ما أخذه من أجر عليها[٤].

*ـ وممّا يدل على صحة التشافي بالرقي وأعظمها الرقى القرآنية أنه ثبت بما لا يقبل الشك أن الرقي ذات تأثير على أمراض الأبدان، وهذا أمر مشاهد في كل عصر ومصر، يقول ابن حزم: جربنا من كان يرقي الدمل الحاد القوي الظهور في أول ظهوره، فيبدأ من يومه ذاك بالذبول، ويتم يبسه في اليوم الثالث، ويقلع كما تقلع قشرة القرحة إذا تم يبسها جربنا ذلك ما لا نحصيه، وكانت هذه المرأة ترقي أحد دملين قد دفعا على إنسان واحد، ولا ترقي الثاني، فييبس الذي رقت، ويتم ظهور الذي لم ترق،

---

[١] جامع الأصول (٧/ ٥٦٢).
[٢] المصدر نفسه، (٧/ ٥٦٣).
[٣] المصدر نفسه (٧/ ٥٦٦ ـ ٥٦٨).
[٤] المصدر نفسه (٧/ ٥٦٩).

ويلقى منه حامله الأذى الشديد، وشاهدنا من كان يرقى الورم المعروف بالخنازير، فيندمل ما يفتح منها، ويذبل ما لم ينفتح، ويبرأ[1].

وقد ثبت في صحيح الأحاديث أن الذين رَقوا بالقرآن شفى الله على أيديهم من رقوه[2].

- **ـ الاستشفاء بالقرآن ليس قصراً على الرقية به:**

ما قرره الحق تبارك وتعالى من كون القرآن شفاء ليس قصراً على قراءة القرآن على المريض، بل هي دائرة أوسع من ذلك بكثير، ويمكننا أن ندرك سعة هذه الدائرة من خلال الأمور الآتية:

الأول: دلالة القرآن على قواعد العلاج وأصوله:

حوت النصوص من الكتاب والسنة الأصول والقواعد التي تدل على كيفية معالجة الأبدان، بل دلت على تفاصيل مهمة في علاج الأمراض وفي ذلك يقول ابن القيم، قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية على المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة، وذكر المولى تبارك وتعالى هذه الأصول الثلاثة في ثلاثة مواضع.

ـ فقال في آية الصوم: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة ، آية : ١٨٥).

فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلباً لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم في السفر لاجتماع شدة الحركة، وما يوجبه من التحلل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفاظاً لصحته وقوته عما يضعفها.

ـ وقال في آية الحج: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة ، آية : ١٩٦). فأباح للمريض، ومن به أذى من رأسه من قمل

---

[1] الفصل في الملل والأهواء (٢/ ٤).
[2] دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة (١ / ١٧).

أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه، ففتحت المسام، فخرجت بتلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشر: الدم إذا هاج، والمني إذا سيغ، والبول، والغائط، والريح، والقيء، والعطاس، والنوم، والجوع والعطش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها، وهو البخار المحتقن في الرأس على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحمية فقال في آية الوضوء: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء ، آية : ٤٣).

فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية من كل مؤذ له من داخل أو خارج[١].

وقد عقب ابن القيم على كلامه هذا الذي نقلناه عنه بقوله: فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده[٢].

وقد أطال ابن القيم بعد ذلك في ذكر هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الطب والمعالجة في نفسه وأهله وأصحابه، وذكر في ذلك هديه في الأمر بالتداوي في معالجة استطلاق البطن، والطاعون، وداء الاستسقاء، وهديه بالمعالجة بالعسل والحجامة والكي، وهديه في معالجة الصرع وغير ذلك مما يجعل ما أورده فيه مؤلفاً مستقلاً بذاته.

الثاني: الطب الوقائي في الكتاب والسنة:

---

[١] زاد المعاد بتصرف يسير (٣ / ٦٤).
[٢] المصدر نفسه (٣ / ٦٤).

والنوع الثاني الذي يوسع دائرة الاستشفاء بالقرآن هو الطب الوقائي الذي يستفاد من جملة الأحكام والتوجيهات التي جاء بها القرآن وصحيح الأحاديث، وهذا باب واسع، فالنصوص الآمرة بالطهارة والنظافة كثيرة جداً، بل إن طهارة البدن عبادة لا تتم الصلاة بغيرها فقد أوجب الله الاغتسال من الجنابة، كما أوجب الغسل على المرأة إذا طهرت من حيضها ونفاسها، وحبب الرسول صلى الله عليه وسلم الاغتسال في كل جمعة، ولم يكتف بذلك بل أوجب الوضوء كلما أراد الصلاة إذا خرج منه بول أو غائط أو ريح، والوضوء يشمل غسل الأعضاء الظاهرة من الوجوه والأيدي والأرجل، كما أمر بمسح الرؤوس. وأمرت النصوص بغسل اليدين عند الاستيقاظ من نوم الليل، وحببت غسلهما عند الطعام، وأمرت بالاستنجاء من البول والغائط، وهي عملية يطهر المسلم فيها مخرج البول والغائط بعد خروجهما منه، وأمرت الشريعة المباركة بقص الأظافر وقص الشارب ونتف شعر الإبط وحلق شعرالعانة، كما أوجبت الختان في حق الذكور.

وحثَّ الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً على تطهير الفم بالسواك، وأخبر أنه مطهرة للفم مرضاة للرب، وكما حثَّ أيضاً على نظافة المساكن وأفنية البيوت، وأمر برفع الأذى عن الطريق، وجعله إحدى خصال الإيمان، ونهى أشد النهي عن إيذاء المسلمين في طرقاتهم وأماكن جلوسهم وموارد مياههم.

ونهى النبي صلى الله عليه وسم عن دخول البلاد الموبوءة بالأمراض المعدية، ونهى من كان في تلك الديار عن الخروج منها، وهذه أفضل وسيلة لمنع انتشار الأمراض والأوبئة التي تنتقل بالعدوى السريعة، وهذا ما يسمى اليوم بالحجر الصحي.

وشرع لنا تناول الطيبات من الأطعمة والأشربة، ونهانا عن تناول الخبيث منها، ونهانا عن الإسراف في تناول الطعام والشراب، وحرم علينا الأكل من الميتة والدم ولحم الخنزير، كما نهانا عن الخمر والمخدرات وشرع لنا الزواج ونهى عن الزنا واللواط.

ومن تتبع ما جاء به الإسلام مما يقيم صحة الإنسان، ويحفظ بدنه، ويدفع عنه الأسقام فإنه يجد منهاجاً كاملاً يحفظ الله به الإنسان من كثير من الأسقام، وقد استقرأ علماء الشريعة التشريعات

التي جاء بها الكتاب والسنة فوجدوا أن الشريعة وضعت لجلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم، ووجدوا أن تشريعات هذا الدين تتجه كلها إلى أن تحفظ على الناس دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم[١].

الثالث: علوم الطب من فروض الكفاية:

اعتبر علم الطب من العلوم المهمة في الحياة البشرية، وبتطبيقه كثير من المصالح العظيمة والمنافع الجليلة، التي منها حفظ الصحة ودفع ضرر الأسقام والأمراض عن بدن الإنسان، فيتقوى المسلم بذلك على طاعة ربه تعالى ومرضاته.

ولابد للمجتمع من وجود الطبيب، وتختلف حاجته إليه بحسب اختلاف الظروف والأحوال، وإذا لم تسد حاجة المجتمع إلى الأطباء، فإن حياة الناس وأرواحهم ستكون مهددة بخطر الأمراض وجراحات الحروب والحوادث التي تفضي بهم إلى الموت والهلاك في الغالب.

ولما كانت شريعتنا الإسلامية مبنية على الرحمة بالخلق ودفع المشقة والحرج عنهم في التكاليف والتشريعات التي جاءت بها، فإنها راعت تلك الحاجة التي لابد من سدها في المجتمعات المسلمة، فأجازت تعلم الطب وتعليمه[٢].

قال النووي رحمه الله: وأما العلوم العقلية، فمنها ما هو فرض كفاية كالطب والحساب المحتاج إليه[٣].

وقال الغزالي رضي الله عنه: ولا يستبعد عد الطب والحساب من فروض الكفاية، فإن الحرف، والصناعات التي لابد للناس منها في معايشهم كالفلاحة فرض كفاية، فالطب والحساب أولى[٤].

فقوله: المحتاج إليه: فيه دليل على أن الحكم بفرضية الطب على الكفاية إنما هو مبني على وجود الحاجة إليه، ولا شك في أن هذه الحاجة موجودة في كل زمان ومكان[٥]، ولكنها تتفاوت في قدرها على حسب تفاوض الظروف والأحوال، وفقهاء الإسلام وأئمته الأعلام نجدهم ينصون في كتبهم على حكم فرضية تعلم الطب على الكفاية، بل لم يقف الأمر عند ذلك، وإنما

---

[١] دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة (١ / ١٨ - ٢١).
[٢] أحكام الجراحة الطبية، د. محمد الشنقيطي، ص: ٧٣ - ٧٤.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٧٤.
[٤] المصدر نفسه، ص: ٧٥.
[٥] المصدر نفسه، ص: ٧٥.

تعداه إلى شحذ الهمم وحفزهم النفوس وتعلمه، حتى قال الشافعي: لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب[1].

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل داء دواء، فإذا أصيب الداء برأ بإذن الله عز وجل[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»[3].

أن كلا الحديثين الشريفين دلاً على أنه ما من داء إلا وقد جعل الله له دواء، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يشرع للإنسان أن يستعمل الدواء الذي عرف تأثيره في الداء بالعادة والتجربة[4].

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «**تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم**»[5].

إن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن التداوي، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بجوازه وندبهم إليه بقوله «**تداووا**» وهذا اللفظ عام[6].

الصحة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تهتم الدولة الحديثة بصحة مواطنيها النفسية والقلبية والعقلية والروحية والبدنية، وتلتزم بالتوجيهات الربانية في هذا المجال وفي غيره وهي تستهدف إلى:

- توفير رعاية صحية لائقة لكل مواطن.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٧٦.
[2] رواه مسلم (٤/ ٢٠).
[3] رواه البخاري (٤/ ٨).
[4] أحكام الجراحة الطبية، ص: ٨٦.
[5] سنن الترمذي (٣/ ٢٥٨)، حديث حسن صحيح.
[6] أحكام الجراحة الطبية، ص: ٨٧.

ـ تنظيم القطاع الطبي العام والخاص وفق إستراتيجية وطنية للرعاية الصحية في الدولة.

ـ إعتبار الصحة الوقائية ركن من أركان السياسة التنموية للدولة.

ـ تطوير نظام الرعاية الصحية حتى يرتقي إلى مستوى المعايير العالمية.

ـ تحسين خدمات المستشفيات من خلال تحديد مهامها وتصنيفها وتعيين نطاق عملها وتحسين فرص إجراء العمليات الطبية السريعة.

ـ تحسين تصميم الرعاية المستمرة، وخدمات الصحة النفسية وتقديم خدمات الطوارئ، والوصول إلى صيدليات المجتمع ورفع كفاءتها.

ـ تأمين الوصول إلى بيانات رعاية صحية دقيقة.

ـ تعزيز مشاركة القطاع الخاص، وتحسين إدارة الصحة العامة مع نظام شامل للتغذية، والنشاط البدني، والتركيز على التعليم التخصصي الصحي وضمان خبرة وتأهيل أخصائي الرعاية الصحية وجودة مرافقها، ومنتجاتها، والاستجابة لشكاوي المرضى وضمان حقوقهم.

ـ استقلالية وتعزيز موازنة قطاع الصحة.

ـ سد وتفعيل مظلة التأمين الصحي الشامل لتضم كافة المواطنين دون تفرقة ولتغطي كافة مناطق الدولة بذات القدر والاهتمام.

ـ إدارة أكثر كفاءة وفاعلية للعلاج الطبي الصحي خارج الدولة.

ـ دعم النظام الصحي ببحوث عالية الجودة.

ـ ربط عدد الأطباء وعدد الأسرة في المستشفيات بتعداد المواطنين الذين يقطنون في دائرتها.

ـ الاهتمام بجدول الأجور لكافة العاملين بالقطاع الصحي، بما يلبي متطلبات الحياة الحديثة.

ـ الاهتمام بتأهيل وتدريب الأطباء والعاملين بالقطاع الصحي، وذلك على نحو علمي منهجي، وتبادل الخبرات العلمية والعملية مع كافة القطاعات النظيرة في الخارج.

ـ تطبيق لا مركزية التخطيط والتنفيذ واتخاذ القرار من حيث إعطاء الصلاحيات المالية والإدارية لمكاتب الشؤون الصحية في المناطق والبلديات وصولاً إلى معالجة كافة أوجه القصور في السياسة الصحية بالنسبة للمناطق النائية والمهمشة والمحرومة.

ـ تشجيع مشاركة المجتمع في إدارة النظم الصحية على مستوى الوحدات الصحية والمراكز والمستشفيات.

ـ وضع سياسة للأدوية وإعادة تنظيم الإمدادات الطبية والدوائية.

ـ استقلالية المستشفيات المركزية من خلال تفويض السلطات وتشكيل مجالس إدارة ومجالس أمناً من الوزارة والمجتمع للإشراف على تقديم الخدمة ومراقبة الإيرادات.

ـ تحفيز مشاركة القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية وتشجيع الأساليب المبتكرة في الرعاية الصحية.

ـ وضع خطة منهجية لتلبية الاحتياجات الصحية لكافة المواطنين، وذلك من خلال تبني حزمة من البرامج ذات الصلة بالصحة الإنجابية، وتدريب قابلات المجتمع لما لهن من دور كبير في سلامة الأمهات والأطفال وتقديم خدمة رعاية الحوامل والرعاية لما بعد الولادة وتنظيم الأسرة وإنشاء المراكز التخصصية في مكافحة الأوبئة والتحصين والتطعيم والأمصال، والصحة الوقائية والعمل على اعتمادها كمراكز تعاونية إقليمية لمنظمة الصحة العالمية في الدولة.

١٠ ـ السياحة:

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِّ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة ، آية : ١١٢).

وفي هذه الآية أوصاف امتدح الله بها عباده المؤمنين ومن تلك الصفات ﴿السَّائِحُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحريم ، آية : ٥).

وسبب نزول هذه الآية إن نساء النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعن في الغيرة عليه، فقال عمر رضي الله عنه لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبد له أزواجاً خيراً منكن" فنزلت الآية[١].
وفيها وصف للنساء اللائي يتزوجهن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن تلك الصفات أنهن (سَائِحَاتٍ)، وتنوعت أقوال المفسرين في المراد بالسياحة في هاتين الآيتين على عدة أقوال، فقيل: إنها الصيام، وقيل: الجهاد في سبيل الله، وقيل: الهجرة، وقيل السفر لطلب العلم، وقيل: الجولات بالفكر في توحيد الله، وقيل: السير في الأرض للاعتبار[٢].
وهذه التفسيرات تدخل في خلاف التنوع لا خلاف التضاد، وحديثنا هنا عن السياحة بمعنى السير في الأرض، واللسان العربي يدل بوضوح على أن معنى السياحة هو السير في الأرض، والقرآن الكريم يدعم هذا الاتجاه، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام ، آية : ١١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت ، آية : ٢٠).

إن القول بأن السياحة هو السير في الأرض لا ينفي إرادة الآية لبعض ما قد تتضمنه السياحة من فرائض الدين وشعب الإيمان، كالجهاد في سبيل الله، أو الهجرة، أو السفر لطلب العلم أو الجولان بالفكر، فهذه المعاني منها ما هو قريب جداً من معنى السير، ومنها ما هو البعيد عنه

---

[١] أخرجه البخاري، الحديث رقم: ٤٩١٦.
[٢] السياحة، د. علي بن أحمد، ص: ٣٨.

دون نفرة منه، غير أن كل هذه الشعائر في القريب منها والبعيد يشملها معنى السير في الأرض[1].

والسياحة في المفهوم الإسلامي لها ضوابط منها المتعلقة بالسائح، وعلى سبيل الذكر، كإحسان القصد في السياحة، أن لا تفضي السياحة إلى الوقوع في المحذور الشرعي، اكتمال شروط السفر بالنسبة للمرأة السائحة، تحمل السائح مسؤولياته في الدعوة وقيامه بها، واتباع السائح للأنظمة المتعلقة بالسياحة التي لا تخالف الشريعة الإسلامية.

وهناك ضوابط للسياحة متعلقة بالمكان (الموقع السياحي) ومنها، أن يكون الموقع السياحي مباحاً، وأن يكون مأمون الفتنة على الضرورات الخمس، الدين، النفس، العقل، العرض والمال. وعدم غلبة الوصف الممنوع شرعاً على الموقع السياحي المباح وأن يراعي الموقع السياحي خصوصية المجتمع المسلم.

أ ـ الترويح على النفس أمر فطري:

طلب الترويح أمر فطري في الإنسان، ولذا فإن الإسلام، وهو دين الفطرة يقر مبدأ الترويح عن النفس، ومن المعلوم أن قدوتنا في الحفاظ على الزمن وإعماره على الوجه الشرعي الصحيح هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والناظر في سيرته صلى الله عليه وسلم يجد أن من جملة هديه مؤانسته لأهله ومداعبته إياهم، وإدخال السرور عليهم، وكان ذلك إدراكاً منه لحقيقة النفس البشرية، فتمكين القلوب من حقها في الراحة، وترويح النفس بالمباح يجعل المرء أكثر مواصلة على العطاء والاجتهاد فيه، فالمرء غير مضيِّع لعمره، إن تفكَّه أو مازح، أو ساح ضمن ضوابط الشرع، ولكنه من غير شك من أشد الناس ضياعاً لعمره إن كان ديدنه وشغله وخلقه. وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف ، آية : ١٢).

إن المُراد بذلك الاستجمام ورفع السآمة، وقال وهو مباح في جميع الشرائع إذا لم يكن دأباً[2].

---

[1] المصدر نفسه.
[2] التحرير والتنوير (١٢ / ٢٩).

وقد نص الفقهاء على إباحة الترويح المتمثل في النزهة والفرجة خاصة، وجعلوا السفر لطلب ذلك مثالاً من أمثلة السفر المباح[1].

ب ـ التفكر في الكون من دوافع السياحة:

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت ، آية : ٢٠)، ولا ريب أن الأمر بالنظر في مخلوقات الله يفيد السائح تعظيم الله من خلال تأمله وتفكره فيما ذرأ في الأرض من مخلوقات، وتلك المخلوقات التي أمرنا بالنظر إليها متعددة في شأن الإنسان، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس ، آية : ٢٤).

وقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات ، آية : ٣١).

وفي شأن الحيوانات قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية ، آية : ١٧).

كما أمر بالنظر إلى آثار رحمته فقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم ، آية : ٥٠).

وفي النظر في الآفاق قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت ، آية : ٥٣).

فالآيات الآمرة بالنظر إلى الإنسان والنبات، والحيوان، وآثار رحمته والآفاق والكون وغير ذلك.. تهدي السائح إلى السير للوقوف على هذه المشاهد التي قد لا يكون بعضها في أرضه،

---

[1] السياحة، ص: ٢٢٢.

فلا شك أن الأرض قطع متجاورات بعضها، فأرض فيها سهل وجبل، وأرض فيها بر وبحر، وأرض فيها عيون متفجرة ومعادن مفتنة وأخرى منها مساقط مياه، وأرض فيها دواب منبثة، وأخرى تتميز بتكوينات الأرض الفريدة، وأخرى أرضها ممهدة بألوان النبات وأنواع الأشجار وأصناف الثمار المختلفة الألوان والروائح، والوقوف على ذلك للنظر إليه بعين البصر والبصيرة يتطلب السير والسياحة[1].

فالسياحة بدافع التأمل والتفكر المفضية إلى زيادة الإيمان ورسوخ اليقين من الأعمال التي جاء الترغيب بها في الإسلام، وهذا يتطلب حفظ العقل من كل ما يأثر فيه حتى يقوم بوظيفته في التفكر.

جـ ـ دافع الاعتبار:

من أهم دوافع السياحة الوقوف على أحوال الأمم البائدة للاعتبار، وقد جاء القرآن الكريم في كثير من آياته مرغباً في ذلك قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ﴾ (غافر ، آية : ٢١).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم ، آية : ٩).

واستدُل بهذه الآيات على استحباب السياحة في الأرض وتطلب الآثار ـ داخل الدولة الإسلامية وفي العالم ـ والتشجيع عليها.

د ـ الدعوة للتميز العالمي في مفهوم السياحة:

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود (٨ / ١٣٩).

عندما تضع الدولة أنظمة وقوانين ولوائح متعلقة بالسياحة لا تخالف الشرع الإسلامي يعطيها تميزاً عالمياً في الجذب السياحي، فلا شك أن المواقع السياحية، التي تحقق تعاليم الإسلام وتسترشد به تؤثر تأثيراً بالغاً في السائح، وفي الموقع السياحي من جهة أخرى فتعزز العبودية لله في نفس السائح وتزكيها وتصلح جوانب منها تثمر في صلاحه وإنسانيته وسلوكه البشري وتؤثر أيضاً في الموقع السياحي بما تزيل من أسباب الإسائة والاعوجاج السلوكي بداية من القصد من السياحة ونهاية السلوك العملي حيث تهيىء بمجموع ذلك كله مكاناً مستقراً يأمن الناس فيه على أعراضهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم، وهي بهذا الإرساء الخلقي والأمني تكون علامة أمان من عذاب إلهي بإذن الله تعالى، وتسهم في نماء الموقع السياحي والمحافظة عليه من العبث في الاستخدام والإسراف والتبذير.

ولاشك أن التميز العالمي في مفهوم السياحة التي تقدمها الدول الإسلامية للمسلمين وغيرهم يحقق حاجات السائح النفسية والجسدية، وهذه الحاجات من عوامل الجذب التي تساهم في إيجاد منتج سياحي فريد من نوعه ينسجم مع تعاليم ديننا وحضارتنا وقيمنا وتقاليدنا وأعراضنا، وتقدم للسائحين الجمال والمتعة والبهجة في دائرة المباح شرعاً وعقلاً.

وبدلاً من أن تقدم لهم الخمور وغيرها من المحرمات ونشرع ونقنن ونصدر لوائح من أجل تقديمها للسوَّاح، نعرض عليهم ونقدم لهم أساليب حضارية متقدمة من خلال مثقفينا وعلمائنا وأبناء شعبنا المتواجدين في المواقع السياحية وغيرها أهم ما في الوجود ((الإسلام العظيم)) الذي يدين به هذا الشعب العظيم والذي يتفق مع العاطفة والعقل والحس الإنساني، فالكثير من السائحين قد ملَّ طرق الخمور والرذائل والفحش والتهتك والخلاعة والمجون، ويبحث عن السعادة الحقيقية الغافلون عنها، والتي تكفل لهم العيش الرغيد المطمئن، وغافلون عن منهج الحياة الذي يرسم لهم طريق الحرية الحقيقة من الشهوات والأهواء التي أسرت قلوبهم وعقولهم بالعبودية المطلقة لغير الله، وغافلون عن الطريق التي توصل إلى جنات الخلد[١].

قال تعالى: ﴿فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ (طه ، آية : ١٢٣).

---

[١] السياحة، ص: ٧٣٧.

ولذلك نحسن للسائحين الأجانب ونجزل لهم العطاء الثمين، مع روائع بلادنا السياحية في الواحات والجبال والسهول والمدن.

إن الهداية ضالة كل البشر، تتبع أهميتها من تطلعات العالم المتيقظ اليوم لمعالم السعادة وبحثه عن الحقيقة في كل مسلك سواء كان مكثاً أو إقامة أو سفر أو سياحة، والعالم يتطلع بلسان الحال اليوم إلى من يهديه إلى الحق في عصر ساد فيه الجفاف الروحي والانقطاع عن الله والصدود عن تراث النبيين.

وما الذي يمنع أن تكون بلاد ودول المسلمين عامل مهم في تحقيق الهدف من تذوق الجمال بأبعاده المختلفة وتحقيق المتعة الحقيقية التي ترشد السياح إلى الآخرة وعالمها وفي نفس الوقت تمكنهم من استشعار الجديد فتلتقي لدى جواب الآفاق منهم البهجة والمتعة مع الهداية والسعادة التي طالما يبحث عنها أي إنسان[١].

هـ ـ الإصلاح السياحي:

نظراً لأن المفاهيم تجاه السياحة يعتريها عدم الوضوح بسبب ممارسات كثير من المؤسسات والأفراد في العالم الإسلامي وبسبب هيمنة المنظمات العالمية على المجال السياحي بأبعاده تنظيماً وتنظيراً مما ترتب عليه الأخذ بالمفاهيم التي لا تنسجم مع تعاليم الإسلام ولا تتوافق مع ثقافتنا وتراثنا ومنظومتنا الحضارية، علينا أن نضع مفهوم السياحة بحيث يكون مفهوماً ينطلق من المبادئ الإسلامية ويستمد أسسه من أصالة الشريعة وفي الوقت نفسه يواكب العصر بأبعاد السياحة المختلفة ليتبلور من خلال ذلك مفهوم متميز للسياحة يقدم لدى الوزارات والهيئات السياحية في العالم الإسلامي، ويقوم لاعتماده لدى المنظمة العالمية للسياحة ومن ثم تعميم ذلك المفهوم وبثه خلال وسائل الإعلام في مواسم السياحة ليرسخ في أذهان الشعوب المسلمة وغيرها أفراداً ومجتمعات ومؤسسات وعلى ضوء ذلك المفهوم تحدد الأطر العامة للسياحة في بلاد المسلمين، إن شعوبنا الإسلامية تتطلع للحفاظ على هويتها والبعد عن التقليد والمحاكاة

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٣٩.

والتبعية للغرب في النطاق السياحي وغيره، ومن أهم ما يميزها تطهيرها من الفساد الخلقي وإقامة أنشطة وبرامج ثقافية متنوعة وهادفة تلبي حاجات السائح وتستند إلى عوامل النجاح[١].

بدلاً من أن نقدم للسواح المحرمات والموبقات علينا أن ننشىء مراكز خاصة تستقطب السواح غير المسلمين والمسلمين، تعنى بابتكار برامج سياحية خاصة بهم تقدم ضمن الإطار العام للبرنامج السياحي المرسوم ويكون اختصاصها تصميم برامج راقية ذات صلة بالحضارة الإنسانية والإسلامية كمدخل، ومن أبرز أهدافها الدعوة إلى القيم الرفيعة والأخلاق الحميدة وتصحيح صورة الإسلام لدى الآخرين وفق أطر واضحة تراعي خصائص المواقع السياحية ويشرف عليها أهل الاختصاص في مجالي الدعوة والسياحة يقدمون منظومة متكاملة تراعي الاختصاص والتميز والخصوصية الحضارية في العمل السياحي بما يساهم في تنمية السياحة باعتبارها مصدراً اقتصادياً من جهة وبما يخدم السواح في دنياهم وأخراهم، والمرجعية الإسلامية قادرة على ذلك، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل، آية : ٨٩).

ـ وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(الفرقان، آية : ٣٣).

إن إقبال السائحين غير المسلمين إلى بلادنا بالطريقة التي تعودوا عليها بالمفهوم الغربي للسياحة يترتب عليه انتهاك لأحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها الكبرى، ومن تلك السلبيات في حالة غياب الضوابط والرقابة:

ـ انتشار السلوكيات المحرمة والظواهر الغربية على المجتمع وأخلاقه ومبادئه مثل شرب الخمر وتقديمها في المناسبات وعري الأجساد وكشف العورات ...الخ

ـ مخالطات الشباب بالفتيات السائحات وقضاء الوقت معهن في برامج الترويح مما يجلب لهم أفكاراً ومعتقدات مخالفة لتعاليم الإسلام وأعراف وتقاليد مجتمعاتنا.

---

[١] السياحة، ص: ٧٥٦.

ـ انتشار الزنا والفواحش بين الشباب نظراً لأن غالب السائحين غير المسلمين "الأجانب" بأديانهم المختلفة لا يعبأون بأمر الزنا، ومن ثم فإن اختلاط السائحين بالشباب وما يقع من مزاح ومؤانسة وحديث ومصاخبة وخلوة ومعانقة كل ذلك مدعاة لوقوع مثل هذه المحرمات.

ـ ترويج المخدرات داخل البلاد والأفلام الخليعة وغير ذلك من المفاسد.

ـ ترسل بعض الدول جواسيس من خلال الغطاء السياحي لجمع المعلومات عن الشعوب والعمل على إضعافها وبقائها في حالة مزرية من التخلف والانحطاط والعمل على تدمير الأخلاق والقيم والمبادئ الرفيعة.

ولا شك إن استفحال الذنوب في مجتمع ما مرتبط بظروف، أهمها الترف الذي يدفع الإنسان إلى التمرد من كل قيد يثقل حريته الشخصية، ثم يكون هذا التمرد سبب انفلات الفرد في طريق الأهواء، والبحث عن مظانها، وهذا يؤدي إلى الانحلال، ثم الاستخفاف بالتعاليم الربانية.

إن الله عز وجل قد قرر في كتابه مصير الهلاك للمجتمع الذي يأخذ بأسباب الهلاك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء، آية : ١٦).

فالله جعل الحياة سنناً لا تتبدل، فحين توجد الأسباب تتبعها النتائج، وهنا يبرز دور الجهات المعينة في العالم الإسلامي في عدم السماح بأعراض الفساد وأسبابه ودعاته من المترفين بالبروز، وإصلاح نظامها السياحي المتضمن للبرامج، والخطط وغير ذلك لئلا يسمح بوجود الخمور والفجور باسم السياحة ويساير دور الجهات دور العقلاء من أهل البلاد في توعية وإرشاد المجتمع بخطورة هذا الأمر من إنزال العقوبات الإلهية من غلاء وزلازل وبراكين وفوضى وتنافر وتناحر وصراع وقتال..الخ

إن الذنوب والمعاصي وانتهاك حرمات الله تعالى تهلك أصحابها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء

عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (الأنعام، آية : ٦).

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد وإقامة الفتن والاستهانة بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

والمنكرات تجلب الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم، آية : ٤٠).

ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن والفساد الإداري والاقتصادي والسياسي والإعلامي...الخ

ولهذا يمثل التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية العظيمة والعمل بها السد المنيع الوقائي بإذن الله من العقاب الإلهي لما تسهم به من تقليل الفساد ومنع أسباب العقاب، ويكون ذلك بدفع الدولة للمجتمع إلى الصلاح من خلال ما تتضمنه من جهود وبرامج توصل إلى هذه الغاية، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود، آية : ١١٧).

السياحة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تراعي الدولة أحكام الإسلام في المجال السياحي وتعمل على أن تكون لها مكانتها على خارطة السياحة العالمية لإبراز القيم الحضارية والثقافية التي تؤمن بها، وتعتبر التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة أحد أهدافها التنمية السياحية، لما لها من القدرة على تحسين ميزان المدفوعات وتوفير فرص عمل وخلق فرص مدرة للدخل، وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية للاستثمار في المشاريع السياحية وزيادة الناتج القومي وتوفير فرص عمل جديدة والمساهمة في تحسين أسلوب ونمط الحياة الاجتماعية والثقافية لعموم أفراد المجتمع والدولة تعمل على:

- زيادة وتشجيع الاستثمارات في قطاع المشروعات السياحية، وذلك من خلال تطبيق حزمة من الإعفاءات الغير بيئية على واردات السياحة وتدعيم وتطوير وزيادة رقعة مشاريع البنى التحتية في الدولة.

ـ تبني خطة إستراتيجية وطنية للعمل على النهوض بالواقع السياحي في الدولة من حيث استثمار وتوظيف رؤوس الأموال الوطنية والأجنبية وتعزيز المزايا التنافسية للمشاريع السياحية.

ـ الاهتمام بالمؤسسات التعليمية ذات الصلة بقطاع السياحة مثل كليات السياحة والفنادق، والعمل على رفع مستوى التأهيل والتدريب للعاملين بذلك القطاع.

ـ العمل على نشر الوعي الثقافي لدى المواطنين بأهمية السياحة واستخدام الإعلام السياحي كأحد المصادر الرئيسة في ذلك.

ـ دعم انتظام الأنشطة السياحية من خلال تدعيم وتطوير وإنشاء شبكات النقل البري والبحري والجوي، وضمان وصول السائح من الطرق إلى كل مواقع الجذب السياحي في الدولة.

ـ الاهتمام بالمناطق الأثرية والمدن الحضارية وخصوصاً المواقع الدينية والمباني التاريخية، وإجراء أعمال الصيانة والترميم وإعادة البناء المتعلقة بها وإجراء المزيد من أعمال التنقيب والعمل على وضع نظام مبرمج لزيادة وجذب السائحين لهذه المناطق.

ـ تنمية الصناعات الصغيرة والحرفية ذات الطابع التراثي وذلك المرتبطة بشكل مباشر بدعم الصناعة السياحية وتحديد المواقع المخصصة والصالحة للاستثمار السياحي.

ـ تحفيز وتنشيط دور القطاع الخاص ورجال الأعمال لاجتذاب رؤوس الأموال باتجاه الفرص المربحة وتعظيم الحوافز المالية الاقتصادية في مجال الاستثمار السياحي.

ـ ضمان مشاركة الخبرات الوطنية والأجنبية المؤهلة والمدربة في دعم قطاع السياحة.

ـ إقامة ورعاية المهرجانات السياحية والثقافية بصفة دورية، وذلك في مناطق الجذب السياحي وبالتنسيق مع الجهات والدوائر ذات الصلة على المستويين سواء على المستوى المحلي والدولي.

١١ـ موارد الدولة:

كانت الموارد المالية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم تقتصرعلى الزكاة والغنائم والفيء والجزية، وكانت تصرف في المصارف التي حددها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لرسول صلى الله عليه وسلم بيت مال بل كان يقسم الفيء من يومه. وفي عهد الخلفاء الراشدين تطورات الموارد المالية، وأصبح من مصادر بيت المال الخراج والعشور..الخ

وتطورت مؤسسات موارد الدولة مع الزمن وكانت الدولة تراقب على جباية الزكاة من واجبات الدولة، وقد لخص د. يوسف القرضاوي فوائد تولي الدولة لجباية الزكاة فيما يلي:

أولاً: إن كثيراً من الأفراد قد تموت ضمائرهم أو يصيبهم السقم والهزل فلا ضمان للفقير إذا ترك حقه لمثل هؤلاء.

ثانياً: في أخذ الفقير حقه من الحكومة لا من الشخص الغني حفظاً لكرامته، وصيانة لماء وجهه أن يراق بالسؤال ورعاية لمشاعره أن يجرحها المن أو الأذى.

ثالثاً: إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى، فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقير واحد، على حين يغفل عن آخر فلا يفطن له أحد، وربما كان أشد فقراً.

رابعاً: إن صرف الزكاة ليس مقصوراً على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فمن الجهات التي تصرف فيها الزكاة، مصالح عامة للمسلمين لا يقدرها الأفراد، وإنما يقدرها أولو الأمر وأهل الشورى في الجماعة المسلمة، كإعطاء المؤلفة قلوبهم، وإعداد العدة للجهاد في سبيل الله، وتجهيز الدعاة لإبلاغ رسالة الإسلام في العالمين.

خامساً: إن الإسلام دين ودولة وقرآن وسلطان، ولابد لهذا السلطان وتلك الدولة من مال تقيم به نظامها وتنفذ به مشروعاتها، ولابد لهذا المال من موارد والزكاة مورد هام دائم لبيت المال في الإسلام[١].

وكانت الدولة الإسلامية في عهدها الزاهر تقوم بوسائل الرقابة المالية والإدارية على خير وجه ومن أهم هذه الوسائل:

أ ـ اختيار الموظفين:

---

[١] فقه الزكاة (٢/ ٧٥٦ ـ ٧٥٧).

إن أول خطوة في الرقابة هي حسن اختيار العمال الذين سيتولون الإشراف على تنفيذ الأعمال، وجباية الأموال، وتوصيل الحقوق إلى أهلها، وبمقدار النجاح في هذه الخطوة يكون النجاح في بقية الخطوات وبمقدار الفشل فيها تفرغ كل الخطوات التالية من مضمونها[١].

ولهذا عد الماوردي من واجبات الإمام: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكل إليهم من الأموال، وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكل إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة، الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء، آية : ٥٨).

والمناصب والمسؤوليات من الأمانات التي يجب أن تؤدى إلى أهلها، فقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن تعيين العاملين في مختلف المواقع أمانة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عن الساعة: «**فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**»، فقال: وما إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فأنتظر الساعة**»[٢].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «**يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيه**»[٣]. قال النووي : هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن قيام وظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة[٤].

ـ الشروط التي يجب توفرها في الموظفين: "القوة والأمانة":

يجب أن يتوفر في الموظف شرطان أساسيان، هما: القوة والأمانة وقد أخذ العلماء هذين الشرطين من قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ

---

[١] الرقابة الإدارية، ص: ٢٤١.
[٢] البخاري، ك العلم، الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٢.
[٣] مسلم في الإمارة، الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٢.
[٤] شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٧٧).

القَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص، آية : ٢٦). ومن قوله الله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، آية : ٥٥).

فقوله ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. أي: أمين أحفظ ما تستحفظنيه عالم بوجوه التصرف، وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، فقد تضمنت وصف يوسف بالصفتين اللازمتين لتولي المسؤولية وهما الحفظ والعلم اللتان: تعمان وجوه المعرفة والضبط للخزائن[١].

قال ابن تيمية: والقوة في كل ولاية بحسبها فالقوة في قيادة الجيوش غير القوة في الحكم بين الناس والقوة في ضبط الدخل والخرج غير القوة المطلوبة في الفتوى، وهكذا، والقوة تتضمن العلم والقدرة وتتنافى مع الضعف والعجز، ولهذا نصح النبي صلى الله عليه وسلم أبا ذر ـ وهو الصادق التقي البار ـ أن لا يتأمر على اثنين، فقال له: يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرني على اثنين، ولا تولين مال يتيم[٢]، وقد أشار الذهبي إلى قوة أبي ذر في بدنه وشجاعته، وحمل الضعف على ضعف الرأي في إدارة الحكم وأن فيه حدة تتنافى مع الإمارة التي تتطلب الحلم والمداراة[٣].

أما الأمانة التي هي ركن الولاية الأساسي فتتضمن العدالة وتتنافى مع الفسق، قال ابن تيمية: والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمناً قليلاً وترك خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي أخذها الله على كل من حكم على الناس في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة، آية : ٤٤).

وتأمل حرص النبي صلى الله عليه وسلم على استعمال الأمناء، فعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأهل نجران: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين فاستشرف لها

[١] التسهيل ابن جزي، ص: ٣١٦.
[٢] السياسة الشرعية، ص: ٢٠.
[٣] سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٤).

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فبعث أبا عبيدة[1]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرص على تعيين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إن أبا عبيدة قال له: دنست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له عمر: يا أبا عبيدة إذا لم استعن بأهل الدين على سلامة ديني فيمن أستعن؟ قال: أما فعلت فأغنهم بالعمالة عن الخيانة، يقول: إذا استعملتهم على شيء فأجزل لهم في العطاء والرزق لا يحتاجون[2]، وكان يستشير كثيراً في تعييناته وقد بحث مرة إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلاً من أخيرهم وأصلحهم وإلى أهل البصرة كذلك، وإلى أهل الشام كذلك، قال فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد، وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد، وبعث إليه أهل البصرة الحجاج بن علاط كلهم سلميون، قال فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه[3].

ـ القواعد الشرعية التي يجب على ولي الأمر اتباعها في الاختيار:

ـ وجوب تولي الأصلح:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله من صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم**»[4].

ـ وجوب اختيار الأمثل من الموجود:

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن، آية : ١٦).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ذروني ما تركتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»[5]، وسئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو أحدهما قوي فاجر،

---

[1] البخاري، الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٤.
[2] الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٤.
[3] المصدر نفسه، ص: ٢٤٤.
[4] الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٣) صحيح الإسناد.
[5] البخاري، الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٦.

والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزي؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه للمسلمين، ويغزى مع القوي الفاجر[١].

ـ لا تجوز المحاباة عند تولية المناصب:

فلا يجوز التعيين على أساس القرابة النسبية ولا الصلة الحزبية، وإنما يكون الاختيار على الأسس الشرعية، فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو موافقة بلد أو مذهبه، أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو الرشوة يأخذها منه أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن[٢] في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال، آية : ٢٧). ثم قال : ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال، آية : ٢٨).

ـ طلب الولاية سبب في الحرمان منها:

فقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن من حصل على المنصب من غير طلب فإن الله يعينه عليه بخلاف من سأله، فعن عبد الرحمن بن سمرة قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**»[٣].

ومن المعلوم أن كل ولاية لا تخلو من مشقة، فمن لم يكن له من الله إعانة تورط فيما دخل فيه وخسر دنياه وعقباه فمن كان ذا عقل لم يتعرض للطلب أصلاً، بل إذا كان كافياً وأعطيها من غير مسألة فقد وعده الصادق بالإعانة ولا يخفى ما في ذلك من الفضل[٤].

---

[١] السياسة الشرعية، ص: ٢٢.
[٢] الضغن: الحقد كالضغينة وقد ضغن: حقد.
[٣] البخاري، الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٨.
[٤] فتح الباري (١٣/ ١٣٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة**»[١]، وقد حذر العلماء إسناد المناصب إلى من يحرص عليها[٢].

وأما قول يوسف عليه السلام في كتاب الله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، آية : ٥٥).

فالتوفيق بينه وبين ما سبق أن نقول: إن يوسف عليه السلام كان بين قوم كفار، فأراد استصلاحهم ودعاءهم إلى الله تعالى بالسعي في هذه الولاية دون غيرها، لأن المتولي لأرزاق العباد تذل له الرقاب، وتخضع له الجبابرة، ولا يستغني أحد عن بابه، فلهذا طلب هذه المرتبة دون الإمارة والوزارة، وغير ذلك من الولايات[٣]، فيوسف عليه السلام: إنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد.. فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا[٤].

والذي نخلص إليه أن الذي يسأل الإمارة ويحرص رغبة في الدنيا فإنه لا يولى، أما من رأى أنه لا يوجد من يقوم مقامه فتقدم لأداء الواجب، لا طلباً لمال أو جاه، فتوليته مطلوبة مشروعة، ولا تترتب عليها أي مفسدة من المفاسد التي ترتب على تولية من يطلب المنصب رغبة في الدنيا[٥].

ب ـ الإشراف:

قال صلى الله عليه وسلم: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته**»[٦].

---

[١] البخاري في الأحكام، الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٨.
[٢] الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٨.
[٣] تبصرة الحكام لابن فرحون (١/ ٦).
[٤] الرقابة الإدارية، ص: ٢٤٩.
[٥] المصدر نفسه، ص: ٢٥٠.
[٦] البخاري ومسلم، الرقابة الإدارية، ص: ٢٥١.

وقد نص الماوردي على أن من واجبات الإمام: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة قد يخون الأمين ويغش الناصح[1].

وقيادة الدولة تشرف بالطرق التالية:

- ملاحظة الموظف أثناء العمل.
- تبادل وجهات النظر.
- تخطيط العمل.
- الاجتماعات.
- المتابعة الإدارية بواسطة تقرير العمل.
- التفتيش الدوري والتفتيش المفاجئ.

فالاشراف عبارة عن متابعة الأمور أولاً بأول، والاتصال المستمر بالعمال والحصول على المعلومات دائماً بمختلف الوسائل وتصحيح الانحرافات في أسرع وقت[2].

والاشراف يحقق الأغراض التالية:

- التأكد من أن العمل ينفذ وفقاً لمبادئ وأصول الإدارة ووفقاً للخطة.
- مساعدة الموظفين على إتقان أعمالهم.
- إلمام المشرف بالأعمال التي تمت، مع اكتشاف ما قد يكون هناك من صعوبات تعترض التنفيذ وبحث وسائل التغلب عليها.
- توجيه وتعليم الموظفين بما يجعلهم أقل احتياجاً للإشراف في المستقبل.
- تقييم قدرة ودرجة إتقان الموظفين لأعمالهم.
- التنسيق بين جهود الموظفين[3].

---

[1] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥١.
[2] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥١، ٢٥٢.
[3] مبادئ الإدارة العامة، فوزي حبيش، ص: ٧٢.

ومن نماذج الإشراف في الدولة الإسلامية ما رواه عبد الرزاق عن ابن طاووس عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم، وأمرته بالعدل أقضيت ما علي؟ قالوا: نعم، قال: لا حتى أنظر في عمله أعمل ما أمرته أم لا[١]؟

وروى الطبري عنه قال: أنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه ومطلع على ما يحضرني بنفسي إن شاء الله لا أكله إلى أحد[٢]، وفي قوله: لا أكله إلى أحد " دلالة على أنه مادام يستطيع الإشراف والمتابعة بنفسه فإنه لا يكل أداء هذا الواجب إلى غيره، أما البعيد فإنه يستعين عليه بأهل الأمانة والكفاءة والتقوى، الذين لا يكون التعاون إلا معهم[٣]".

ـ الزيارات التفقدية:

ومن وسائل الإشراف الزيارات التفقدية، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما هم فلا يصلون إلي، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلي:

فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين

ثم أسير إلى الجزيرة، فأقيم فيها شهرين

ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين

ثم أسير إلى البحرين، فأقيم بها شهرين

ثم أسير إلى الكوفة، فأقيم بها شهرين

ثم أسير إلى البصرة، فأقيم بها شهرين

والله لنعم الحول هذا[٤].

وقال: إني قد بدأ لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم وقد خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زيارة تفقدية إلى الشام ضمن هذه الزيارات التي كان يرى أهميتها، وقد أبدأ بالشام الذي ضاعت فيه مواريث المسلمين، بسبب الوباء وفي هذه الزيارة قسم عمر الأرزاق وسمى

---

[١] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥٣).
[٢] تاريخ الطبري (٤/ ٢١٥).
[٣] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥٣.
[٤] تاريخ المدينة، عمر بن شبة (٣/ ٨٢١).

الشواتي[١]، والصوائف[٢]، وسد فروج الشام[٣] ومسالحها[٤]، وأخذ يدور بها :أي الشام" وسمى ذلك في كل كوزة[٥]، كما يقول الطبري[٦]، وفي هذه الزيارة عزل وولى، وكان فيمن عزل شرحبيل بن حسنة وولى مكانه معاوية بن أبي سفيان[٧]. وكان ممن ولى في هذه الزيارة أبو موسى الأشعري على السواحل الشامية وودع الناس بخطبة بليغة قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ألا أني قد وليت عليكم، وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من أمركم ـ إن شاء الله ـ قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغنا ما لديكم فجندنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج، وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شامكم وسمينا لكم من أطعمتكم، وأمرنا لكم بعطائكم وأرزاقكم ومعاونكم، فمن علم علم شيء ينبغي العمل به، فبلغنا نعمل به إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله[٨].

ومن هنا نعرف برنامج هذه الجولات التفقدية، فليس أكلاً وشرباً ونزهة وتفرجاً واستقبالاً وتوديعاً فحسب، وإنما هي تخطيط وجهاد وعزل وتولية، وحل للمشكلات العالقة، وبسط العدل، وتعميق للإصلاح، وتوجيه وإرشاد، وإعلان عام يشجع الناس على بذل النصيحة للحاكم ويدعوهم إلى التفكير في مصالح الأمة فيقول: من علم علم شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به، إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله[٩].

ـ مؤتمر الحج:

---

[١] الشواتي: غزوات الشتاء.
[٢] والصوائف: غزوات الصيف غزوة الروم.
[٣] الفروج: الثغور.
[٤] مسالحها: جمع مسلحة وهي الثغر.
[٥] كوزة: الصقع: الناحية.
[٦] تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٣).
[٧] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥٥.
[٨] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥٥، تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٤).
[٩] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥٦.

من وسائل الإشراف: الاجتماعات، ومن أهم الاجتماعات الإسلامية اجتماع المسلمين في موسم الحج: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ (الحج، آية : ٢٨).

وقد كان عمر رضي الله عنه ملازماً للحج في سني خلافته وكان من سيرته أن يأخذ عماله بموافاته كل سنة في موسم الحج ليحجزهم[١]، وبذلك عن الرعية ويحجز عنهم الظلم ويتعرف أحوالهم عن قرب وليكون للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاويهم[٢].

ـ إستطلاع الأخبار:

قد يتم الإشراف بواسطة التقارير والمعلومات التي تصل إلى المسؤول الإداري فيكون بواسطة المعلومات متابعاً للعمل مشرفاً عليه، ومراقباً له، روى الطبري أن عمر رضي الله عنه كان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه، وفي قصة التحقيق مع خالد بن الوليد رضي الله عنه قال الراوي وكان عمر لا يخفى عليه شيء من عمله[٣]، وهذا ما عبر عنه الجاحظ بقوله عن عمر: كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن يأت معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي، عامل ولا أمير جيش إلا وعليه لا يفارقه ما وجده كانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل مُمس ومصبح، وأنت ذلك في كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به[٤].

ج ـ متابعة العمال ومحاسبتهم وما يترتب على ذلك:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يحاسبون العمال على الصدقات والفيء وغير ذلك ومحاسبة النبي صلى الله عليه وسلم لأحد عماله ثابتة في الصحيح، فعن أبي حميد الساعدي، قال استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتيبة، على صدقه فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد

---

[١] ليحجزهم: ليمنعهم.
[٢] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥٧.
[٣] تاريخ الطبري (٤/ ٦٧).
[٤] الرقابة الإدارية، ص: ٢٥٨.

الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول هذا لك وهذا لي؟ فهلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه «**ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟**»[1]، وفي رواية: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأسد على صدقات بني سليم يدعى ابن اللتيبية فلما حاسبه[2]، قال المهلب: حديث الباب أصل في محاسبة المؤتمن[3].

ـ عهد التعيين:

كان عهد التعيين الذي يتضمن وصفاً كاملاً للمهمة، وشرحاً واضحاً للواجبات والصلاحيات وحقوق الرعية، أساساً ممتازاً للرقابة الإدارية والمالية، منسجماً مع تعاليم الإسلام، في البيان والوضوح والإبلاغ والإنذار قبل المعاقبة، فعندما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعين عاملاً، فإنه كان يعطي عهد تعيين يحتوي على أمر تنصيبه وتحديد ما يحول من صلاحيات، وما يكلف من واجبات، ويحمل هذا الأمر خاتم الخليفة أو توقيعه ويشهد عليه عدد من المهاجرين والأنصار، وقبل أن يبرح العامل المدينة مباشرة يجتمع الناس في المسجد، ويقرأ على الملأ الأمر أو عهد التعيين وبذلك يعرف كل مواطن حقيقة سلطات الولاة والعمال وواجباتهم[4].

د ـ كيف يتم التحقيق مع العمال؟

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحاسب عماله محاسبة دقيقة، ويحقق معهم تحقيقاً صارماً لا مجاملة فيه ولا محاباة، أداء للواجب ونصحاً للرعية مع ما يكن لهم من المحبة والود وإليك نموذج من هذه التحقيقات:

***ـ التحقيق مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:**

---

[1] البخاري في كتاب الأحكام، الرقابة الإدارية، ص: ٢٦٢.
[2] الرقابة الإدارية، ص: ٢٦٢.
[3] فتح الباري (٤/ ٥٨٦).
[4] الرقابة الإدارية، ص: ٢٦٣.

اتهم بعض أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بأغرب التهم، حتى أُتهم بأنه لا يحسن يصلي، وعندما أرسل عمر مسؤول التحقيقات عنده :محمد بن مسلمة ليحقق في مضمون هذه الشكاوي، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما يريد بعث محمد بن مسلمة، وسأله عنه في مساجد الكوفة أثنوا عليه خيراً، إلا واحداً ممن كانوا يتحاملون عليه، وهو أسامة بن قتادة فإنه قال عن سعد: إنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية ولا يغزو في السرية وقد دعا سعد فقال: اللهم إن كان قالها كذباً ورياءً وسمعة فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن، وقد استجاب الله دعاء سعد فطال عمر الرجل، وكثر عياله ووصلت به الفتنة إلى حد أنه كان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يحبسها، فإذا عثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك[١].

وكانت نتيجة التحقيق تبرئة سعد مما نسب إليه، ومع ذلك فقد عزله عمر بن الخطاب درءاً للفتنة[٢]، حتى لا تبقى حجة لناقد أو مشاغب، لأن مذهبه في هذا الخصوص ـ حسب قوله ـ إن تغيير الوالي أيسر من تغيير الرعية[٣].

وكان يقول: أهون علي شيء أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير[٤]، ولكن عمر كان حريصاً في الوقت ذاته على تبرئة ساحته وكان عمر رضي الله عنه مقتنعاً بكفاءته ولذلك أوصى باستعماله فقال: إن ولي سعد الإمارة فذاك، وإلا فأوصي الخليفة بعدي أن يستعمله فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة[٥].

وكان عمر وهو يحاسب سعد بن أبي وقاص يقول له عزمت عليك ألا تدعو على أخيك ويضحكه، وإذا ذهب غضبه، قال: تعالى نتحاسب فإنه اليوم أيسر عليك من غد[٦]، وهذه الواقعة نستفيد منها في مجال الرقابة:

---

[١] تاريخ الطبري (٤/ ١٢٠).
[٢] البداية والنهاية (٨/ ٨١).
[٣] عمر بن الخطاب وأصول السياسة، سليمان الطماوي، ص: ٢٨٦.
[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٨٤).
[٥] الرقابة الإدارية، ص: ٢٦٩، طبقات ابن سعد (٣/ ١٣٧).
[٦] تخريج الدلالات السمعية، ص: ٢٥٤.

ـ أن جميع عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا سواء أمام المحاسبة والتحقيق، فعلى الرغم من فضل سعد بن أبي وقاص، وتهافت التهم الموجهة إليه فقد خضع كغيره للتحقيق[١].

ـ علنية التحقيق واستخدام المساجد وسيلة لهذه العلنية، الأمر الذي يبعد التحقيق عن أية شبهة تستر أو تمالئ مع العمال المدعى عليهم، وهذا يشبه المبدأ القضائي المتبع الآن وهو علنية المحاكمات.

ـ الاهتمام بالشكاوي المقدمة من عامة المسلمين مهما كان المدعي عليه.

ـ السرعة في القيام بالتحقيق والبث في الأمر والابتعاد عن الاجراءات الرتيبة الطويلة المناقضة لتحقيق الأهداف الرقابية[٢].

كما تم التحقيق مع أبي موسى الأشعري ومع النعمان بن نضلة ومع عياض بن غنم وخالد بن الوليد وقام بعزل الكثير من الولاة.

هـ ـ إحصاء أموال الموظفين عند تولي العمل:

روى ابن سعد وابن الجوزي عن الشعبي أن عمر كان إذا استعمل عاملاً كتب ماله[٣]، وعن عبد الله بن المبارك: قال كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم[٤].

وقال ابن حبيب المالكي: وكان عمر إذا ولي أحداً أحصى ماله لينظر ما يزيد ولذا شاطر العمال أموالهم حيث كثرت وعجز عن تمييز ما زادوه بعد الولاية قاله مالك وشاطر أبا هريرة وأبا موسى وغيرهما[٥].

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن يتعرف على الوضع المالي للعامل قبل الولاية، يتابعه متابعة دقيقة فإذا أثرى وزاد ثراؤه عن الحد المعقول دل ذلك عند الفاروق عمر رضي الله عنه على نوع من استغلال النفوذ، أو استخدام المنصب أو الاستفادة من جاه العمل في كسب المال، الأمر الذي يقتضي المحاسبة والمقاسمة أو المصادرة على حسب قوة القرائن

[١] الرقابة الإدارية، ص: ٢٧٠.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٧٠.
[٣] الطبقات الكبرى (٣/ ٣٠٧).
[٤] فتوح البلدان، ص: ٣٠٧.
[٥] مواهب الجليل شرح مختصر خليل (٦/ ١١٩ ـ ١٢٠).

ووضوح الأدلة، وقد قاسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد ابن أبي وقاص ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبا هريرة[١].

وقد بنى الفقهاء على هذه السنة العمرية قولهم: ويحصى ما عند القاضي حين ولايته، ويأخذ ما اكتسبه زائداً على رزقه[٢].

إن البداية الصحيحة للرقابة المالية الإدارية هي: تطبيق دعائم النظام السياسي الإسلامي التي منها: سيادة الشرع التي تقتضي خضوع الدولة لحكم الإسلام، والانصياع لأوامره ونواهيه، والتزام جميع السلطات البرلمانية والقضائية والتنفيذية بنصوصه وتعاليمه وأحكامه ومنها إقامة العدل والشورى، والبيعة الاختيارية التي تقتضي أن تعقد الأمة عقداً تلتزم بموجبه بالسمع والطاعة للرئيس المنتخب ويلتزم الرئيس بموجبه بقيادة الأمة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين.

موارد الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

لابد من التركيز على غرس القيم الإيمانية في مختلف مؤسسات التكوين المهني حتى نخرج موظفين مؤهلين لحمل الأمانة بعد أن أصبحت مؤسساتنا تخرج لاهثين وراء المال إلا من رحم ربك[٣].

ـ الرقابة والتدقيق على كافة موارد الدولة وفقاً للقوانين واللوائح والأنظمة المالية والمحاسبية.

ـ تحديث أساليب الرقابة المالية في الدولة وجعلها متسقة مع المعايير العالمية ذات الصلة، سواء ما تعلق منها بالتقارير الرقابية أو تقارير التدقيق والتفتيش والمتابعة.

ـ تجنب الخلط الشائع بين مفاهيم الموازنة والحساب الختامي، وبين الموازنة العامة والموازنة الاقتصادية والحسابات القومية، والموازنة العامة وموازنة المشروعات الخاصة، وإيلائها ذات القدر من الاهتمام والتدقيق والمراجعة.

---

[١] الرقابة الإدارية، ص: ٢٩٠.

[٢] مواهب الجليل شرح مختصر خليل (٦/ ١١٩).

[٣] الرقابة الإدارية، ص: ٣٠٠.

ـ مراقبة مدى شرعية وقانونية وملاءمة القروض التي تبرمها الدولة سواء كانت مقرضة أو مقترضة.

ـ مراقبة وتدقيق كافة أوجه الاستثمار لأموال الدولة في الداخل والخارج.

ـ فحص وتدقيق الحسابات الختامية لكافة أجهزة الدولة وهيئاتها ومؤسساتها.

ـ التدقيق والمراجعة لكافة قرارات الإعفاء التي تتخذها سلطات الدولة للأفراد أو للأشخاص من الحقوق المترتبة على كاهلهم للدولة.

ـ الرقابة الصارمة على إعداد الموازنة العامة وتنفيذها.

ـ ضمان الاستخدام الأمثل للموارد المادية والبشرية والتقنية للدولة بما يقلل الهدر في موارد الدولة، ويحكم توجيه تلك الموارد نحو خدمة المواطن أيما كان وأينما وجد.

ـ حسن اختيار وتدريب وتأهيل والارتقاء بخبرات كافة الكوادر البشرية العاملة في حقل المحاسبة والتدقيق والمراجعة لموازنة الدولة وأوجه الإنفاق.

ـ سن التشريعات اللازمة لإحكام الرقابة على إيرادات ونفقات الدولة وتدقيق أوجه الصرف، وتغليظ العقوبات على كافة أوجه الفساد والرشوة والغش والمحسوبية والمحاباة والابتزاز والتدليس والإهمال وهدر المال العام والاستيلاء وتسهيل الاستيلاء عليه، وتغليب المصالح الاقتصادية لبعض الأشخاص أو الجهات على المصلحة الاقتصادية للدولة.

ـ أن تتسم دواوين وأجهزة الرقابة والمحاسبة بالحياد والنزاهة والاستقلالية عن أجهزة الدولة إدارياً ومالياً وسياسياً.

ـ زيادة رقعة التعاون وتبادل الخبرات بين الأجهزة الرقابية المالية والإدارية والمحاسبية داخل الدولة، وكافة المنظمات الإقليمية والدولية ذات الصلة بالرقابة المالية الحكومية، وفي طليعتها المنظمة الدولية للأجهزة العليا للرقابة المالية العامة والمحاسبة وهي أعلى هيئة تنظيمية دولية لشؤون الرقابة المالية الحكومية.

ـ عدالة توزيع عائدات النفط، وسائر ثروات البلاد بين مواطنيها ومدنها وأقاليمها على نحو عادل متوازن ووفقاً لمنهج علمي، يحفظ حق الأجيال القادمة ويرفع الظلم عن المناطق والمدن والمواطنين الذين حرموا من ثروات بلادهم لردح طويل من الزمن.

ـ إبرام عقود بيع النفط بشكل شفاف ومعلن وإيجاد آلية تكفل الرصد والرقابة والمحاسبة عن كافة ما يتعلق بمفردات موازنة الدولة، وسبل إنفاقها، وذلك بما يكفل القضاء على سوء الإنفاق وتبديد ثروات البلاد.

ـ فتح ملفات الفساد المرتبطة بكبار موظفي الدولة الذين تورطوا في هدر وسرقة الأموال العامة ومحاربة الرشوة والمحسوبية والاستيلاء على المال العام والتلاعب بمقدرات الدولة.

ـ إرساء مفاهيم الشفافية والمساءلة العامة، والعمل على تغيير وإعادة تسويق الدولة ككيان محارب للفساد المالي والإداري والسياسي، وذلك خروجاً من تلك الصورة القاتمة التي رسمتها النظم الاستبدادية لبعض دول المنطقة والتي عبرت عنها منظمة الشفافية الدولية من خلال موقعها بعض الدول العربية والإسلامية مرتبة متدنية بين دول العالم في هذا المجال.

الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل في هذا الكتاب فيما يتعلق بـ

"الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها".

فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد والمنّة، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه والله ورسوله بريء منه وحسبي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ وعسى ألا أحرم من الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى:﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر ، آية : ١٠).

فهرس لكتاب

كتب صدرت للمؤلف:

١ ـ السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢ ـ سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٣ ـ سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٤ ـ سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٥ ـ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٦ ـ سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
٧ ـ الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨ ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩ ـ تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
١٠ ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١ ـ عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم.

١٣ ـ الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤ ـ معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥ ـ عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦ ـ خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧ ـ عصر الدولة الزنكية.

١٨ ـ عماد الدين زنكي.

١٩ ـ نور الدين زنكي.

٢٠ ـ دولة السلاجقة.

٢١ ـ الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣ ـ الشيخ عمر المختار.

٢٤ ـ عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥ ـ فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦ ـ حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧ ـ وسطية القرآن في العقائد.

٢٨ ـ فتنة مقتل عثمان.

٢٩ ـ السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠ ـ دولة المرابطين.

٣١ ـ دولة الموحدين.

٣٢ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣ ـ الدولة الفاطمية.

٣٤ ـ حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي.

٣٥ ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦ ـ إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧ ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨ ـ الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩ ـ المشروع المغولي عوامل الإنتشار وتداعيات الإنكسار.

٤٠ ـ سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١ ـ الشورى في الإسلام.

٤٢ ـ الإيمان بالله جل جلاله.

٤٣ ـ الإيمان باليوم الآخر.

٤٤ ـ الإيمان بالقدر.

٤٥ ـ الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٦ ـ الإيمان بالملائكة.

٤٧ ـ الإيمان بالقرآن والكتب والسماوية.

٤٨ ـ السلطان محمد الفاتح.

٤٩ ـ العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٠ ـ الحريات من القرآن الكريم.

٥١ ـ المعجزة الخالدة.

٥٢ ـ الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها.